دراسات في
الأدب العربي الحديث ومدارسه

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

الجزء الأول

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

هذا الكتاب « الأدب العربي الحديث ومدارسه » يشمل دراسات واسعة عن مدارسنا الأدبية والشعرية المعاصرة وأثرها فى سير حركة الأدب فى مصر والعالم العربى ، وما أضافته من جديد إلى جميع فنون الأدب الشعرية والنثرية ، كما يشمل ترجمات عديدة لأعلام الكتاب والشعراء والنقاد ، الذين أثروا بفكرهم النهضة الأدبية المعاصرة ، وأثروا فى دعمها ورفع صروحها عالية فى كل مكان .

وهو حلقة من حلقات عديدة كتبتها عن الأدب الحديث ، من مثل : قصة الأدب فى مصر ، وقصة الأدب المعاصر ، ودراسات فى الأدب المعاصر ، والشعر والتجديد ، ورائد الشعر الحديث ، وصور من الأدب الحديث ، وغيرها .

وأتمنى أن يجد الباحثون فى حمل عبء تنمية الدراسات الأدبية والنقدية لأدبنا الحديث وأعلامه ومذاهبه ومدارسه وحركات التجديد فيه ؛ وأن لايدخروا جهدا فى دعم الأصول الفنية التليدة لشعرنا العربى ، وأن تتعاون كل الطاقات من أجل خدمة لغتنا الخالدة وآدابها الشريفة .

واليوم نشعر فى زهو واعتزاز بدور الأدب فى حمل عبء النضال العربى وفى الكفاح من أجل الحرية والتقدم وبناء الإنسان ، وفى التمهيد للمستقبل المرموق الذى يتطلع إليه كل مسلم وعربى فى كل مكان فى الأرض ، وبخاصة بعد أن كانت معارك التحرير الخالدة فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ - السادس من اكتوبر ١٩٧٣ م ثمرة من ثمار كفاح الأدباء والشعراء من أجل تعزيز

روح الإيمان ، وتقوية صروح الثقة بقدرة المواطن العربي على شق الطريق لأمته وسط الصخور والأشواك ، وعلى بناء المستقبل الذي يريده لأمته العربية وللأجيال المستقبل الذين يترنمون في يومهم وسيترنمون في غدهم كذلك بأناشيد المجد والنصر والعزة والكبرياء .

إن أدبنا المعاصر اليوم يقوم بدوره في رفع معنويات الإنسان العربي المسلم في كل مكان ، وفي دفعه للاعتزاز بماضيه وتراثه وقيمه الروحية الرفيعة اعتزازه بحاضره الذي يبنيه بكفاحه ونضاله ، دون تردد أو إبطاء .

وبعد فهذه هي الدراسات التي أقدمها عن الأدب العربي الحديث ومدارسه، والتي تتناول شتى مذاهبه وحركات التجديد فيه ، وتعرض لجميع مدارس الأدب المعاصر ، وآرائها والفنون الأدبية الجديدة وبخاصة القصة والمسرحية والمقالة ـ واتجاهاتها وأصولها .

وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى أقوم طريق ، وما توفيق إلا بالله ؟

المؤلف

تصدير

— ١ —

أدبنا القديم — بمذاهبه، وألوانه وحركات التجديد والإبداع فيه — شخصية مستقلة، لها ذاتيتها في الفكر، ولها طابعها في التصوير والتعبير والابتكار الفني..

إنه لا يحكي أدبا آخر، ولا يقلد فكراً غريبا عنا، لأنه ينطلق من داخل نفوسنا وعقولنا، ويصور الحياة التي كانت تدور من حولنا. وهذا الأدب، كان في حركة دائبة، نحو الصعود والقوة والتطور، ونحو الاكتمال الفني، نحو الازدهار والنهضة. على الرغم من المعوقات التي اعترضت طريقه، والعقبات التي كانت تحول دون بلوغه غاية قوته، وأوج إبداعه، وعلى الرغم من مختلف التأثيرات التي دخلت عليه، حينما امتدت الدولة الاسلامية، واتسع نطاقها، وتعددت الأجناس فيها.

وجاءت طبقات المحدثين، طبقة بعد طبقة، فجعلت من هذا الأدب صورة كاملة لحياة الأمة الإسلامية، الممتدة من الصين إلى شواطىء المحيط الأطلسي «بحر الظلمات» إلى أواسط أفريقية.. ولم يعد هذا الأدب العربي صورة لحياة العرب وحدهم، وإن كانوا هم أصل الخلافة والدولة والملة، بل صار ينطق بأفكار أمة إسلامية كبيرة، حقق لها الإسلام وحدتها السياسية والدينية والعقلية والاجتماعية، وصار يعبر عن أيديولوجية متميزة، عن مقومات متكاملة الفكر والحياة والسلوك والعمل والأمل، عن حضارة رفيعة، ذات أصول شريفة، وجذور عميقة ضاربة في باطن التاريخ والفتح والمجد الكبير، الذي حققه قومي وقومك المياميين.

فلم يعد — إذن — هذا الأدب صورة لحياة العرب وحدهم ، بل لقد أصبح يمثل أمة وحضارة ، وخلافة ودولة لم ير التاريخ ولا الزمان ولا الإنسان لها مثيلا .

— ٣ —

ومن هنا كان الفرق بين القدماء والمحدثين من الأدباء والشعراء ، ولقد عبر النقاد قديما وحديثاً عن هذا الفرق بالغرض وبالمظاهر المختلفة ، من حيث اللغة والأسلوب والصور والأخيلة والمعانى والأفكار والأغراض ، وأعبر أنا عنه بالأصل والجوهر والحقيقة .

لقد أصابوا بعض الحقيقة وأخطأوا بعضها الآخر . . ومن ثم أستطيع أن أكمل الطريق الذى ساروا فيه ، وأن أظهر خفايا الصورة التى لم يفطنوا إلا إلى ألوانها ، وأن أرسم الجذور العميقة التى لم يتبينوها فى الصورة . . إن نقادنا القدماء والمحدثين وقفوا فى بعض الطريق ، ولا بد من أن نكمل الشوط من حيث انتهوا . .

إن الفرق — على الحقيقة — بين القدماء والمحدثين من أدبائنا : أن القدماء عبروا فى أدبهم عن حياة عربية خالصة ، ذات ذوق رفيع متميز البلاغة والبيان ، والخصائص ، عن أمة عربية ذات تقاليد وأصول عميقة . حيث كانت تعيش هذه الأمة فى الجزيرة العربية وما حولها من العراق والشام . . أما المحدثون فعبر أدبهم عن أمة إسلامية كبيرة ، شملت الفرس والهنود والترك وشملت المصريين والبربر والزنوج وشملت الروم والأندلسيين وغيرهم . . ولم يعد فى هذه الأمة وجود لفوارق من جنس أو لون ، بل وحدتهم عقيدة الإسلام دينا وسلوكا وعملا ، ووحدهم كتاب الله شريعة ولغة وثقافة وفكراً وأدبا ، وأظلتهم حضارة إسلامية واحدة ، انتمت إلى القرآن كتابها ، وإلى العربية لغتها .

ولا بد من أن تختلف أنماط الأدب القديم والمحدث ، بعد هذا التطور

الكبير ، والانتقال الضخم ، من أمة عربية ، إلى أمة إسلامية . وهذا الاختلاف صاحبته ثورة النقاد من محافظين ومجددين ، ومن ساخطين وغير ساخطين وراضين .

وكما اختلفت الحياة يومئذ من صور البداوة إلى كل حقائق الحضارة اختلفت كذلك أساليب الأدب وصوره وموسيقاه وموضوعاته وأخيلته وأفكاره ومعانيه عن ذى قبل ، واعتمد المحدثون البديع وألوان الترف الفنى فى الأداء ، وخرجوا على عمود الشعر ، وأضاف ذلك كله إلى الأدب القديم تيارات جديدة ، تجمعت فيما نسميه « أدب المحدثين » .

ومع ذلك كله ، ومع الخلاف الواضح بين أدب القدماء والمحدثين ، فإننا قد نستطيع أن نذهب مذهبا جديداً فى الرأى وهو أن الأدبين كلهما أدب واحد ، ذو خصائص متقاربة ولغة واحدة وعقلية طبعها الإسلام والقرآن بطابع خاص أصيل متميز ، ليس له مثيل بين مختلف آداب الأمم والشعوب فى قديمها وحديثها ، فى ماضيها وحاضرها فى أمسها ويومها الحاضر والراهن .

— ٣ —

ومع تعدد المذاهب الأدبية فى أدبنا العربى ، منذ ظهور الإسلام حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى . ومع كثرة أدبائنا وكتابنا وشعرائنا ، فإن هذا الأدب وحد المسلمين فى كل عصورهم فكرياً وعقلياً وثقافياً إلى حد كبير ، بل لقد كان هذا الأدب العالمى الرفيع هو الذى يقرؤه شبابنا ، بل شباب العالم المثقف فى الشرق والغرب ، منذ أوائل ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى ، حتى القرن السادس عشر الميلادى : العاشر الهجرى ، على وجه التقريب .

فى أوربا لم يكن لديهم ثقافة ، وكانت الثقافة العربية ، ومظهرها العظيم — وهو الأدب العربى — يبهران عيونهم وقلوبهم وأفكارهم . فلم يكونوا

يقرءون غيرهما ، حتى لقد صاح بترارك الشاعر الإيطالى (١٣٣٤ — ١٣٧٤م) من القرن الرابع عشر الميلادى يقول :

ياعجباً . . لقد استطاع شيشرون(١) أن يكون خطيباً بعد ديموستين(٢). واستطاع فرجيل(٣) أن يكون شاعراً بعد هوميروس(٤) فهل قدر علينا أن لا نؤلف بعد العرب ؟ . . لقد تساوينا نحن والإغريق وجميع الشعوب غالباً، وسبقناهما أحيانا ، إلا العرب .

فيا للعبقرية الخامدة ! ! » .

وصاح كذلك بمريرك قرطبة فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، بعد سقوط الأندلس فى أيدى الأسبان بنحو ثلث قرن ، يقول :

« وا أسفاه . . إن كل الشبان المسيحيين ، الذين يريدون إظهار نفوسهم ، نجدهم لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابهم . . . » . . ولم يكن قهر الأسبان العسكرى للعرب بمنتقص من إعجابهم الفكرى بهم قيد شعرة .

وتقول المستشرقة الألمانية المعاصرة « هونكة » فى كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » : « استيقظ الفكر الأوربى من سباته ، الذى دام نحو عشرة قرون أو يزيد ، على صوت قدوم العلوم والآداب والفنون الإسلامية(٥) . . » وتقول أيضاً : « كل موجة علم أو معرفة قدمت لأوربا كان مصدرها البلدان الإسلامية(٦) :

---

(١) خطيب رومانى مشهور « ١٠٧ - ٤٣ ق . م »

(٢) خطيب إغريقى قديم مشهور ، عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد .

(٣) شاعر رومانى مشهور « ٨٩ - ١٩ ق . م » .

(٤) شاعر إغريقى عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد .

(٥) ٥٤١ شمس العرب - طبعة بيروت العربية .

(٦) المرجع نفسه .

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » : « أوربا مدينة للعرب بحضارتهم ، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية ، وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق وكشف ماضيه ، فأخذ ينقب عنه » .

والأدب العربي كذلك كان هو حارس الفكر الإسلامى والتراث العربى الإسلامى كذلك ، وكان المعبر عن المجتمع الإسلامى أيضا ، وعن العقيدة الإسلامية ، بكل طاقاتها وألوانها وجوانبها ، الظاهرة والخفية على حد سواء .

وأدب أبى نواس وأضرابه إنما كان أدب اللهو واللاهين فى مجتمع حضارى مترف ، شبع من الجد ، وغرق فى العمل والبناء والكفاح حتى أذنيه .

ومن ثم كان أدب عبد الحميد ، وابن المقفع ، والجاحظ ، والتوحيدى ، والبديع ، والخوارزمى ، والحريرى . كما كان شعر حسان وطبقته والفرزدق وجرير وطبقتهما ، وبشار وأبى العتاهية ، وأبى تمام والبحترى وابن المعتز والمتنبى والمعرى ، وغيرهم ومن قبل ذلك آداب الجاهليين ، ومن بعد ذلك كله القرآن الكريم والحديث النبوى وآداب الإسلاميين ، كان ذلك كله يمثل الثقافة العالمية ، بكل مذاهبها وتياراتها تمام التمثيل .

— ٤ —

وفجأة انهار العالم الإسلامى ، سياسيا وعسكريا ، وأخذ الغرب عنه مصادر قوته وثقافته وحضارته وثرواته . ثم انتقل الغرب إلى مستعمر شرس وقح مغتصب ، وجاس خلال العالم الإسلامى ، ينهب ثروته ، ويسلبه كنوزه ، ويأخذ منه كل معارفه وعلومه ، وأخذ يعمل على التدريج من أجل « تطوير » العالم الإسلامى من مجتمع كبير محافظ متمسك بتقاليد الإسلام وآدابه ، وبمظاهر الحياة الإسلامية النقية ، ومعتنق لما بقى فى يديه من أصول حضارة المسلمين وتراثهم ، إلى مجتمع متحلل مقلد للغرب ، آخذ بتقاليد أوربا ، زاهد

فى ماضيه ، وفى كل مايتصل بهذا الماضى بسبب ، وأخذ يرى التمسك بكل ذلك رجعية وجمودا وتأخرا .

وانتقل العالم الإسلامى على يدى هذا الغزو الغربى الفكرى والحضارى والثقافى إلى مجتمع أوربى ، يعيش فى مواطن الإسلام والمسلمين .. ولا يعنى ذلك انعدام المحافظين المتمسكين بالإسلام ، كلا . فهناك المسلمون الأصلاء، الفاقهون بدينهم وماضيهم ، ولكن الغزو الأوربى لبلادهم كان أكبر منهم قوة وأكثر منهم حيلة ، وأشد منهم آثارا فى الأرض فقد صارت حياة الكثيرين من حيث الجانب الاجتماعى والاقتصادى والثقافى والأدبى - تسير فى تيار جديد ، وعلى نمط أوربى خالص .

وقد أصبحت - بتأثير ذلك كله - ثقافتنا ومناهج التربية والتعليم بيننا ، أوربية الطابع ، والمذهب أيضا ، حتى فى بعض جامعاتنا الإسلامية ، وذلك على الرغم منا .

والأدب لم يكن حظه أحسن من حظ غيره من جوانب حياتنا ،فأفكار أدبائنا اليوم هى أفكار غربية محضة ، وكان طه حسين يقول : « إننى أفكر بالفرنسية ، وأكتب بالعربية » .

ومذاهب نقادنا اليوم هى مذاهب غربية كذلك ، وماأكثر مانقول اليوم: كلاسيكية ، ورومانسية ، أو بعبارة أخرى رومانتيكية » ، ونقول : رمزية، وواقعية ، وبرناسية ، وسيريالية ، ووجودية وطليعية ، ومذاهب المعقول واللامعقول .

وهى كلها مذاهب غربية خالصة .

وأجناس أدبنا الحديث اليوم : من قصة ، ومقالة ، وملحمة ، ومسرحية وغيرها . هى ، أو أصولها الفنية . غربية الطابع .

وأخيلة أدبائنا هى فى جملتها أخيلة غربية .. وفى الأساليب انتقلت إلى

أساليبنا العربية الفصيحة عدوى الأساليب الغربية . . وقل أن نجد اليوم من يكتب من أدبائنا بأسلوب عربي فصيح ، بعيد عن لكنة الغرب ، وعن كثير من ألفاظه الافرنجية الوافدة .

وكل شيء في أدبنا العربي يكون مظهرا لتقليد أدبي قديم ، أصبح أدباؤنا يدعون إلى التحرر منه ، فعمود الشعر العربي هو عندهم خطأ قديم ، يصيح لويس عوض : فيقول في كتاب له : لقد مات عمود الشعر بموت شوقي . . حطموا عمود الشعر العربي » ، وأصبحنا اليوم أمام دعاة الشعر الحر(١) والمرسل (بلا قافية) ، وأمام دعاة ألوان كثيرة من الفوضى الشعرية التي يدعون لها باسم التجديد ، وما أكثر ما نظلم التجديد .

وانتقل الشعر الحر من مصر ، أومن العراق إلى الشام والسودان ، وإلى المملكة العربية السعودية ، فأصبحنا نجد من شعرائها من ينظمون شعرا حرا أيضا ، ومن لا ينظمون إلا شعرا حرا مع أن أرضها هي التي شهدت مولد الشعر العمودي ، واحتفلت به خلال الأجيال والعصور ، ونقلته إلى كافة أنحاء العالم ، وتأثرت به الآداب الغربية ، والشعر الغربي على امتداد الأيام .

أدبنا اليوم أصبح لا يمثل حياتنا ، ولا هو يمثل ثقافة أو حضارة خاصة بنا ، ولا يمثل في قليل ولا في كثير شيئا من خصائصنا الأصيلة ، المتميزة ، إلا في القليل الأقل منه ، وعند القليل الأقل من أدبائنا ، هذا القليل الذي ينصرف شبابنا والمتأدبون منا عن القراءة له ، بدعوى أنه أدب قديم رجعي لا أدب حديث متجدد .

---

(١) شعر بلا موسيقى ووزن ، الفريق الأولون من شعرائه نظموه على نمط التفعلية دون حرص على ازدواجها وتناسقها بين شطري البيت ، ومن ثم عد هؤلاء رجعيون ، وجاءت طبقة أخرى تنظمه بلا تفعيلة ، فنشأت عن ذلك « قصيدة النثر » التي ضمنوها أردأ تجاربهم وأفكارهم وتحللهم من كل قيد .

— ٥ —

وأخيرا . . فماذا أريد أن أقول .

ماذا أريد أن أكتب ؟

ماذا أعني ؟

أقول أولا : إن مذاهبنا الأدبية الراهنة هي كلها مذاهب غربية خالصة ، لاتعني في شيء ، إلا أن تفسد علينا عقولنا ، وأفكارنا ، وأن تزهدنا في ثقافتنا وتراثنا ، وأن تصرفنا عن تقاليدنا الأدبية الأصيلة . ولست وحدي الذي أقول ذلك .

يقوله بعض كتابنا بين الحين والحين حين يصدمهم واقع الحياة الراهنة والأدب الراهن الممجوج المبذول المملول ، ويقوله بعض المستشرقين أحيانا حين تعتريهم نوبة إنصاف ، فيتحررون من طابعهم ، ومن أغراضهم السرية التي يعملون لها بيننا . ومن حقائق الصراع العالمي بين الإسلام والغرب الصليبي ، التي يخفونها في أنفسهم . وما أكثر المستشرقين الذين يتظاهرون بالعطف على الإسلام والعرب ، حتى يتمكنوا من قلوبنا ، ومن النفوذ إلى أغراضهم في وسطنا . أقول : إن هذا قد يقوله بعض المستشرقين كشارل بيلا الذي زار المملكة العربية السعودية منذ أعوام ، فسأله صحفي عربي :

ـ ماذا تقرأ ؟ الأدب العربي القديم أم الحديث ؟

ـ القديم وحده .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن الأدب الحديث أدب غربي مكتوب بحروف عربية .

أدب غربي مع مافي أدب الغرب من سفالات فكرية وإنسانية لاتخفى

على أحد ، فهناك من الوجوديين فى أوربا من يكتب دفاعا عن الشذوذ الجنسى ، أو تبريرا لاتخاذه أمه عشيقة له .

وأقول ثانيا : إننا فى أشد حاجة إلى مذهب أدبى جديد ، يستمد لغته من لغة القرآن ، ويستمد حقائقه من حقائق حياتنا ، ويستمد أفكاره من آمالنا ومثلنا .

نريد أدبا عربيا جديدا يعرف طريقه وموقفه وغايته .

يعرف أن الغرب الذى تآمر على حياتنا وحرياتنا وتقاليدنا ، وسرق حضارتنا وثقافتنا وأدبنا وكنوزنا ، يقف اليوم ليحولنا إلى أوربيين فى ثياب شرق . إنه لا يرضى أن يتركنا - ولو مسلمين بالاسم فقط - بل يريد أن ينسينا الإسلام جملة ، وأن يصرفنا عنه ، ولماذا ؟ لأنه النبع الذى سوف يعود إلى الفوران والانبثاق والتدافع مرة أخرى ، إن لم يكن اليوم فغدا وإلا فبعد غد ، بأمر الله .

فالصراع اليوم بين الغرب والعرب ، الغرب بأذنابه - من صليبيين - وصهيونيين ، وملحدين ، إنما هو صراع حول الحياة . .

ولا بد لأدبنا أن يعبر عن حقائق هذا الصراع ، وأن يقف أدباؤنا أنفسهم لرفع الغشاوة عن أعين جماهيرنا المسلمة ، لتعرف أن الإسلام باق أبدا فى رقعتنا العربية المسلمة ، وأنه سيظل نورا حضاريا وهاجا ، يمد العالم بأصول حياته الروحية والمادية .

والمذهب الأدبى الجديد الذى أدعو إليه ، يقوم أو يجب أن يقوم على الأسس الآتية :

١ - أيديولوجية فكرية إسلامية عميقة الجذور .

٢ - إيمان مطلق بتراث الاسلام الحضارى والأدبى .

٣ — يقين تام مطلق بأن لغة القرآن الكريم هى أرقى لغة أدبية عالمية، وهى اللغة الصالحة لأداء رسالتنا الأدبية إلى العالم كافة.

٤ — عالم موحد النزعات فى ظلال إسلام دائم، يعتنق عقيدة واحدة هى عقيدة قرآننا الكريم.

٥ — أهداف الأدب يجب أن تسير مع أهداف الإسلام، ومثله، وقيمه الروحية والاجتماعية والحضارية.

بماذا نسمى هذا المذهب الأدبى الجديد إذن؟

لنقل عنه ماشئنا من الأسماء .. هو مذهب أدبى عربى خالص إن شئنا وهو مذهب حضارى مثالى إن أردنا وهو مذهب إنسانى فى الأدب إن اخترنا له هذا الاسم.

لاضير . . مادمت أدعو إلى الإسلامية أو الحضارية، أو المثالية، أو الإنسانية فى الأدب بهذا المعنى الذى أريده.

وما توفيقى إلا بالله . . .

تقديم

— ١ —

كان الأدب العربي منذ نشأته حافلا بألوان البلاغة والتعبير عن النفس الإنسانية فى صدق وإخلاص، زاخراً بشتى الأحاسيس النبيلة ، والعواطف السامية . كان صورة لبيئة العرب الاجتماعية ولحياتهم العقلية . وكان مظهراً جليلا لأيامهم ولعاداتهم ولثقافتهم الفطرية السهلة ، تمثل فى العصر الجاهلى فى هذه الألوان الغنائية الجميلة من الشعر ، التى كانت تنبع من نفس الشاعر ، وتعبر عن ذاته وعاطفته ، وتتحدث عن حياته ومجتمعه وملامح بيئته . . كما تمثل فيما عرفه العرب من حكمة ومثل وسجع ومن خطابة نبغوا فيها، وجعلوها كالشعر ناطقة بمحامدهم ومفاخرهم وأيامهم ومجدهم .

وجاء الإسلام ونزل الوحى على محمد بن عبد الله بالقرآن ، كتاب البشرية الخالد ، ومعجزة الإسلام الجليلة ، فأخرس البلغاء ، وأسكت الفصحاء ، وبهر الأدباء والخطباء والحكماء والشعراء . . وأخذ الماجنون والفاخرون والهجاءون والمداحون يتحولون عن هذه الألوان الضيقة من الأدب إلى الإنسانية فى أوسع حدودها التى مثلها ودعا إليها القرآن الكريم ، فخفت أدب الهجاء والفخر والمدح والمبالغة والكذب ، وانتهى عهد المجون واللهو .

وتحول الأدب العربى إلى أدب ثورى روحى، يدعو إلى التحرر والثورة، وإلى التوحيد المطلق ، وإلى القضاء على كل مظهر من مظاهر الضعف الإنسانى ، ويدعو إلى السمو النفسى والروحى ، وإلى الأدب الصادق الهادف ، وإلى كل مامن شأنه إعزاز الإنسان وكرامته فى الحياة .

ولكن العصبية الجاهلية التى سكنت فى صدر الإسلام عادت قوية جذعة

فى العصر الأموى ، فظهرت الأحزاب ، وتعددت العصبيات وتنوعت الطوائف ، وعاد فن الهجاء والفخر والمدح والمجون كما كان . ولكن ألوانا جديدة من الأدب بدأت تظهر كأدب الرسائل وأدب الزهد وأدب الحكمة، وأدب الأرجوزة وكالغزل القصصى والعذرى .

ثم جاء العصر العباسى بحضاراته وثقافاته وامتزاج العناصر فيه ، وبدوله الناشئة وبمدنه ومعاهده وجامعاته الزاهرة ، فقامت للأدب سوق رائجة ، وتعددت ألوانه وازدهرت فنونه ، ونشأ فن المقامة ، وأدب الطبيعة ، والأدب الصوفى، والأدب الفلسفى ، والأدب القصصى وأدب الحرب ، وألوان أخرى ، وفى آخر العصر العباسى كان العالم الإسلامى قد أعياه الكفاح . وكانت الثقافة الإسلامية قد بدأت الشيخوخة تدب إليها ، وكان الفكر الإسلامى قد اعتراه الكلال والجمود ، وأثر ذلك تأثيراً كبيراً على الملكات ، وعلى الفطرة الأدبية ، وعلى فنون الأدب . تأثيراً كبيراً استمر صداه فى العصر التركى والعثمانى وجانب كبير من العصر الحديث .

— ٢ —

وبدأت النهضة من جديد فى العالم العربى فى أواخر القرن التاسع عشر، فكثر المفكرون ، ودعاة القومية ، وزعماء الوطنية ، وتعددت الثورات ضد الاستبداد والطغيان السياسى ، وبدأت مصر تعنى بإحياء التراث الأدبى القديم وذاعت الصحافة ، وكثرت المطابع ، وبدأت الثقافة الغربية تفد على عواصم العالم العربى وتغزو معاهده وجامعاته ، عن طريق أعضاء البعثات الموفدة إلى أوربا ، والمدارس الأوربية التى أنشئت فى كثير من المدن والعواصم العربية ، وعن طريق الاختلاط بين العرب والأوربيين فى كل مكان ، وكان لذلك صداه البعيد ، وأثره القوى على الأدب فأخذ الأدب يتحرر من الضعف والمبالغة والكذب ، ومن العى واللكنة ، ومن الصور الباهتة ، والعواطف الزائفة ، ومن كل ما يتنافى مع الفطرة والطبع والموهبة

الأدبية الصادقة ، وهجر الناس السجع المتكلف والزخارف اللفظية ، وكان لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده (-١٩٠٥) والبارودى ومصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) وسعد زغلول (-١٩٢٧) ولطفى السيد (١٥ يناير ١٨٧٢- ٥ مارس ١٩٦٣) أثر ضخم فى تطور الأدب وتحريره من قيود القديم ، وتطلعه إلى كل جديد ، وإلى التعبير عن النفس الإنسانية فى صدق وإخلاص وقوة .

وظهر الأدب القومى ، والأدب الوطنى ، والأدب الثورى ، ونشأ فن القصة التاريخية ، وتنوعت ضروب الأدب ،فبعد أن كانت السمة الغنائية غالبة عليه ، تنوع إلى أدب قصصى وتمثيلى وغنائى ، وظهرت المسرحية الشعرية قوية رائعة على يد شوقى وأبى شادى وعزيز أباظة وأضرابهم ، ونبغ فى فن الخطابة السياسية والقضائية والبرلمانية وذاع أدب المحاضرة والمناظرة .وازدهر أدب الطبيعة .

وبعد أن كان الاتجاه الكلاسيكى سائدا فى الأدب ظهرت النزعة الرومانسية التى حملت لواءها مدرسة أبولو ، ثم ظهر الاتجاه الواقعى والسريالى والرمزى فى الأدب شعره ونثره .

ومن الجدير بالذكر أن الثورة العرابية وحركة مصطفى كامل ومحمد فريد الوطنية وثورة عام ١٩١٩ ،كان لها أثر بعيد فى الأدب .

وقامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فطبعت الأدب العربى بطابع كفاحى متميز ، وأخذ الأدب يتغنى بمفاخر مصر وبطولات العرب ويدعو إلى الوحدة العربية والقومية العربية ، ويهيب بالعرب أن يهبوا إلى مكافحة الاستعمار والصهيونية والشيوعية والدخلاء ، وأن يتجهوا اتجاها قوميا فى أدبهم ، وأن يعنوا بمشكلات المجتمع العربى وتصويرها ، وأن يعملوا

ما فى وسعهم لبعث الإيمان بالوطن والحرية فى قلب كل عربى يعيش فى بلاد العروبة شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً .

واتجه الأدب إلى البساطة وإلى نبذ كل القيود ، ونشأت من ذلك مذاهب أخرى ، ومنها الدعوة إلى العامية فى الأدب . وإلى الشعر الحر ، والشعر المرسل ، ولقد انحرف دعاة الواقعية فى الأدب ، فتركوا البلاغة العربية فى صورها الرائعة جملة ، وأخذوا يهذون بألوان من التعابير العامية التى ندعو إلى نبذها لأنها لا ترجع إلى الجمال ، ولا إلى الأصالة ولا إلى دعوة القومية التى يهتف بها العرب فى كل مكان .

— ٣ —

إن الأدب يجب أن يكون حارساً للقومية العربية ولأمجاد العرب وتراثهم وماضيهم وحاضرهم ، لأنه صوت الحرية والنصر .

ولما انعقد مؤتمر الأدباء العرب فى القاهرة عام ١٩٥٧ كان من توصياته :

(١) أن القومية العربية المعتزة بتراثها الأدبى تريد لأدبها أن يكون حارساً للقومية العربية وموجها لها ، يسمو بها إلى ما يغنى الفكر ويرهف الشعور ، ويدفع إلى عمل .

ولذلك يحرص المؤتمر على أن يتواصى الأدباء بالعمل على :

١ — التعبير الصادق عن تجارب أمتهم ومواطنيهم تعبيراً يبرز خصائصهم القومية ويصور حياتهم وما يختلج فيها من آلام وآمال ويغذى وجدانهم بالقيم القومية والإنسانية ، ويردد نضالهم فى سبيل الوحـــدة الشاملة ، والتحرر الكامل .

٢ ـ الحرص على أن تكون عناية الأديب بماضيه وحاضره سبيلا إلى مستقبل أفضل لوطنه وقومه .

٣ — الحرص على أن تتوفر فى الآثار الأدبية القيم الفنية والجمالية.

(ب) ولما كان الشعر إرثا قوميا ثمينا ، ويجب أن يأخذ هذا الإرث مكانه فى الثقافة الأدبية العامة وفى ثقافة الشعراء بوجه خاص ، فقد أوصى المؤتمر :

١ — العناية بهذا التراث والاستفادة منه وكسب التجارب الجديدة له حتى يمكن من التعبير عن حياتنا القومية المتطلعة المتطورة .

٢ — العمل على نشر ما لم ينشر من هذا التراث .

٣ — العمل على إعادة نشر ما يتعذر الحصول عليه .

٤ — تيسير التعريف به عن طريق العرض والشرح والتقريب .

٥ — تأكيد أهمية هذا الشعر فى برامج الدراسة المختلفة .

٦ — نشر مجموعات مختارة من الشعر القومى .

(ج) وللنثر العربى ـ بما توافر له من وسائل النشر والإذاعة وبتنوع الأشكال الجديدة التى اتخذها فى القصة والرواية والمسرحية والمقالة والتأليف على اختلاف موضوعاته ـ أثر بليغ فى توجيه حياة الشعوب وفى تكوين الأجيال الفتية الناشئة ، ولذلك يوصى المؤتمر بالآتى :

١ — أن تعنى الآثار النثرية بتقوية الوعى القومى وإرهاف الشعور واستشراف الغايات الإنسانية واستلهام القيم الروحية السامية وإيثار الخير العام مع الحرص على الإتقان والإجادة الفنية .

٢ — أن يعنى الناثرون بإبراز السمات الإيجابية فى الشخصيات والنماذج التى يصورونها وبخاصة تلك التى تعبر عن القيم العربية .

٣ — أن تكون اللغة العربية الفصيحة هى أداة هذا النثر بكل أشكاله .

(د) ويستطيع الناقد فى المرحلة الحاضرة من حياة الأمة العربية أن يشارك مشاركة فعالة فى التوجيه القومى بتجلية القيم الفنية والإشادة بالخصائص القومية والمثل الإنسانية وتعريف القراء بها ، ولذلك يوصى المؤتمر بالآتى :

١ — أن يأخذ الناقدون أنفسهم بالجد فى أداء مهمتهم فى عمق ونزاهة .

٢ — ترجمة الآثار النقدية القيمة .

— ٤ —

هذا وقد حاول الانجليز أيام الإحتلال القضاء على اللغة العربية فى مصر، وإحلال العامية محلها ، فشنوا على العربية حملة شعواء(١) ، وراحوا هم وأعوانهم يدعون أن سبب تأخر المصريين هو اللغة التى يتمسكون بها(٢) ، ودعا أمين شميل إلى استبدال لغتنا العربية بلغة أجنبية .

وفى ذلك يقول حافظ إبراهيم قصيدته على لسان اللغة العربية :

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى عقمت فلم أجزع لقول عداتى

إلى آخر هذه القصيدة .

وهاجم الرافعى دعاة العامية ودعوتها ، ورأى أن اللغة العربية مرتبطة بالقرآن ، ولابد أن تبقى لغة القرآن كما هى(٣) .

وأما المستشرقون ومن بينهم : وليم ورل، وجرجرر ، فهم يحبذون استعمال

---

(١) راجع الهلال عدد ١٥ مايو ١٩٠٢ ، من مقال لإسكندر معلوف .

(٢) ردد هذه الآراء ويليم ويلكوكس المفتش الإنجليزى بمصلحة الرى المصرية .

(٣) الهلال فبراير ١٩٢٠ ص ٣٩٩

العامية(١) ، ويتابعهم فى ذلك سلامة موسى(٢) ، الذى كتب كثيرا يحاول إثبات قصور اللغة العربية وتخلفها وتخلفنا نحن أيضاً بسببها !!! ويؤيد ميخائيل نعيمة استعمال العامية فى الروايات والتمثيليات(٣) .

ويرى أنطون الجميل أن نشر التعليم يضيق الهـوة بين العامية والفصحى(٤) ورأى أحمد الشايب أن تبسيط اللغة العربية يقرب المسافة بينها وبين العامية(٥) .

ويذهب حسين مروة مذهب الجميل فيقول: إن التباعد بين الفصحى والعامية سيقضى عليه لا محالة يوم تزول الأمية ويزول الجهل من بلادنا .

وينقد أمين نخلة رأى الذين يقولون بالكتابة الوسط إذ لا يرى واسطة بين العامية والفصحى ، وهو يسخر من كل محاولة لاتخاذ سبيل وسط بين الفصاحة والفهاهة .

ومن كتاب العامية الآن : عدد كبير من كتاب القصة ، وبخاصة الشباب وكان محمود تيمور يكتب بالعامية ثم تركها إلى الفصحى ، ويكتب توفيق الحكيم ومارون عبود بلغة وسط .

— ٥ —

والأدب الحديث فى مصر والعالم العربى يبتدىء فى رأى كثير من الأدباء ببدء العصر الحديث ، أى بالحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ ، نظرا لأثرها

---

(١) الهلال عدد ديسمبر ١٩١٩ ص ٢٠٦
(٢) الهـ ل يوليو ١٩٢٦ ص ١٠٧٤
(٣) الغربال ص ٢٧
(٤) الهلال أبريل ١٩٢٠ ص ٥٨٧
(٥) أبحاث ومقالات ص ١٨٧

السياسى والفكرى والعلمى ، ولأنها فتحت مجال الصلات بين الغرب والعالم العربى قوية مؤثرة فى شعوب العرب جميعاً ، ويؤكد ذلك الكثير من الكتاب : جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وعمر الدسوقى فى كتابه «فى الأدب الحديث» ، ومحمود مصطفى فى كتابه «الأدب العربى وتاريخه - الجزء الثالث » ، وأحمد حسن الزيات فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » ، وطه حسين وزملاؤه فى كتابهم « المجمل » ، وفى كتابهم الآخر « المفصل » ، وممن ذهب إلى ذلك العقاد أيضا فى مقالة له (١) ، ذهب فيها إلى أن عصر النهضة فى الأدب العربى الحديث يبدأ بالحملة الفرنسية ، ويشيد عبد الله عنان فى بعض كتبه بالحملة الفرنسية إشادة بالغة وكذلك يحيي حقى فى بعض مقالاته .

وفى رأيى أن الأدب لم يتغير بعد الحملة الفرنسية عما كان عليه قبلها ، فضلا عن أنه لا يمكن أن نؤرخ لبدء الأدب الحديث بحادث احتلال أجنبى لبلادنا مهما كانت نتائجه .

وأرى أن أدبنا الحديث يبدأ منذ قيام الثورة العرابية عام ١٨٨١ ، إلى اليوم ، ففى ذلك الحين ظهر أثر الثورة السياسية والفكرية والأدبية فى أدبنا وقام الأدب الحديث فى النثر بريادة الإمام محمد عبده وفى الشعر بريادة محمود سامى البارودى وهو أول شاعر من ثمار الشعر الحديث .

ويؤكد مندور ذلك أيضا فى مقال له نشره فى مجلة الهدف ، عدد يونيو ١٩٥٦ ، إذ رأى أن أدبنا الحديث قد ظهر منذ الثورة العرابية .

وفى مقال لطه حسين فى مجلة البشير الباكستانية يرى أن الأدب الحديث تحدد اتجاهه الجديد بعد ظهور حركة البارودى فى الشعر وحركة مصطفى كامل السياسية وحركة محمد عبده فى الإصلاح الدينى وحركة قاسم أمين فى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى وتحرير المرأة .

---

(١) عدد مارس ١٩٦٢ من مجلة قافلة الزيت - الظهران .

ويقول : إن محمد عبده رد إلى العقل المصرى الحديث حريته فى التفكير، وذهب محمود تيمور(١) إلى أن فترة الأدب الحديث هى المائة سنة الأخيرة (١٨٥٠ — ١٩٥٠) ، وذلك قريب مما نذهب إليه ..

إن الأدب الذى ظهر بعد الثورة العرابية يخالف الأدب قبلها ، فبينما كان الأدب قبلها أدبًا لفظياً ركيك الصياغة انقلب بعدها إلى أدب أفكار وموضوعات ومناح متعددة فى الحياة ، وإلى أساليب عالية تحاكى أروع الأساليب فى تاريخ آدابنا العربية .

— ٥ —

أما الأدب المعاصر فالرأى فيه من حيث بدؤه ، مختلف أيضا :

فمندور يكاد يعتد بثورة ١٩١٩ بدءاً للأدب المعاصر(٢) ، ويقلده فى ذلك بعض الكتاب ، ومنهم مؤلف كتاب فى «تاريخ الأدب الحديث» إذ ذهب(٣) إلى أن « الأدب الحديث فى مصر يبدأ من الحملة الفرنسية إلى اليوم . . . أما الأدب المعاصر فنعنى به الأدب الذى تعيشه خلال الخمسين عاما الأخيرة أى من ثورة ١٩١٩ ، لأن متوسط عمر الأديب هو خمسون عاما ، وذلك هو المفهوم الزمنى للمعاصرة أما المفهوم الفنى لها فهو المشاركة الأدبية الفعالة بين المتعاصرين من حيث تأثرهم بأحداث هذا العصر وتأثيرهم فيها ومن حيث انفعالهم بالتيارات الأدبية » .

وفى مقال لطه حسين عن الأدب العربى المعاصر ، نشره فى مجلة الرسالة الجديدة ، ذهب فيه إلى أن إنشاء الجامعة المصرية القديمة ، ومدرسة «الجريدة»

---

(١) مجلة الرسالة - المصرية - عدد ١٩٦٤/٤/٢

(٢) مجلة الهدف - يونيو ١٩٥٦

(٣) ص ٦ تاريخ الأدب الحديث ١٩٦٨ القاهرة - د . حامد حفنى داود

وشعر حافظ وشوقى ونثر المنفلوطى(١) قد أثرت فى تغيير العقلية فى مصر فى أوائل القرن العشرين وفى قيام الأدب المعاصر .

وفى رأيى أن نؤرخ لقيام الأدب المعاصر لعام ١٩٢٠ م ، وذلك أن المعاصرة هى حياة جيل تعيش معه ويعيش معك ، وقد قدر ابن خلدون فى « المقدمة » امتداد الجيل بثلاثة وثلاثين عاما . وفى هذا التاريخ - ١٩٣٠ - كانت مدرسة شوقى وحافظ فى قمة مجدها الأدبى ، وبعده بقليل أنشىء المجمع اللغوى فى مصر وقامت مجلة الرسالة التى أصدرها أحمد حسن الزيات وأنشئت كلية اللغة العربية ، ثم قامت جماعة أبولو ومجلتها الشعرية ، وقوى نفوذ الرومانسية الأدبى ، إلى غير ذلك من المظاهر الأدبية التى صاحبت هذه الفترة التى بدأت ببدء العقد الرابع من القرن العشرين ، حيث انتقل الشعر من شعر النماذج العامة إلى شعر التعبير عن الشخصية المستقلة وأثمرت دعوة شكرى والعقاد ومطران وحدة القصيدة ، وهى ليست وحدة موضوعية ، بل أن يبدأ الشاعر قصيدته بالتصميم الفكرى لها، ثم وجدنا الأدب القومى والوطنى الواقعى ، يظهر فى مصر ويزدهر أيما ازدهار .

---

(١) سبقه إحياء أسلوب المقامات على يدى محمد المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » ، واليازجى فى كتابه « مجمع البحرين » .

الحركة الفكرية الحديثة

ونقطة الانطلاق فيها فى العالم العربى

— ١ —

كانت ليلة خالدة فى تاريخنا القومى وفى تاريخ الفكر العربى الإسلامى ، تلك التى جمعت بين رائدى النهضة الفكرية والإسلامية فى العالم الإسلامى محمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى .

كان الأفغانى يومئذ فى الثلاثين من عمره ، وكانت شهرته قد رن صداها فى كل مكان : رائداً مصلحا ، وفيلسوفا حكيما ، وثائراً مجددا ، ومناهضا للاستعمار والملكية والاستبدادية ، وللفساد السياسى فى الشرق الإسلامى . كان قد أبلى بلاء حسنا فى مقاومة الطغيان السياسى فى إيران والأفغان ، وذاعت آراؤه الثائرة فى الإصلاح والتجديد الدينى وفى مكافحة الاستعمار البريطانى فى الهند ، ونفته حكومة التاج من الهند على باخرة بريطانية متجهة نحو أوربا ، وفى السويس نزل جمال الدين فى أواخر عام ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩م ويمم وجهه شطر القاهرة ملاذ الأحرار ، فأقام فيها أربعين يوما ، تردد خلالها على الجامع الأزهر ، واتصل به كثير من المفكرين والعلماء والطلاب .

وكان محمد عبده آنذاك من أنبه شباب الأزهر ، وأذكى طلابه فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، يمتلىء صدره بأضخم الآمال لشعبه ووطنه العريق فى المجد والتاريخ والنضال ، وفى يوم قص عليه طالب سورى فى رواق الشوام بالأزهر قصة قدوم عالم أفغانى عظيم إلى مصر ، وحدثه أنه يقيم فى خان الخليلى ، وأنه يذهب إليه كل مساء - حيث يقيم - فى رفقة بعض الزملاء ، يتتلمذون عليه ، ويأخذون عنه ، وعجب محمد عبده من الأمر ، وأخبر أستاذه « حسن الطويل » بالقصة ، فاستعدا لزيارة جمال الدين

والتعرف به ليلة أول المحرم عام ١٢٨٧ هـ ، ودخلا عليه فوجداه يتناول طعام العشاء ، ورحب بهما ، ثم أخذ يحدثهما فى التصوف والتفسير والمفسرين وأشياء أخرى ، وكان بين الحين والحين يصوب بصره نحو محمد عبده ، فيدرك ما كانت تنطوى عليه جوانحه من توثب ، وما كانت تنم عليه نظراته من حيرة وثورة ، وشوق إلى المعرفة ، وإيمان بمستقبل الإسلام والمسلمين ، ولم ينته سمر الثلاثة وحوارهم ليلتئذ ، إلا وقـــد اطمأن محمد عبده إلى جمال الدين ، ووثق به ، وصمم على ملازمته ، والإفادة من علمه وتفكيره ونزعته المتوثبة الحرة .

وانتهت إقامة الأفغانى فى القاهرة بعد نحو أربعين يوما من وصوله إليها، وعزم على السفر إلى الآستانة ، بعد أن كانت وجهته الحجاز لأداء فريضة الحج ، وودعه تلميذه محمد عبده وداعا حارا ، والتفت الأفغانى إلى مودعيه يقول لهم : « إنى خلفت فى مصر خيرا كثيرا فى علم الشيخ محمد عبده » .

وفى الآستانة ـ عاصمة الخلافة العثمانية ـ تعرف جمال الدين برجالات الدولة ومفكريها وعلمائها ، واختير عضوا فى مجلس المعارف هناك، ولكن الدسائس والوشايات حيكت له ، فعاد إلى القاهرة فى أول المحرم من عام ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م ، واستقبله تلميذه محمد عبده استقبالا يليق بمكانته ، وأخذ يلازمه ليشبع رغبته فى طلب العلم ، ومعرفة كنوز الفلسفة وحقائق الحياة ، وصار يدعو زملاءه وأصدقاءه ، إلى غشيان مجلس الأفغانى ، والإفادة من تفكيره الثورى وتوجيهه الإسلامى ، واندمج جمال الدين فى حياة مصر الاجتماعية والفكرية ، وتردد على دار « إبراهيم المويلحى » بشارع محمد على وهى فى ذلك الوقت ندوة المفكرين والعظماء والقادة ، فلما أجرى عليه رياض باشا مرتبا شهريا قدره عشرة جنيهات مصرية ، واستأجر منزلا فى حارة اليهود ، وصار من يومئذ بيت الأفغانى مدرسة جامعة ، يقصدها النابهون من طلاب الأزهر ، ويدرس لهم فيها أمهات الكتب فى العقائد

والحكمة والمنطق والفلسفة والتصوف وأصول الفقه والفلك والتاريخ ، ولم يكن يقصد من دروسه التعليم فحسب بل كان يهدف من ورائها كذلك إلى الدعوة للإصلاح وفتح باب الاجتهاد فى الدين والعلم ، وبث الأخلاق العالية فى النفوس ، والتبصير بالشئون السياسية وحقوق الشعب والأمة وكان إلى هذا يرشد الطلاب إلى مطالعة الكتب الأدبية لتنضج مواهبهم فى الأدب ، وليستطيعوا أن ينهضوا بالأمة عن طريق الكتابة فى الصحف والمجلات ، وعرف طلاب العلم الأفغانى واهتدوا إليه ، واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض دراً ، كما يقول الإمام محمد عبده نفسه . . أيقظ جمال الدين العقول من غفلتها ، ونبه شباب الأزهر إلى ضعف التوجيـــه الفكرى فى العالم الإسلامى ، حتى لقد ألفوا من بينهم جماعة تسعى فى إصلاحه وكان من تلاميذه المقربين : محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى ، وعبد الله نديم ، وقاسم أمين ، وحسن عاصم ، وحسن عبد الرازق ، وسواهم .

وبتوجيه جمال الدين أقبل محمد عبده على الثقافات المترجمة إلى العربية فاسترعبها ، ونبغ فى الكتابة الوطنية والصحفية ، وكان لجمال الدين ندوة ثانية فى قهوة البوسطة بجوار الأزبكية ، وكان من رواده فيها : محمد عبده . والبارودى ، وعبد السلام المويلحى ، وابراهيم المويلحى ، وسعد زغلول ، وأديب إسحاق ، وعلى مظهر ، وسواهم ، وفى هذه الندوة حول جمال الدين وتلاميذه مجرى الأدب ، فجعلوه فى خدمة الأمة ، يطالب بحقوقها ، ويدفع عنها من ظلمها ، ويحرض الناس على أن يتغنوا بحقهم فى الحرية ، وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته إلا بهم ، وأخذ الأدب يتحدث عن الشعب ، وينشد التحرر ، ويفيض فى الحديث عن حقوق الناس ، وواجبات الحاكم ، وبدا ذلك واضحا فى مقالات محمد عبده وسعد زغلول ، وأديب إسحاق ، وكتب جمال الدين نفسه مقالتين فى جريدة « مصر » كانت إحداهما فى « الحكومات الشرقية » وأنواعها ، وكان لها صدى بعيد ، وكتب محمد

عبده كذلك عدة مقالات تأثر فيها بروح أستاذه ونشرها فى جريدة الأهرام أولاها فى فلسفة التربية ، والثانية فى فلسفة الصناعة ، وكان « حديث عيسى ابن هشام » لمحمد المويلحى أثرا من آثار هذه الثورة الفكرية التى غرسها الأفغانى فى عقول الشباب .

ومن مثل اهتمام الافغانى بالحركة الأدبيه تشجيعه لسليمان البستانى على ترجمة الالياذة ، فقال له كما يروى البستانى « إنه يسرنا أن نفعل اليوم ما كان يجب على العرب أن يفعلوه قبل ألف عام ونيف ، وياحبذا لو أن الأدباء الذين جمعهم المأمون بادروا إلى نقل الإلياذه بادىء بدء ، ولو ألجأهم ذلك إلى إهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها(١) .

ومن المثل أيضا أن الأفغانى حصل على نسخة من كتاب على بابا تأليف جيمس موريو ، فترجمها إلى الفارسية وجعل يبعث بنسخ منها إلى إيران ليقرأها النشىء الجديد ، ويعرفوا كيف يستهزىء بهم الأجانب ، ويهبوا إلى الاصلاح(٢) .

ويكمل العقاد « هذا الموضوع فيقول(٣) : إن جيمس موريير إنجليزى طاف بالشرق وكتب كتابه « مغامرات حاجى بابا أو « حاجى بابا الأصفهانى » كما سمى بعد ؛ وأن الكتاب كان سخرية لاذعة بإيران ، وأن الأفغانى أمر بعض مريديه بأن يترجم هذا الكتاب إلى الفارسية ، ويترجم

---

(١) ٦٦ جمال الدين الأفغانى — لعبد القادر المغربى — سلسلة اقرأ عدد ٦٨ .

(٢) ٣٦ المرجع السابق .

(٣) ص ٢٦١ - ٢٦٥ ساعات بين الكتب والناس للعقاد ط ١٩٥٢ - مطبعة بنك مصر .

فعلا إليها . . وهذه القصص الطريفة ترجمت إلى العربية أيضا عام ١٨٩١ ، وقد يكون جمال الدين هو الموحى بترجمتها للعربية .

وكان الأفغانى يجيز استعمال كلمات غير عربية بالتعريب ، ويقول : إذا أردتم استعمال كلمة غير عربية فما عليكم إلا أن تلبسوها كوفية وعقالا فتصبح عربية(١) ، يريد أن نعربها إلى العربية .

ومن الحرية اللغوية عند الأفغانى استعمال كلمة بقروت للبليد ، وكلمة سياسة بقروتية أى غاشمة ، ولما نوقش فى هذه اللفظة لأنها لم ترد عن العرب قال : وهل تريدون منى أن أنكر نفسى(٢) .

وهكذا عمل جمال الدين على ترسيع المدارك وتوجيه الأفكار وتعويد الشباب على الحرية فى البحث والنقد ، وتبصير الشعب بحقوقه وبواجبات الحاكم ومسئولياته تجاهه ، وتحدث فى صميم السياسة ، ورأى أن الحكم النيابى لاقيمة له مادام الشعب غافلا جاهلا ، ولما أثرت النهضة الفكرية التى غرسها بيديه أخذ يلح فى طلب الحكم النيابى ويدعو إليه ، وكان ذلك فيما بعد هو الوافد العظيم للثورة العرابية الخالدة والموجه لأقطابها إلى العمل من أجل وطنهم ، وفى مقدمتهم بالطبع : عرابى ومحمد عبده ، والبارودى وسواهم .

— ٢ —

وظفر محمد عبده بشهادة العالمية عام ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م وأصبح مدرسا بالأزهر . واختير بعد قليل مدرسا للتاريخ الإسلامى بدار العلوم ، وللعلوم العربية بمدرسة الألسن ، وفى الأزهر أخذ يدرس المنطق والعقائد على نحو

---

(١) صـ ١٠٩ جمال الدين الأفغانى للمغربى .

(٢) صـ ١١٠ المرجع نفسه .

جديد ، ويدعو إلى تدريس الفلسفة ، وإلى فتح باب الاجتهاد والعودة إلى أمهات مصادر الثقافة العربية الإسلامية .

وفى دار العلوم قرأ لتلاميذه « مقدمة ابن خلدون » ، وفى داره كان يتحدث مع زائريه فى السياسة والاجتماع وشئون الفكر وأصول الدين . وهو فى كل ذلك متأثر بنزعات أستاذه جمال الدين ، الذى أثر فيه تأثيراً بليغاً لازمه طول حياته ، وكان الافغانى كثير الثناء عليه والتقدير له وكان يعبر عنه بالصديق ، ويعجب لأخلاق الإمام وعزة نفسه ، ويقول له : قل لى بالله أى أبناء الملوك أنت ؟ .

وفى زحام هذه الثورة الفكرية ظهر شعار « مصـــر للمصريين » أى ليست للأتراك ولا للأوربيين ولا للخديويين وأذنابهم ، ووقف الافغانى فى الإسكندرية قبل خلع إسماعيل يخطب جموع الشعب ، ويقول : أنت أيها الفلاح تشق قلب الأرض لتنبت فيها ما تسد به الرمق ويقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة كفاحك وتعبك ؟ .

وطويت صحائف الأيام ،ومر عام وعام ،وعزل إسماعيل ، وخلفه توفيق فى السادس والعشرين من يونيو عام ١٨٧٩ م (٦ من رجب ١٢٩٦ هـ) .

وكان توفيق من قبل يظهر الصداقة والمحبة للإمامين ، ويعاهدهما على إيجاد حكم سياسى نظيف فى مصر ، فيما لو آلت الأمور إليه ، وكان من أجل ذلك هوى جمال وحزبه معه . ولم يتوان توفيق فى أن يستدعى جمال الدين ويقول له : أنت أيها السيد أملى فى مصر الآن ، فنصحه جمال الدين بتأييد الدستور ، وإقامة حكم نيابى فى مصر ، يشترك فيه الشعب اشتراكا فعلياً فى حكم البلاد ، ولم يمض غير قليل حتى كان رد توفيق عليه أن انعقد مجلس وزرائه فى ٢٤ أغسطس عام ١٨٧٩ م أواسط رمضان ١٢٩٦ هـ ، وقرر نفى جمال الدين من مصر ، وإقالة محمد عبده من وظائفه العلمية ، وتحديد إقامته

فى قريته « محلة نصر » ، وصدر بلاغ رسمى من إدارة المطبوعات يتهم جمالا وحزبه بالإفساد والتضليل وإثارة الفتن .

وبعد ثمان سنوات من إقامة الأفغانى فى القاهرة رحل عن مصر التى أحبها ، وسعى مخلصاً لها ، بعد أن عاش فيها أعواما ، كانت كلها نضالا وجهاداً من أجل مستقبل مصر السياسى ، وحقوق شعبها المكافح الأبى ، وعاد إلى الهند مرة أخرى ، وكان ذلك آخر عهده بمصر ، وقبل أن يغادر الأفغانى البلاد قال كلمته المشهورة : إنى تركت فى أرض مصر الشيخ محمد عبده يتم ما بدأت به .

وتلفت الناس إلى خليفة جمال الدين ليجدوه شبه معتقل فى قريته وأشفق رياض باشا من الأمر ، فشفع فى الإمام عند توفيق ، وانتهى الأمر بتعيينه محرراً بالوقائع المصرية صحيفة الدولة الرسمية ؛ ولم يلبث محمد عبده أن نهض بها وصار المحرر الأول فيها ، واختار معه سعد زغلول والهلباوى وعبد الكريم سلمان وسيد وفا ، وهم من تلامذة الأفغانى . وأخذ يعلمهم الكتابة الصحفية ، ويعودهم على تدبيج المقالات وتحبـــيرها ، وأحدث محمد عبده ثورة صحفية واجتماعية وفكرية وادبية عن طريق الوقائع التى كان فيها معلما ومصلحاً ورائداً لشعبه وللأحرار فيه ، وكثيراً ما كان ينقد أعمال الحكومة ويدعو الحاكم والمحكوم إلى احترام القانون ، دعوته إلى تنمية الاقتصاد الوطنى ، وفتح أبواب التعليم أمام الراغبين فيه من أبناء الشعب ، وإنشاء المدارس النهارية والليلية ، وبجهوده أسس مجلس المعارف الأعلى فى ٣١ مارس عام ١٨٨١ م ، وانتخب عضوا فيه ، وهو فى ذلك كله إنما يعمل وفق تعاليم أستاذه ؛ وما برح يواصل جهوده فى خدمة الشعب وإعداد الرأى العام الوطنى المستنير ، حتى نشبت الثورة العرابية عام ١٨٨١ وهى التى كان هو وأستاذه من أكبر الممهدين لها ، والغارسين لبذورها ، بل كان محمد عبده كما يقول اللورد كرومر : « الروح المديرة للثورة » ، وكان هو الواضع لصيغة اليمين الوطنى الذى أقسم به جميع رجالات مصر وقوادها على أن يكونوا يدا واحدة . وهو الواضع

كذلك لصيغة القرار الذى عزلت الأمة به « توفيق بن إسماعيل » . . ودعا محمد عبده إلى التطوع فى صفوف الجيش المدافع عن أرض الوطن وإلى التبرع له بالمؤن والمال والسلاح .

وكان الأفغانى(١) أبان ذاك قد أعتقلته بريطانيا فى الهند وانتهت الثورة العرابية بالقبض على زعمائها ، ومن بينهم الإمام ، وحبس مائة يوم ، حكم عليه بعدها بالنفى ثلاث سنين ، واختار سوريا منفى له فوصلها فى نهاية عام ١٧٧٢ م وأقام فى بيروت ، يعاود نضاله وكفاحه من أجل الشرق العربى الإسلامى عامة ومصر وشقيقتها السودان خاصة . وفى عام ١٨٨٣ أطلقت بريطانيا سراح جمال الدين ، وسمحت له بالسفر « فسافر إلى لندن ، وفى طريقه إليها كتب إلى محمد عبده فى بــــيروت يبشره بفك أسره وبسفره إلى العاصمة البريطانية ، ووصل جمال الدين إلى انجلترا ، ثم سافر منها إلى باريس ، وأرسل إلى الإمام محمد عبده يستدعيه ليلحق به هناك ، فلبى النداء وشد رحاله إلى باريس .

— ٣ —

وفى باريس أخذ الإمامان يجاهدان من أجل مستقبل الشرق العربى الإسلامى ، ويعملان ليعود للإسلام مجده ، وألفا عام ١٨٨٤ م جمعية « العروة الوثقى » للجهاد فى سبيل الإسلام والدعوة إليه ، والكفاح من أجله ، والذود عن شعوبه ، وخلق الوعى المستنير فيها ، ومناهضة الحكم الديكتاتورى ، والعمل على إحياء الأخوة الإسلامية بين شعوب الشرق ، وعلى قيام الحكم فيها على أساس الدين الذى يأمر بالشورى والعدل بين الناس . وقد كان من أهدافهما الكبرى تحرير مصر والسودان من الاستعمار البريطانى ـ . ومن أجل هذه الأهداف أنشأ الإمامان « جريدة العروة الوثقى » فى باريس ،

---

(١) راجع مجموعة مستندات ووثائق عن الأفغانى ـ طبع إيران .

وصدر العدد الأول منها فى ٥ جمادى الأولى عام ١٣٠١ هـ ١٣ مارس عام ١٨٨٤ م ولخصا فيه أهدافهما فيما يلى :

١ — بيان الواجب على الشرقيين ، وأسباب فساد أحوالهم .

٢ — إشراب النفوس عقيدة الأمل وترك اليأس .

٣ — الدعوة إلى التمسك بالأصول التى كان عليها أسلافهم .

٤ — الدفاع عما يتهم به الشرقيون من أنهم لن يتقدموا ماداموا متمسكين بدينهم .

٥ — إخبارهم بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

٦ — تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتقوية لفكرة الرابطة الشرقية ، بتقوية العلاقات السياسية والتجارية بين شعوب الشرق ، صدا لتيار الغرب وزحفه .. وأخذا يناهضان الاستعمار ، ويدعوان إلى الاجتهاد وترك التقليد ويبينان أن الاشتراكية فى الإسلام ملتحمة مع العقيدة ، ملتصقة بالأخلاق ، يبعث عليها حب الخير ؛ على النقيض من اشتراكية الغرب التى يبعث عليها جور الحكام ، ونوازع الحسد فى نفوس العمال لأصحاب رؤوس الأموال ؛ وأعلنا فى قوة أن الدين لا يخالف الحضارة العلمية والفكر الحر النزيه ، فالقرآن أجل من أن يخالف نواميس العلم الحقيقى خصوصاً فى الكليات ، وظلت جمعية العروة الوثقى وصحيفتها تؤديان رسالتهما ، ومن خلفهما فروع الجمعية السرية العديدة فى شتى الأقطار ، ولكن قوى الاستعمار اجتمعت على محاربة الصحيفة ، فتوقفت عن الصدور بعد العدد الثامن عشر الذى صدر فى ١٦ من ذى الحجة عام ١٣٠١ هـ - ١٦ أكتوبر عام ١٨٨٤ م ؛ وفى يوليو عام ١٨٨٤ م وقبل إغلاق الصحيفة بقليل ، أوفد جمال الدين الإمام محمد عبده إلى لندن لمفاوضة الإنجليز فى القضية المصرية والسودانية ، فسافر الإمام إلى لندن ومعه ميرزا محمد باقر ، وهناك قابل محمد عبده أقطاب

الزعماء والسياسة والنواب والمفكرين ، وتحدث معهم فى المسائل السياسية وكان صوته أول صوت مصرى يرتفع بالمطالبة بحقوق مصر والسودان بعد الاحتلال البريطانى .

وهذا الصوت العظيم فى مكافحة الاستعمار لا يقل عنه صوت محمد عبده كذلك فى الرد على هانوتو دفاعا عن الإسلام ، مما بهر الغربيين وهزهم وأثار تأملاتهم وسافر الإمام محمد عبده سراً إلى تونس ومنها إلى بيروت ، وألف هو وميرزا محمد باقر «جمعية التأليف والتقريب» للدعوة إلى الإسلام والتعريف به ومقاومة اضطهاد أوربا للشرق والمسلمين ، ودعوة المفكرين والمستشرقين ورجال الدين فى أوربا إلى الايمان بالإسلام وأصوله ، وكان قيام هذه الجمعية امتداداً لتعاليم الأفغانى وتفكيره الثورى ، وفى أواخر ١٨٨٨ م عاد محمد عبده من المنفى إلى وطنه واتخذ سكنا له فى شارع الشيخ ريحان بجوار عابدين ، وكان يقول لأصدقائه : اخترنا هذا المكان لنناطح عابدين وننازلها ، والتف حوله أصدقاؤه ومريدوه ينشرون دعوته فى الإصلاح الدينى والتجديد العقلى والثقافى للوطن وأبنائه ، وأسندت إليه وظائف كثيرة : كالفتيا ، والإشراف على المحاكم الشرعية وإصلاحها ، وعضوية مجلس الأوقاف الأعلى ، ومجلس شورى القوانين ، والجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية إحياء الكتب العربية . وكان الأفغانى آنذاك فى باريس ، ثم سافر منها إلى الآستانة ، وفيها توفى فى صباح الثلاثاء ٥ شوال ١٣١٤ هـ - ٩ مارس ١٨٩٧ م ، ولم يبق للعالم الإسلامى والعربى من موئل سوى محمد عبده وعقله البعيد الأفق ، المنير فى ظلمات الخطوب والاحداث ، واستمر محمد عبده فى كفاحه الدينى والوطنى والقومى ، كافح صلف كرومر وغرور عباس وجهل أنداده الحاقدين عليه ، إلى أن خر شهيدا فى ساحة الجهاد فى ٨ جمادى الأولى ١٣٢٣ هـ - ١١ يوليو ١٩٠٥ م فى الذكرى الثالثة والعشرين لضرب الأسطول الإنجليزى للإسكندرية .

وهكذا عمل محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغانى على غرس روح الثورة والحرية فى نفوس الملايين من المصريين والعرب والمسلمين ، وناضلا فى سبيل تحرير الشرق العربى من نير الاستعمار العثمانى والغربى نضال الأبطال ، وكانت حركتهما الفكرية هى نقطة الانطلاق الأولى فى حياتنا الفكرية والثقافية والأدبية فى مصر والعالم العربى .

الحياة الفكرية فى مطلع القرن العشرين

— ١ —

أوقد الأفغانى فى مصر والشرق الإسلامى نار ثورة فكرية عارمة، تنزع إلى الإحياء والنهضة والتجديد وحرية الشعوب الإسلامية ، وقد ساعده على نشر أفكاره ظهور طبقات من المصلحين فى مصر ، من مثل رفاعة الطهطاوى ثم عبد الله فكرى (١٨٣٤ - ١٨٩٠) والبارودى (١٨٣٨ - ١٩٠٤) ، وعلى مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣) ، وسواهم ، إلى أثر الأزهر الشريف فى حركات الإحياء والتجديد .

وكان أعظم وارث لآراء الأفغانى وأفكاره الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ، الذى أذكى الشعلة الوطنية والروح الدينية والأدبية فى مصر ، ودعا إلى الاقتباس من حضارة الغرب وثقافته ، واعتبر ماضى الأمة الإسلامية هو الأساس العام للحياة القومية والفكر فى مصر والشرق . وقد أوضح أفكاره فى مجموعة من المقالات والدراسات تعتبر فى لغتها وأسلوبها فتحا جديداً ، لما امتازت به من القوة والمتانة وجزالة العبارة وهى مزايا الأسلوب القديم ، ومن الدقة والمرونة ووضوح الشخصية مما هو أثر لثقافاته الحديثة .

وكان محمد عبده ركيزة وطنية فى ذروة طغيان الاحتلال ، وتلاميذه هم الذين حملوا راية الدعوة إلى التجديد والحرية والاستقلال ، ومنهم قاسم أمين ، وسعد زغلول ، ومحمد مصطفى المراغى وغيرهم .

— ٢ —

وبجانب هؤلاء الأعلام فى النهضة كان كثير من العلماء والأدباء يعملون لإذكاء النهضة وتجديد الثورة الفكرية وإحياء الثقافة العربية ، ومن بينهم

الشيخ قدرى أستاذ ولى عهد الخلافة العثمانية ، وكان مفكراً مزوداً بقسط كبير من الثقافة ، وقد وفد على مصر وأقام فيها ، وكان يحضر مجلسه أعلام الفكر فى وادى النيل .

— ٣ —

وفى عام ١٩٠٦ قامت نخبة تسعى إلى إحياء الفكرة العربية ، وتجديد ثقافتها القديمة ، فكانت هذه الحركة قبسا سطع عنه نور عهد الإحياء العربى ، وواجهت هذه اليقظة حركة سياسية ، قام بها فتيان الأتراك من أجل تتريك العناصر الغير التركية فى امبراطوريتهم ، فكان من أثر ذلك انبثاق الوطنية الشعبية العربية ، وعلى رأسها طلاب الأزهر والشباب الذين تعلموا فى جامعات أوربا والقسطنطينية .

وعززت جريدة المؤيد (١٨٩٥ - ١٩١٣) التى أنشأها على يوسف ، ثم اللواء التى أصدرها الحزب الوطنى ، فالجريدة التى أصدرها أحمد لطفى السيد ، عززت الروح الوطنى والوعى القومى فى مصر . .

واجتمع فى العاصمة فى فجر القرن العشرين طبقات من الرجال الممتازين ، ومنهم الكتاب واللغويون والأدباء والخطباء والشعراء والعلماء ، ممن قادوا حركة البعث والإحياء والتجديد فى مصر . وطالبوا بالحرية ، وقاوموا الاحتلال وطغيانه .

الفصل الأول

مذاهب وتيارات

تمهيـــد :

إذا جاز لنا أن نعد بدء الآداب العربية فى العصر الحديث ، أو فى عصر النهضة ، هو احتكاك الشرق بالغرب إثر حملة نابليون على الشرق العربى (١٧٩٨ - ١٨٠١) . فإن نهضة الأدب العربى الحديث لم تظهر - فى رأيى - إلا فى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حيث كان الاتصال الثقافى بأوربا ، وحركات اليقظة العربية فى كل مكان ، وتأثير جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وتلاميذهما . وزيادة اهتمام العرب بالثقافة والأدب والتراث القديم ، وانتشار الطباعة والصحافة ودور الكتب والمدارس والجامعات فى بلادهم ، كان كل ذلك تمهيداً لقيام الأدب الحديث، الذى أخذ من الماضى والحاضر ، وتطلع إلى الشرق والغرب ، وعبر عن ذات البيئة العربية ، وعن نفوس أدبائها تعبيرا صادقا .

المدرسة الكلاسيكية :

ويطل القرن العشرون على صيحات محمد عبده والكواكبى وأحمد لطفى السيد ، وعلى طبقات الشعراء المجددين : من ذوى الرصانة الكلاسيكية ، بزعامة رائدهم الأول : محمود سامى البارودى ، ومن بينهم: شوقى ، وحافظ ، ومحرم ، وولى الدين يكن ، وحفنى ناصف ، وإسماعيل صبرى ، والرصافى ، والزهاوى ، والكاظمى ، وفؤاد الخطيب ، وشكيب أرسلان ، ثم من جاء بعدهم من أمثال : الجارم ، والأسمر ، وعلى محمود طه ، ورضا الشبيبى ، وبشارة الخورى ، وعزيز أباظه ، وعمر أبى ريشة ، ومحمود غنيم ، وعلى الجندى ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وحمزة شحاته ، وإبراهيم هاشم الفلالى الحجازيين وسواهم ، ممن أحيوا عمود الشعر القديم ، وجددوا فى الألفاظ والأساليب والصور والمعانى والأخيلة ، وعبروا عن أنفسهم ومجتمعاتهم تعبيرا قويا

مؤثرا : وظهر على يدى شوقى الشعر القصصى والمسرحى ، وعلى أيدى حافظ ومحرم والرصافى الشعر الوطنى والاجتماعى ، وعلى يدى الزهاوى شعر الفلسفة ونقد المجتمع ، متأثرا فى ذلك بأبى العلاء .

المذهب الرومانسى ومدارسه :

وزاد اتصال العرب بآداب الغرب ، عن طريق الترجمة والبعثات العربية إلى جامعات أوربا ، والمستشرقين والأساتذة الغربيين الذين عملوا فى الجامعات العربية ، وعنوا بنشر الأدب الغربى بين الشباب العربى ، وبخاصة آداب شكسبير ، وشلى ، وهوجو ، وموباسان ، ولامارتين ، وأناتول فرانس ، وألفريد دى موسيه ، وجوته . . وكذلك عن طريق المدارس الأجنبية التى أنشئت فى ربوع الشرق العربى .

وبتأثير ذلك كله ظهر الاتجاه الرومانسى فى الأدب العربى الحديث ، وكان أول من دعا إليه حاملا راية التجديد والابتداع فى الشعر هو الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ — ١٩٤٩) ، الذى دعا إلى الحرية الفنية ، التى تحترم شخصية الشاعر واستقلال الفن عن الصناعة والأناقة الزخرفية . ودعم وحدة القصيدة ، وأبرز كل شىء فى هـذا الوجود - صغيرا أو كبيرا - كموضوع شعرى خليق بعناية الشاعر ، وأهل للتناول الفنى إذا ما استطاع الشاعر أن يتجاوب معه ؛ وطرق الموضوعات الإنسانية بدل الاقتصار على العواطف الذاتية ، وكان يقول : « أريد التجديد أكثر مما أردته فى كل آن ، أريده ولا أكيفه أريد أن تكون لغتى شريكتى رؤية وسماعا وشعورا تلقاء كل مايجد ، وأن تتناوله وأن تعيننى على الإفصاح عنه » .

وصبغ المنفلوطى (المتوفى عام ١٩٢٤) النثر العربى الحديث بصبغة رومانسية واضحة : تتجلى فى آثاره المشهورة ، ومن بينها : النظرات ، والعبرات ، والفضيلة . وجاء طه حسين ، فعزز نهضة الأدب والنثر العربى

بجميع فنونه ، وأيد هذه النهضة كتاب شاركوا فى كل حقل ثقافى ومن بينهم. محمد حسين هيكل، وأحمد أمين ، ومصطفى عبدالرزاق ، وعبد الوهاب عزام ، ومنصور فهمى ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمد كرد على ، والعقاد ، وزكى مبارك ، ومحمد فريد أبو حديد ، وأحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة الخالدة ، وكذلك محمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، وهم رواد القصة العربية الحديثة التى دعم نهضتها كذلك : يحيى حقى ، وثروت أباظة ، وعلى باكثير ، وعبد الحميد جودة السحار . وإبراهيم المصرى ، ومحمود البدوى ، ويوسف إدريس وغيرهم . ولجبران ، وميخائيل نعيمة ، وكرم ملحم كرم ، وأحمد السيد العراقى ، ومعروف الأرناؤوط ، وجعفر الخليلى ، ووداد سكاكينى ، وسهيل إدريس ، وفؤاد الشايب ، منزلة معروفة فى فن القصة .

وعززت الاتجاه الرومانسى فى الشعر العربى الحديث ثلاث مدارس كبيرة ذوات أثر ضخم فى تطوره والتجديد فيه .

أولاها : مدرسة شعراء الديوان ـ شكرى والمازنى والعقاد ـ ، وقد دعا ثلاثتهم إلى شعر الوجدان ، وأكدوا وحدة القصيدة ، واحتفوا بالأخيلة والصور الجديدة والمضمون الشعرى سواء استمده الشاعر من الطبيعة الخارجية ـ أو من ذات نفسه العاطفية أو الفكرية ، والشعر عندهم تعبير عن وجدان الشاعر ، وإن ذهب « شكرى » إلى التأمل الوجدانى والاستبطان الذاتى ، وعبر « المازنى » عن روح رومانسى شاك متبرم ، ونظم « العقاد » فى الجانب الوجدانى والفلسفى وفى المناسبات ، وقال فى (الديوان) : « إن كان الشعر لايرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح من وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود إليه المحسوسات « كما تعود الأغذية إلى الدم ، ونفحات الزهر إلى عنصر العطر ، فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة والجوهر ، وهناك

ماهو أحقر من شعر القشور ، وهو شعر الحواس الضالة ، والمدارك الزائفة » . وكتب « العقاد » كذلك يقول : « إن الشعر يقاس بمقاييس ثلاثة : أولها أن الشعر قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة لفظية فيحتفظ الشعر بقيمته إذا ترجم إلى لغة من اللغات . وثانيها أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه ، فالشاعر الذى لا يعبر عن نفسه صانع وليس ذا شخصية أدبية . ثالثها أن القصيدة ذات بنية حية وليست أجزاء متناثرة يجمعها الوزن والقافية » .

وثانيتها : مدرسة « أبو لو » التى كونها الشاعر الكبير الدكتور أبو شادى (١٨٩٢ — ١٩٥٥) عام ١٩٣٢ ، وأحدثت آثارا كبيرة فى النهضة الأدبية المعاصرة . وقد دعا أبو شادى إلى الأصالة والفطرة الشعرية والعاطفة الصادقة وإلى الوحـــدة التعبيرية والتناول الفنى السليم للفكرة والمعنى والموضوع ، ودعم وحدة القصيدة وامتاز شعره بجدة المعانى ، وبالانسجام الموسيقى ، والتحرر البيانى ، وبالخيال الغربى ، وبالتأمل الصوفى ، والتعمق الفكرى والنفسى والفلسفى ، وبجوانب شعره الإنسانى ، وبشعره القصصى والتمثيلى ، وبشعره فى الطبيعة . ومن شعراء هذه المدرسة : إبراهيم ناجى ، ومحمود أبو الوفا ، وعلى محمود طه ، والصيرفى ، ومن نقادها: مصطفى السحرتى مؤلف « الشعر المعاصر » و « شعر اليوم » ، و « النقد الأدبى » ، ثم وديع فلسطين صاحب كتاب « قضايا الفكر فى الأدب المعاصر » ، وقد تأثر باتجاهات المدرسة دون أن يكون عضوا فيها . وفى شعر : أبى القاسم الشابى ، وإبراهيم طوقان . والتيجانى بشير ، تأثرات واضحة بمدرسة أبولو . ويلح شعراء هذه المدرسة فى التعبير عن نفوسهم وعن فلسفة الألم التى تنطوى عليها جوانحهم ، ويمزجون مشاعرهم بمرائى الجمال فى الطبيعة ، ويدعون إلى الوحدة العضوية للقصيدة ، وإلى صدق العاطفة والبعد عن الزيف .

وثالثتها : مدرسة المهجريين التى أحدث كتابها وشعراؤها من أمثال : الريحانى (١٨٧٦ — ١٩٤٠) ، وجبران ، ونعيمة ، وصيدح ، ونظير زيتون (- ١٩٦٧) ، وعبد المسيح حداد (- ١٩٦٣) ، ونسيب عريضة ،

وأبو ماضى (-١٩٥٧) ، والشاعر القروى، وإلياس فرحات ، وشفيق المعلوف دوياً شديداً فى الشرق العربى ، لا يزال صداه مستمراً حتى اليوم ،وقد أكدوا الدعوة إلى التجديد ، وكتبوا القصة والمسرحية ، ونظموا فى شتى الأغراض وظهر فى كتاباتهم ونظمهم أدب المناجاة أو الأدب المهموس ، وجددوا فى الصور والمعانى والأخيلة تجديداً كبيراً ، وعنوا بالموسيقى الشعرية عناية شديدة .

أدباء الالتزام :

وقد دعا كثير من الأدباء والنقاد إلى أدب ملتزم وهادف ، ومنهم الناقد المشهور الدكتور محمد مندور ، وهم فى اتجاههم ذوو نزعة واقعية عبر عنها شعراء عديدون ، ومن بينهم : سليمان العيسى ، وبدوى الجبل ، والجواهرى ورئيف خورى ، وإن كان الالتزام من أصول مذهب « سارتر » فى الأدب ، إلا أن آراءه تمثل نزعة واقعية ، ويمثل هذه النزعة معظم كتاب مجلة الآداب اللبنانية التى أنشأها الدكتور سهيل إدريس .

ودعا آخرون إلى الرمزية ، متأثرين بما لرامبو ، وبول فرلين ، وستيفن سبندر ، ومنهم بشر فارس ، وألبير أديب صاحب مجلة الأديب اللبنانية ، ونازك الملائكة ، وفدوى طوقان ، ومحمد العامر الرميح الحجازى .

ومن المذاهب الأخرى : السريالية التى يمثلها شعر محمود حسن إسماعيل، والوجودية ، وغيرهما .

أدباء وخصائص :

وقد نبغ فى الأدب العربى الحديث أعلام مشهورة ، منهم : مندور ، وشوقى ضيف ، وزكى المحاسنى ، وسامى الكيالى السوريان ، ورروكس العزيزى ، وعيسى الناعورى وهما أردنيان ، ويوسف أسعد داغر اللبنانى صاحب كتاب « مصادر الدراسات الأدبية » ويوسف عز الدين العراقى ، ومن الأديبات العربيات : وداد سكاكينى ، وبنت الشاطىء ، وسهير القلماوى ، وجليلة رضا ، وجميلة العلايلى ، ونازك الملائكة ، وفدوى طوقان ، وملك عبد العزيز ، ونعمات فؤاد ، وسواهن .

ويمتاز الأدب العربي الحديث بتطوره وتعدد بيئاته وثقافاته ومذاهبه ، وبأنه جملة يمثل ثراء هذا الأدب وخصوبته ؛ ومع ذلك فلا يزال ينقصه الكثير من العمق والثقافة والأصالة ، وقد ضعف أدب الترجمة وأدب تحقيق التراث ضعفاً واضحاً ، ولوديع فلسطين أعمال أصيلة فى أدب الترجمة .

ولا يزال هذا الأدب كذلك يظهر فيه بين الحين والحين بعض الدعوات المنحرفة ، ومن بينها الدعوة إلى العامية .

وقد قل حظ الأديب العربي المعاصر من الثقافة الأدبية القديمة ، حتى كادت تنسى آداب : ابن المقفع ، والجاحظ ، وابن العميد ، وأبى حيان ، والبديع ، والحريرى ، وأعمال النقاد العرب القدامى.

وقيام المجامع اللغوية والعلمية — كالمجمع اللغوى فى القاهرة (١٩٣٢) ، والمجمع العلمى العربي فى دمشق (١٩٢٠)، والمجمع العلمى العلمى العراقى - كفيل بالقضاء على أسباب ما يسود أفقنا الأدبي من اضطرب وتناقض وانحراف .

ولاشك أن ضجة الحياة أمام الأديب العربي،وتعدد المذاهب والمناهج، وقلة اهتمام المجتمعات العربية اليوم بالآداب ،لها أثر فى حاضر الأدب العربي الحديث ، وإن كنا نرجو أن يسير قدما إلى غاياته الإنسانية النبيلة .

الأدب الحديث ومدارسه

— ١ —

الأدب المصرى الحديث الذى يبتدىء بقيام الثورة العرابية فى ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ م ، والذى بشر به محمد عبده وحمل راية الشعر فيه البارودى مجدداً وملقحا له بالشعر العباسى وبلاغاته، والذى لم يكن يعرف الأدباء والدارسون منهجا فى دراسته غير المنهج القديم الذى اختطه الشيخ سيد بن على المرصفى ، حتى نقل حسن توفيق العدل (المتوفى عام ١٩٠٤) بعد عودته من ألمانيا منهج المستشرقين فى دراسات تاريخ الأدب ونقده . . هذا الأدب قد تعددت بيئاته ومدارسه فى مصر منذ مطلع القرن العشرين :

فمن بيئة الأزهر خرج : المنفلوطى ، وحمزة فتح الله . والغاياتى ، وسيد المرصفى (١٩٣١) ، وعبد الرحمن البرقوقى ، وطه حسين ، وعبد العزيز البشرى (١٩٤٣) ، ومصطفى عبد الرازق (١٥ فبراير ١٩٤٧) ، وعلى عبد الرازق ، وزكى مبارك ، والأسمر .

ومن بيئة مدرسة القضاء الشرعى : خرج عبد الوهاب النجار (- ١٩٤١) وأحمد السكندرى (- ١٩٣٨) ، وأمين الخولى ، وعبد الوهاب عزام ، وأحمد أمين .

ومن بيئة دار العلوم : خرج حفنى ناصف (- ١٩١٩) ، وعبد العزيز جاويش ، والشيخ الخضرى ، والجارم ١٩٤٩ . . . ومن مدرسة المعلمين خرج : عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى ، والدكتور أحمد زكى ، ومحمد فريد أبو حديد .

ثم قامت الجامعة وخرج من صفوفها : الدكتور هيكل ، ومنصور فهمى ، وأحمد ضيف ، وعبد الحميد بدوى ، ثم توفيق الحكيم ، والدكتور محمد

مندور ، ومصطفى السحرتى ، وإسماعيل أدهم ، ومحمد لطفى جمعة ، وشوقى ضيف ، وسواهم .

وكانت هناك مدرسة أدبية أخرى خرجت من بيئة الصحافة وفى مقدمتها العقاد . . ومن الصحف المشهورة جريدة اللواء التى صدر العدد الأول منها فى أول يناير عام ١٩٠٠ ، والجريدة التى أصدرها لطفى السيد ، ومجلة البيان التى أصدرها عبدالرحمن البرقوقى عام ١٩١١ وتوقفت عن الصدور عام ١٩٢٣ ومجلة الزهور التى كان يصدرها أنطون الجميل ومجلة الدستور التى كان يصدرها محمد فريد وجدى (- ٥ فبراير ١٩٥٤) وسواها .

وكانت هناك جماعات من أعلام الأدب فى مصر تتلمذت عليها هذه الطبقات ، وفى مقدمتهم الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعلى مبارك ، ورفاعة رافع الطهطاوى(١) وعبد الله فكرى ، ومحمد وإبراهيم المويلحيان ، وحسن المرصفى ، وعلى يوسف ، وسيد المرصفى ، ومحمد المهدى ، ومحمد السباعى ، ومصطفى المنفلوطى .

وقد أثرت هذه الحركة الأدبية فى النثر ، الذى انتقل — من الأسلوب القديم الذى كان يمثله عبد الله فكرى فى رسالته « السفر إلى المؤتمر » ، وتوفيق البكرى فى كتابه « صهاريج اللؤلؤ » ، ومحمد المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » إلى الأسلوب الاجتماعى الوجدانى ممثلا فى كتابة المنفلوطى ، ثم طه حسين .

وأحدثت طبقة رجال الصحافة أثراً كبيراً فى تطور أساليب النثر وفى مقدمتهم : عبد القادر حمزة ، وأنطون الجميل ، وصروف ، وجورجى زيدان

---

(١) راجع : رفاعة الطهطاوى لجمال الدين الشيال ، ولمحة تاريخية عن حياة ومؤلفات رفاعة لفتحى رفاعة الطهطاوى .

(— ١٩٥٤) وخليل مطران ، وأحمد حافظ عوض ، وسواهم .

وكان لمجلة المقتطف (١٨٧٦ - ١٩٥٣) ، ولمجلة الهلال (١٨٩٢) ، ثم للرسالة ، (١٩٣٣ - ١٩٥٣) ومجلة أبولو ، ومجلة العصور لاسماعيل مظهر ، ومجلة الثقافة (١٩٣٩ - ١٩٥٣) ، ومجلة السياسة الأسبوعية أثر عميق فى النهضة الأدبية .وقامت فى الهلال والسياسة عام ١٩٢٥ معركة حول القديم والجديد ، اشترك فيها مصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠ - ١٠ مايو ١٩٣٧) ، وطه حسين وسلامة موسى ورفيق العظم ، وسواهم .

— ٢ —

وقد نشأت المدرسة الجديدة فى الشعر والنثر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة كما ذهب إليه بعض الكتاب ، أو عام ١٩٢٢ م ، كما أرجح .

وكان لإحياء التراث القديم والأخذ من الآداب الغربية أثر فى تعزيز نهضة الأدب والسير به قدما فى سبيل الازدهار والقوة ، حيث كان الأدب القديم والأدب الغربى منبعين أصليين من منابع الأدب فى القرن العشرين .

وقد تطور أسلوب القصة ، فانتقل من السجع ، ممثلا فى أسلوب « حديث عيسى بن هشام للمويلحى » إلى أسلوب متحرر ممثلا فى قصة « زينب لهيكل » ، وفى قصص : محمود تيمور ، وطاهر لاشين ، وإبراهيم المصرى ، وانصرف القصاصون من الموضوعات الرومانسية إلى تصوير الحياة ومعيشة الناس فى أحياء المدن ، وفى أغوار الريف ، وغلبت القصص القومية والوطنية والفكرية غيرها من مختلف ألوان القصص .

أما الشعر فقد اتجه بعد البارودى إلى الجانب الاجتماعى الذى مثله رائدا الشعر الحديث : أمير الشعراء أحمد شوقى ، وشاعر النيل حافظ ابراهيم .

ونستطيع أن نقسم الشعراء إلى مدارس هى :

١ — المدرسة الكلاسيكية وفى مقدمتها : البارودى ، وحافظ ، وشوقى ، والجارم ، والجندى ، وغنيم ، والأسمر ، وسواهم ، ومنها المدرسة الكلاسيكية الجديدة التى يمثلها : عزيز أباظة ، وعلى محمود طه ، وسواهما .

٢ — المدرسة الرومانسية ، وفى مقدمتها : مطران ، وشكرى ، والعقاد ، والمازنى ، وأبو شادى ، وإبراهيم ناجى .

٣ — المدرسة الواقعية وشعراؤها عديدون من الشعراء اليوم ، وفى مقدمتهم : عبد الحميد الديب ، وكامل أمين ، ومحمد مفتاح الفيتورى ، وكمال عبد الحليم ، وسواهم .

وفى عام ١٩٠٨ أصدر مطران الجزء الأول من ديوانه ، فكان فاتحة لدعوة التجديد فى الشعر المصرى الحديث . . ويصور خليل مطران رأيه فى التجديد فى الشعر فيقول : أريد التجديد يتمثل فى التفكير بمعناه البعيد الغور الذى هو منبع الابتكار ، ليحل ذلك التفكير تدريجا محل الخيال المشتت الذاهب فى تشتيت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذى يصدر عن الحقيقة غالبا التى هى مصدر كل جمال ثابت . . . .

ومذهب مطران ١٩٤٩ فى الشعر يجمعه قوله فى تصدير ديوان الخليل » : هذا شعر عصرى ، ونخره أنه عصرى وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر . . هذا شعر ليس ناظمه بعبده ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصحيح ، وينظر فيه إلى جمال البيت ذاته وفى موضعه ، وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور ، وغرابة الموضوع ، ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعر الحر . وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .

وقد تتلمذ أحمد زكى أبو شادى وشعراء مدرسة أبولو على وجه العموم فى الشعر والنقد على مطران ، فنظم أبو شادى الشعر القصصى والتمثيلى ، ولقح شعره بأخيلة ومعانى الشعراء الأوربيين ، ودعا إلى التجديد فى الشعر دعوة جريئة ، وكان أكثر فهما لأصول الأدب والشعر والنقد ، وأصرح دعوة إلى التجديد ، وإلى الشعر المرسل والحر ، وأنشأ جمعية أبولو ومجلتها الشعرية الذائعة . . وكان أبو شادى يعد مطران أول شاعر ابتداعى فى الأدب العربى الحديث . . ويبسط أبو شادى شعوره الشديد بأستاذية مطران له فى الشعر فى ديوانه «أنداء الفجر» إذ يقول : «فما نشوء الشعر المرسل ولا الشعر الحر ، ولا ما بلغناه من الحركة التحريرية للنظم ، ولا ما نتناوله من الموضوعات الإنسانية والعالمية إلا الرقى الطبيعى لرسالة مطران ، وأول تعاليم مطران ترك النفس على سجيتها ، وترك التصنع . . ويؤمن أبو شادى بأن مذهبه فى الشعر هو وحده التطور الطبيعى لمذهب مطران . وقد زاد أبو شادى على أستاذه تطور لغته وأخيلته وتعابيره ومثله العليا وتجاوبه مع الطبيعة . . ويقول أبو شادى : إن الشخصية الفنية الحرة هى أهم ما يؤكده مطران ، وهى ما تعودت أن أقدسه فى ذاتى وفى غيرى ، وهذه الشخصية الحرة هى روح شعرى ، وقد عشت تلميذا على الطبيعة وعلى الثقافة الإنسانية . . ويقول أبو شادى فى أنداء الفجر : إن مذهبى فى الشعر يمثل الاطراد الطبيعى للتعاليم الفنية التى تشربتها نفسى الصبية من مطران .

فمطران عند أبى شادى هو رائد الحركة الابتداعية فى الشعر الحديث ، ويقول الدكتور مندور عنه فى محاضراته عن خليل مطران : «مطران شاعر رومانتيكى أصيل» ويقول عنه فى مقالة نشرها فى بعض المجلات الأدبية : إنه يعتبر رائد التجديد فى الشعر العربى المعاصر .

ونذكر هنا أن بداية مدرسة شعراء الديوان كان عام ١٩١٣ حيث كان عبد الرحمن شكرى وإبراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد يتلاقون على أفكار جديدة فى الأدب والشعر والنقد وإعلان الخصومة الأدبية على المدارس القديمة ، وأخرج شكرى ديوانه الأول عام ١٩٠٩ ، وأصدر المازنى ديوانه الأول عام ١٩١٣ ، وتبعهما العقاد فأخرج ديوانه الأول عام ١٩١٦ وفى عام ١٩٢١ ترك شكرى هذه المدرسة . . ولما صدر الجزء الأول من الديوان فى يناير عام ١٩٢١ والثانى كذلك عام ١٩٢١ كان من ضمن بحوثه مقالة عن شكرى بقلم المازنى وعنوانها « صنم الألاعيب » ، وفى عام ١٩٣٠ ترك المازنى هذه المدرسة وتنصل من آرائه فيها . . وصار العقاد وحده هو ممثل هذه المدرسة .

والجزء الأول من الديوان تناول فيه العقاد والمازنى أحمد شوقى وعبد الرحمن شكرى بالنقد اللاذع المرير .

ويقص الدكتور رمزى مفتاح فى كتابه « رسائل النقد » الذى أخرجه عام ١٩٢٩ قصة شكرى مع المازنى والعقاد ، ووصف شكرى فيه بأنه زعيم مدرسة الجديد ، وأنه رأس المدرسة الحديثة ، وقال عن العقاد والمازنى : إنهما تلميذان لشكرى .

وكذلك فعل مختار الوكيل فى كتابه « رواد الشعر الحديث » ،

والشعراء الثلاثة : شكرى والعقاد والمازنى ممن أثر الأدب الإنجليزى فى أخيلتهم ومعانيهم وفى شعرهم عامة ومرجع العقاد والمازنى فى النقد إلى هازليت وماكولى وآرنولد وشاستري ، وأغلب آراء العقاد فى النقد مأخوذة من آراء وليام هازليت ومحاضراته عن الشعراء الانجليز ، ويشبهه العقاد

كثيرا فى عنفه النقدى(١) . ومذهب العقاد فى النقد النفسى هو مذهب ناقد غربى مشهور ، هو ريتشاردز ، ويذهب كتاب « مبادىء النقد الأدبى » الذى ألفه ا . ا . ريتشاردز عام ١٩٢٤ وترجمه محمد مصطفى بدوى منذ سنوات إلى العربية إلى تقرير الصلة بين مسائل النقد الأدبى وعلم النفس ، فالنقد فى نظاره يثير جميع الموضوعات السيكلوجية ووظيفة الناقد هى التمييز بين مختلف التجارب وتقويمها عن طريق الإدراك الواضح لطبيعة التجربة .

والشعر عند شكرى هو وصف الحالات النفسية والمواقف العاطفية والإحساسات المختلفة وكل مايتفاعل به العقل المفكر مع الشعور الحى المثقف ، وقصائد شكرى صور كاملة لرسم النفس وحالاتها ، والوحى أو الهاتف عند شكرى معناه استكمال المعنى فى ذهن الشاعر ونضوجه فى نفسه واستيفاء الإحساس به ..

والشعر عند مدرسة الديوان تغلب عليه النزعة الوجدانية الذاتية بينما تغلب على مدرسة خليل مطران النزعة الموضوعية .

والعقاد لايقر لشوقى بأية موهبة فى الشعر كما تطالع ذلك فى الديوان بجزأيه ، إنه لايريد أن يعترف بشاعر لاتطالعنا كما يقول شخصيته ومزاجه الخاص ونظرته إلى الحياة وفلسفته فيها من خلال شعره ، ولا تتكامل وحدة القصيدة فى شعره .

ويؤمن أصحاب مدرسة الديوان بأن الشعر يجب أن يكون تعبيرا عن وجدان الشاعر وحياته الباطنية ، أى أن يكون صورة لنفسه ، وصادرا عن نفس الشاعر وطبعه ، إن مدرسة الديوان تدعو إلى صدق الشاعر فى الإحساس والتعبير .

---

(١) صـ ٢٠٢ نشأة النقد الأدبى الحديث فى مصر لعز الدين الأمين

وقد مات المازنى فى أغسطس عام ١٩٤٩ ومات شكرى عام ١٩٥٩ وكانت مدرسة الديوان من أسبق المدارس الشعرية فى مصر ، ولا شك أنها أثرت فى كل المدارس الشعرية المعاصرة ، وكانت تندد بمدرسة شوقى وحافظ وتدعو إلى التجديد على أوسع نطاق ، ويجعل بعض الكتاب شكرى بدء المدرسة الحديثة المعاصرة فى الشعر ، من حيث يجعل العقاد نفسه هو بدء هذه الانطلاقة . . ومهما كان فقد انفصل شكرى عن هذه المدرسة ، ولذلك نقده المازنى فى الجزء الأول من الديوان ، ثم تنكر عام ١٩٣٠ لآرائه التى أعلنها فى هذه المدرسة ووقف العقاد وحده .

ولكن فريقاً من النقاد يجعلون مطران هو بدء المدرسة الشعرية الحديثة وبدء حركة التجديد فى الشعر ، وكان ديوانه ، أو الجزء الأول منه قد صدر عام ١٩٠٨ ، ويعتد الدكتور أبو شادى بمطران اعتداداً كبيراً ، ويتابعه فى ذلك مندور ، والسحرتى ، وقد ظهر أول ديوان لأبى شادى ممثلا لاتجاهات أستاذه مطران فى الشعر والتجديد فيه وهو ديوان « أنداء الفجر » عام ١٩١٢ .

وممن يعتدون بشكرى رمزى مفتاح فى كتابه « رسائل النقد » وأنور الجندى فى كتابه « نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر » .

وقامت معارك جديدة حول الشعر وحول حافظ وشوقى ، وكان من أبطالها العقاد ، وطه حسين ، وسواهم .

وفى عام ١٩٢٥ قامت فى الهلال معركة حول القديم والحديث اشترك فيها : سلامة موسى وطه حسين وهيكل . . كما قامت من قبل معركة بين طه حسين ورفيق العظم فى السياسة حول كتاب « حديث الأربعاء » ، وآراء طه حسين فيه .

وفى عام ١٩٣٢ ظهرت مدرسة أبوللو ومدرستها الشعرية على يدى

الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وكان من أنصاره فى هذه المدرسة الدكتور إبراهيم ناجى ومصطفى السحرتى وسواهما ، وتعد مدرسة أبوللو انتصارا للمدرسة الرومانسية فى الشعر المعاصر التى كان من أعلامها : مطران وشكرى والمازنى والعقاد ، ومثلما أتم تمثيل أبو شادى وتابعهم فى هذه الحركة الشابى والتيجانى بشير. وكان من أنصارها السحرتى ، ومن الذين تابعوها : الصيرفى وصالح جودت ومختار الوكيل وعبد العزيز عتيق ثم جليلة رضا ، وسواهم . وقد أثرت هذه المدرسة فى طبقة الكلاسيكيين ، فظهرت الكلاسيكية الجديدة ممثلة فى شعر عزيز أباظة ، ومحمود غنيم ، وعلى الجندى ، ومحمد الأسمر ، ومحمود أبو الوفا ، وسواهم .

واستمر صدى مدرسة أبولو إلى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ حيث ظهرت المدرسة الواقعية ممثلة فى شعر : عبد الحميد الديب ، وكامل أمين ، وكمال عبد الحليم صاحب ديوان «إصرار» والفيتورى ، والجيلى ، وتاج السر ومحيى الدين فارس ، وسواهم ..

وظهر التجديد كذلك واضحاً فى الأدب المسرحى وفى الكتابة فى الأدب الوصفى من نقد وتاريخ أدب ، وفى فن المقالة ، والترجمة الذاتية .

ويقسم أبو شادى المدارس الشعرية المعاصرة فى العالم العربى إلى ثلاث مدارس رئيسية :

١ — المدرسة الكلاسيكية المجددة تحت الراية الابتداعية وهى التى كان يتزعمها مطران(١) ومن أعلامها : الأخطل الصغير ، وبدوى الجبل ، والشاعر القروى ، وشفيق المعلوف ، وإيليا أبو ماضى ، وميخائيل نعيمة ، وعبد الرحمن شكرى ، وإبراهيم ناجى . وسواهم .

---

(١) مطران كلاسيكى فى أسلوبه ، رومانسى فى خياله وأفكاره وموضوعاته .

٢ — المدرسة التجديدية المتطرفة ، ومن أعلامها : نزار قبانى ، ونازك الملائكة .

٣ — المدرسة الوسطى التى تحفل أشد الاحتفال بالموسيقى الاتباعية، وبجزالة الألفاظ ، وبالصيغ العريقة المأثورة وبالإشراق الغامر ، ويمثلها : عزيز أباظة ، وعلى محمود طه المهندس .

وكانت غاية مدرسة أبولو هى الدعوة إلى التجديد وإلى الجديد ، وإلى الحرية الفكرية والأدبية والفنية ، وإلى تمثيل الشعر لتأملات الفكر ونبضات الأفئدة وهزات العواطف والمشاعر . . وكانت مجلة أبولو أول مجلة تقف نفسها على الشعر العربى المعاصر ، من أجل النهوض به وإحياء روح الشعر الأصيل ، وتهذيبه مما علق به من أوهام التقليد والصنعة والابتذال . . ورسالة الشعر عنـــده هى أداء رسالة « الشعر بالشعر للشعر » .

وقد ظل أبوشادى يعلن الثورة على التقليد والجمود ويدعو إلى الأصالة والفطرة وإلى الوحدة التعبيرية ، وإلى التناول الفنى السليم للفكرة والموضوع والمعانى ، وأسمى رسالة للشعر عنده هى النهوض بالإنسانية عن طريق هذا الفن الجميل . . ويرى أبو شادى أن الطلاقة الفنية هى صفة فطرية فى كل فنان موهوب .

وكان أبو شادى من أشد الشعراء تحمساً وفهما للتجديد ودعوة إليه ، وحرصاً عليه ، وقد طاف بكثير من بلاد أوربا ، وقرأ الآداب العالمية ، ووقف على الفكر الإنسانى فى مختلف العصور ، وله ثلاثة وعشرون ديواناً شعريا ، وهى ثروة ضخمة فى الشعر الحديث .

وأغراض مدرسة أبولو هى كما رسمها وحددها أبوشادى :

١ — السمو بالشعر العربى وتوجيه جهود الشعراء توجيها شريفا .

٢ ـ مناصرة النهضات الفنية فى عالم الشعر .

٣ ـ ترقية مستوى الشعراء أدبيا واجتماعيا وماديا والدفاع عن كرامتهم .

وكانت عضوية الجمعية مفتوحة للشعراء خاصة والأدباء عامة فى جميع الأقطار العربية .

وفى سبتمبر عام ١٩٣٢ صدر العدد الأول من مجلة أبولو فى القاهرة وظلت تصدر أعدادها كل شهر حتى توقفت عام ١٩٣٥ ، وتولى أبو شادى رياسة تحرير المجلة ، وسكرتيرية الجماعة ، واختير لرياسة الجماعة أحمد شوقى ، ولما توفى شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) فى الرابع عشر من أكتوبر ١٩٣٢ اختير مطران رئيسا لها .

وكان من أعضائها : أحمد محرم ، وإبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، ومحمود أبو الوفا ، والصيرفى ، ومصطفى السحرتى ، وسواهم .

هذه هى أهم مدارس الأدب ومذاهب الشعر فى مصر ، وقد كان ولا يزال لها صدى عميق فى الأدب والشعر فى شتى أنحاء العالم العربى .

تطور الأدب العربي الحديث إلى اليوم

إذا كان من المصطلح عليه أن العصر الحديث يبدأ فى الغرب من منتصف القرن الثامن عشر ، وأنه كان عصر الحرية والعلم والثورة على القديم ، فإن الأدب الحديث لا يمكن أن يظهر مع منتصف هذا القرن ، ولا بعده مباشرة لأن تطور الآداب لا يظهر فجأة ومباشرة ، وإنما يحتاج إلى زمن طويل ، والشرق العربى لم تكن أحواله السياسية ولا الاجتماعية ولا الثقافية تسمح له بظهور الأدب الحديث حتى بعد منتصف القرن التاسع عشر ، ولم يبدأ الأدب الحديث فى بلادنا إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، أما أدب ماقبل ذلك فهو تقليد أو استمرار لأدب عصرى المماليك والعثمانيين .

وقد تميز الأدب الحديث فى الفترة الأخيرة المعاصرة بالطموح والتجدد والازدهار ، ونطلق عليه فى هذه الفترة التى نعيشها اسم « الأدب المعاصر » .

ومن غير ريب أننا لا نكون بعيدين عن الصواب حينما نجعل بدء أدبنا المعاصر هو مطلع عام ١٩٣٢ ، الذى قامت بعــــده بقليل « جماعة أبولو » ومجلتها (سبتمبر ١٩٣٢) ، والمجمع اللغوى(١) ، مجلة الرسالة (١٥ يناير ١٩٣٣) ، ثم مجلة الثقافة ، والعام الذى بلغ فيه شوقى وحافظ قمة مجدهما الشعرى ، وازداد نشاط الأدباء والنقاد فى مختلف مجالات الأدب وجوانبه فى أنحاء العالم العربى كله .

ومنذ ذلك التاريخ بذلت محاولات صادقة لتطوير الأدب وتجديده ، وقامت معارك نقـــدية كثيرة بين المدارس الأدبية المختلفة النزعات

---

(١) فى ١٤ شعبان ١٣٥١ : ١٣ ديسمبر ١٩٣٢ (٣ : ١٤٤ قصة الأدب فى مصر) .

والاتجاهات ، وأذكت الحركات الوطنية فى العالم العربى جذوة الأدب ، وجددت المعاهد الأدبية واللغوية نظمها ومناهجها ، ونشأت طبقة من الكتاب والشعراء الرومانسيين الذين فتحوا الباب واسعا للتجديد ، ودعوا إليه ، ودافعوا عنه ، وتزعم النثر الفنى طه حسين ، كما تزعم الشعر الجديد الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وكان العقاد والمازنى يكافحان بأدبهما مع طبقات الشعب ، من حيث صمت عبد الرحمن شكرى إلا قليلا ، وكان لأحمد أمين ، والزيات ، وزكى مبارك ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد العزيز البشرى ، ومحمد كرد على ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، آثار كبيرة فى النشاط الأدبى ، وظهر ناجى ، وعلى محمود طه ، ومحمود أبو الوفا ، والشابى ، والتيجانى بشير ، والهمشرى .

وامتدت موجة شعراء الكلاسيكية الجديدة ، ومن بينهم : الأخطل الصغير ، وأبو ريشة ، ومحمد الأسمر ، وعزيز أباظة ، ومحمد عبد الغنى حسن ، ومحمود غنيم ، والجواهرى ، وعلى الجندى ، وسواهم ، وأخذت طبقة شوقى وحافظ تشق طريقها إلى عتبات المجد ، وتوفى الكاظمى والزهاوى ، ثم الرصافى ، ومطران ، وزاد نصيب الأدب من الاتصال بآداب الغرب والشرق على السواء ، وكان لاتصال الفكر العربى بالفكر العالمى أثر واضح فى ازدهار الأدب ، وفيما كسبه من ثروة غنية بألوان التجديد فى الصور والأساليب والأخيلة والمعانى والموضوعات والأغراض .

وظهر الأدب القصصى والتمثيلى ، ونشأت القصة التاريخية ، والقصة الشعرية ، وفن المقالة ، وأدب الترجمة ، وأثرى النقد وتعددت مناهجه ومدارسه ، وصار الشعر بعد موت شوقى وقبله فى أيدى مدارس شعرية جادة ، ومن بينها « مدرسة أبولو » ، ومدرسة شعراء الديوان ، التى يتحدث عنها العقاد فى آخر كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » ، فيصفها بأنها مدرسة أوغلت فى القراءة الإنجليزية ، وهى على قراءتها إنتاج الأدباء

والشعراء الإنجليز لم تنس الألمان والطليان والروس والأسبان واليونان واللاتين الأقدمين ، واستفادت من النقد الإنجليزى فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى ، وشيخ هذه المدرسة كلها فى النقد هو « هازلت » ؛ وهذه المدرسة أى مدرسة الديوان ليست مقلدة للأدب الإنجليزى ، وإنما هى قد استفادت منه ، واسترشدت به .

ثم قامت الحرب ، فاختفت منابر الأدب واشتدت قسوة الحياة على الأدباء ، وصمت الشعراء والكتاب إلا قليلا ، وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ، قامت حياة جديدة فى الشرق العربى تخالف حياته قبل الحرب ، وكان من مقدماتها قيام « جامعة الدول العربية » عام ١٩٤٥ ، وكان قيامها أملا من آمال الشعوب العربية ، التى اختتمت صفحات نضالها الوطنى بحصولها على حريتها واستقلالها دولة بعد دولة ، وشعبا إثر شعب ، وبدأ الناس يفكرون فى البناء الاجتماعى ، فنشأت طبقة من الشعراء والكتاب الواقعيين الذين يحلمون بمجتمع أفضل يعمه الأمن والرفاهية .

وفى ظلال ذلك الواقع الاجتماعى الجديد ، نشأت مذاهب أدبية ونقدية وشعرية متميزة ، وبدأت محاولات الشعر الحر فى الظهور ، وقامت مجلات وجماعات أدبية كثيرة فى العالم العربى ، بينما اختفت مجلات أخرى كالرسالة والثقافة والمقتطف والكتاب والكاتب المصرى ، وعقدت مواسم ثقافية وأدبية كثيرة ، وأنشئت مجالس للآداب والفنون ، وزاد اتصال الأدب فى العالم العربى بآداب المهجر ومدارسه الشعرية قوة ووثوقا ؛ فجاء على أثر ذلك كله نهضة أدبية وشعرية خصبة ، وأصبح الأدب القصصى والمسرحى والمقالة الصحفية تحتل الصدارة ، من حيث تأخر الشعر والنثر الفنى والنقد قليلا .

ولنجيب محفوظ ، ويحيى حقى ، وثروت أباظة ، ووداد سكاكينى ، وجعفر الخليلى ، جهود صادقة فى أدب القصة ، وقد غذى عزيز أباظة المسرح بكثير من التمثيليات والقصص الشعرية .

وللدكتور محمد مندور ومصطفى عبد اللطيف السحرتى وأحمد الشايب آثار عالية فى النقد .

وقد رفد الأدب بكثير من حيويته ونشاطه مفكرون وأدباء كبار ، أسهموا فى الحقل الأدبى إسهاما فعالا ، ومن بينهم : أحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، ومحمد مندور ، وعباس محمود العقاد ، وأحمد أمين ، وأحمد حسن الزيات ، ومحمود تيمور ، وأحمد زكى أبو شادى ، ومحمد رضا الشبيبى ، ومصطفى الشهابى ، وجورج صيدح ، ونظير زيتون ، وسواهم .

وقد وقفت خلفهم طبقة كبيرة من الكتاب والأدباء تجاهد من أجل رسالة الأدب ، وتكافح لخلق بيئة أدبية جديدة متطورة ، ومن بينهم : وديع فلسطين ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وزكى المحاسنى ، والسحرتى ، وكامل كيلانى ، وعبد الله عبد الجبار ، وروكس العزيزى ، ويوسف عز الدين ، وأسعد داغر ، وعيسى الناعورى ، وشوقى ضيف ، ورشاد رشدى ، وبنت الشاطىء ، وسهير القلماوى ، وأبو القاسم كرو ، وإسحاق الحسينى ، وسواهم .

وفى مجال الشعر مازال أعلام المدرسة المهجرية يوالون تجاربهم الشعرية وفى مقدمتهم الشاعر القروى وإلياس فرحات وصيدح ، وقد رقد إخوان لهم فى مرقد الأبدية ، كجبران وإيليا أبو ماضى ونسيب عريضة وغيرهم . . وفى الشعر العربى تقف مدارس : الكلاسيكية الجديدة ، والرومانسية ، والواقعية ، والرمزية ، والشعر الحر ، ونسمع الصدى العميق لشعر نازك الملائكة ، وجليلة رضا ، وجميلة العلايلى ، وملك عبد العزيز ، وروحية القلينى ، وعزيزة هارون ، وعاتكة الخزرجى ، كما نقرأ لمحمود حسن إسماعيل . وسليمان العيسى ، وحمزة شحاته ، وإبراهيم هاشم الفلالى ، وصالح جودت ، وأحمد رامى ، وأنور العطار ، وخلفهم طبقات كثيرة من الشعراء ، نقرأ لهم ، ونعجب بآثارهم الشعرية حينا ، أو نسخط عليها حينا آخر .

ومع كل مابلغه أدبنا المعاصر اليوم من تطور وتجديد واتساع أفق ، فلا يزال أمامه كثير من الخطى التى يجب أن يخطوها ليبلغ غاية ما نرجو له من قوة ونهضة .

لا يزال أمام أدب الترجمة رسالة تنتظره ليوسع مجال الصلات بين الأدب العربى والغربى ، ومن سوء الحظ أن يوقف نشاط أندية القلم فى الشرق العربى ، فانقطعت الصلة التى كانت من قبل موصولة بنادى القلم الدولى ، الذى قام لتوثيق الروابط والصلات بين الأدباء فى جميع أنحاء العالم ، ولخدمة أهداف إنسانية منها : حرية الرأى ونصرة السلم ، والتفاهم بين الأمم . . وفى مجال أدب الترجمة نجد لوديع فلسطين ، ومحمد عوض محمد وغيرهما أعمالا أصيلة .

ولا يزال أمام النقد مراحل شاقة لكى يؤكد فهمنا للأدب ومذاهبه ومناهجه ، ويعمق الشعور بأهمية مشاركته الفعالة فى الخلق الأدبى .

وأمامنا جهود مضنية تنتظرنا من أجل خدمة تراثنا الأدبى وإحيائه وتحقيقه ونشره .

وقد تضاءلت الجهود الرفيعة فى باب النثر الفنى ، من حيث احتلت المقالة السياسية الصدارة ، فأدب المقامة ، والرسالة الأدبية ، وفن المناظرة والحوار والجدل ، لاتكاد تنال منا نصيبا من الاهتمام والإيثار .

والأديب العربى اليوم لا يكاد يهتدى للكثير من مقومات حريته الفكرية ، التى هى الأصل فى كل عمل أدبى جديد وأصيل .

وتنافر المدارس الشعرية اليوم واضطرابها عامل فعال فى ضعف تأثير الشعر والشعراء فى الحياة العربية المعاصرة ، ونرجو أن يحل محل هذا التنافر اتساق وسلام يعاونان على إيجاد بيئة حية متطورة للشعر العربى فى مجتمعاتنا الراهنة .

ولا يزال أمامنا خطوات أخرى لكى يصبح أدبنا العربى إنسانياً وعالمياً ، يحتل مكانته بين الآداب العالمية ، ونعرف بآثاره المشهورة الأدباء فى كل شعب وبكل لغة .

وأهم من ذلك كله ما نشعر به اليوم من الحاجة الملحة إلى الأصالة والعمق ونضوج الثقافة وسعة التجربة وإنسانية التفكير فى كل جوانب حياتنا الأدبية وإنتاجنا الفنى .

هل تقدم الأدب العربى بعد الحرب العالمية الثانية أو تأخر ؟ وهل شارك الأدب العربى المشاركة الكاملة الفعالة فى بناء المجتمع والحياة من حوله ؟ وبخاصة بعد قيام ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية العملاقة ، وهل بلغ الأدب ما نرجوه له فى عالم اليوم ؟

أسئلة قد يستطيع القارىء أن يفهم بعد ما أوردناه وجه الرأى فيها ، وإن كانت الأحكام حولها قابلة للاختلاف حينا ، وللتناقض حينا آخر . ومع ذلك فإن الشعوب العربية تسير ، ويسير معها الأدب ، الذى لا بد أن يثمر ثمراً جليلا وجديداً فى مستقبل الأيام .

وقد يمكن لقائل أن يقول أن نهضة الأدب العربى فى العصر الحديث قد أصبحت كما ينبغى عالمية عربية، لأن العالمية فى صورتها الصحيحة هى وحدة إنسانية تقوم على التضامن بين الأمم ولا تقوم على هدم هذه الأمة أو تلك فى بلادها وبناء العالم — المهدوم — من الأخلاط والفوضى التى لا تعرف القومية ولا تعرف الإنسانية على السواء .

وقد سارت النهضة بالأدب العربى إلى السمة العالمية بهذا المعنى الذى لا اختلاف عليه بين طلاب الثقافة الإنسانية ، وإنما يكون الأدب عالميا إذا اتسع لكل موضوع من الموضوعات الإنسانية المشتركة كما يحسها أبناء كل أمة فى الزمن الذي يعيشون فيه ، وليس بالشرط اللازم فى الأدب

العالمى أن يكتب باللغة التى يستطيع أن يقرأها أبناء العالم أجمعين ، فإن اللغة الصينية يتكلمها خمسمائة مليون ولا يقال عن آدابها الحاضرة إنها أجدر بوصف العالمية من آداب الأمة السويدية أو البلجيكية أو التشيكية ، وإنما تكون عالمية بمقدار نصيبها من موضوعات الأدب التى تشترك فيها أمم الحضارة فى العصر الحديث ، وبخاصة تلك الموضوعات « التعبيرية » التى تصاحب الأمم الحية فى كل زمن ولا تتوقف على نصيبها من المزايا العرضية بين حين وحين ، فربما كثر عدد الفلاسفة والرياضيين فى زمن من الأزمنة وقل فى زمن آخر ، والأمة هى الأمة فى علاقاتها العالمية وتعبيراتها عما تكنه من الشعور ، ولكن المعبرين عن ذلك الشعور من الشعراء والأدباء والفنانين يقلون ، وتكون قلتهم دليلا على نقص الحيوية ويكثرون وتكون كثرتهم دليلا على قوتها واندفاعها إلى إثبات وجودها والتعبير عن بواطنها .

ومن الأدلة على الصبغة العالمية فى أدبنا الحديث أنه يمثل العوارض العالمية فى نواحيها المتعددة بما يصيبها من نشاط وفتور أو محافظة وتجديد ، فكل ما هو شائع رائج من الفنون بين أمم الحضارة له مثل هذا النصيب من الشيوع والرواج بين المتكلمين بالعربية ، وكل مايقال عنه إنه شيء فى غير أوانه يعاد فيه هذا القول بيننا مع اختلاف العبارة كما ينبغى أن تعرف بين قوم وقوم يخالفونهم باللغة والتاريخ .

إن الشعر -- مثلا — من الفنون التى يقال عنها إنها فى غير أوانها بين أبناء العصر الحديث ويعتقد النقاد ما يعتقدون فى تعليل ذلك ، ونعتقد نحن أن المسألة كلها مسألة توزيع لمواضع التعبير وليست مسألة انصراف عن وسائله وأدواته ، فإن العصر الذى يملك من وسائل التعبير عن العاطفة الإنسانية فنونا — تتوزع بين المسرح والقصة والصور المتحركة وأغانى الإذاعة والحاكى (الجرامفون) وأخبار الصحف وغيرها وغيرها

من فنون العاطفة — لا يعقل أن يكون نوع الشعر الذى يطلب فيه كنوع الشعر الذى كان يطلب من قبل ، وهو هو الفن الوحيد المعبر عن عواطف الشعراء والمستمعين .

وأيا كان سبب (التغير) فى مناهج الشعر وميادينه فالمهم فيما نحن بصدده أن الظاهرة العالمية تظهر عندنا كما ظهرت بين أمم الحضارة الحديثة ، وأنها آية من آيات الصبغة العالمية التى ترتقى إليها نهضة الأدب العربى الحديث(١) .

---

(١) من مقال للعقاد عن نهضة الأدب الحديث - مجلة القافلة ١٩٦٥ .

الفصل الثانى

محمود سامى البارودى

١٢٥٥ — ١٣٢٢ هـ : ١٨٣٨ — ١٩٠٤ م

تمهيد :

(ا) كان الشعر أيام الأتراك العثمانيين على ماعرف من ركاكة الأسلوب وضعف المعنى وولوع بالمحسنات البديعية ونظم فى تافه الأغراض وسقيم الخيال وكثرة العامى والدخيل فى ألفاظه . وكان الشعراء بعيدين عن الأمراء وأشياعهم إذ لم يجدوا فيهم آذانا صاغية ولا قلوبا واعية ولا نفوسا تطمح نحو الكمال الأدبى فلم يجد الشعر من أسباب النهوض مايرفع شأنه أو يقوى فى الوجود سلطانه وكان لسوء الحالة الاجتماعية من فقر ومرض وجهالة أثره البالغ فى ركود الشعر ووهنه .

وبقى الشعر على هذه الحال طيلة عهد محمد على ومن بعده إلى عهد إسماعيل فإن حركة الإصلاح السريعة كانت مادية عسكرية ولم تكن أدبية روحية فهيهات أن ينتفع بها الشعراء إلا قليلا غير أن الولاة قد عرفوا للشعراء فضلهم وأدنوا مجالسهم ، وكان منهم من اختص بالأمير كالسيد على الدرويش شاعر عباس الأول . فاتصل الشعراء بالولاة وسجلوا محامدهم وكانت هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة للشعر ، كما أنهم ولعوا بالتاريخ الشعرى يسجلون به أعمال الأمراء ومنشآتهم ووفياتهم(١) .

---

(١) ومن شعراء هذا العهد :

١ ـ السيد أحمد البربير البيروتى المتوفى سنة ١٨١١م .

٢ ـ السيد إسماعيل الخشاب المصرى المتوفى سنة ١٨١٥ م .

٣ ـ الشيخ محمد المصرى المتوفى سنه ١٨١٥ م .

(ب) وفى عهد إسماعيل تظاهرت على رقى الشعر أسباب ودواع ، ففى عهده أخرجت المطابع كثيرا من كتب الأدب العامة ودواوين الشعراء فتمرس الشعراء بأساليبها وتعمقوا عباراتها ووعوا معانيها وكان لهم منها مدد أى مدد . وفى عهده قدم إلى مصر كثير من الأدباء السوريين وغيرهم فقربهم ووصلهم وعاشوا فى كنفه سعداء يرفعون شأن الشعر ويشيدون بذكر الأمير ، وفى عهده تكاثرت الصحف والمجلات ، وتم إنشاء دار الكتب ، وفى عهده قدم من أوربا رجال البعوث المصرية ولقد لقحت أذهانهم بمعارف الغرب وذخرت صدورهم بغريب أدبه وعجيب فنه . فامتزجت الثقافة العربية بالثقافة الغربية . ذلك إلى ما نقل من أدب الغرب إلى لغة العرب فهذب من أذواقهم ورقى من أفكارهم واتخذ اسماعيل شاعرين من خاصته هما الشيخ الليثى والشيخ على أبو النصر المنفلوطى . وبذلك نهض الشعر وارتفع شأنه وسما خيال الشعر وجمل معناه ورق لفظه ، وكثر الشعراء فى عصره وتسابقوا فى مدحه حتى طلبة المدارس كان لهم تجارب شعرية كثيرة .

ومن شعراء هذا العهد :

١ — محمود قبادو التونسى من أدباء تونس توفى سنة ١٨٦٨ م .

٢ — فرنسيس مراش من شعراء الشام توفى سنة ١٨٧٣ .

٣ — الساعاتى المصرى توفى سنة ١٨٨٠ م .

٤ — على أبو النصر المنفلوطى سنة ١٨٨٠ م .

= ٤ ـ الشيخ حسن العطار المتوفى سنة ١٨٣٤ م .

٥ ـ السيد على الدرويش المتوفى سنة ١٨٥٣ م .

٦ ـ الشيخ شهاب الدين المصرى المتوفى سنة ١٨٥٧م .

البارودي صدى لعصره :

عند ما نذكر البارودي(١) نذكر الثورة العرابية ، التي اشترك فيها ، وناضل من أجلها ، ونفى من وطنه بسببها .

ولقد كان البارودي ١٢٥٥ — ١٣٢٢ هـ : ١٨٣٨ — ١٩٠٤ م صدى لعصره - عصر ما قبل الثورة العرابية وما بعدها - وترجمانا أمينا لمشاعر مصر فيه .

وفى هذا العصر كان للصحافة ولتقدم العلوم والفنون أثر كبير فى تطور الأدب وقوته ، ومدرسة البارودي هى مقدمة المـــدارس الحديثة فى الشعر العربى .

وكان لمحمد عبده (١٩٠٥) وعلى يوسف (١٩١٣) ولإبراهيم المويلحى (١٨٩٥) تأثير شديد فى الحركة الفكرية ، وأخذت حركة إحياء التراث القديم ، ونشر المعارف الغربية فى مدارسنا ، يعملان عملهما فى عقلية المثقفين .

وإذا كانت الحياة الثقافية فى مصر بعد الثورة العرابية قد ازدهرت بسبب الإقبال على التعليم والمعرفة ، وتأجج الروح الوطنى فى ثورة عرابى (٩ سبتمبر ١٨٨١) وحركة مصطفى كامل (-١٩٠٨) ، وبفضل الأزهر الشريف ، وظهور طبقة الرواد والمفكرين من أمثال : محمد عبده وعلى يوسف ومصطفى كامل وسواهم ، ولغير ذلك من أسباب .

فإن الأدب المصرى قد ازداد ازدهاراً ، بتأثير العوامل العديدة التى

---

(١) راجع ٩٨ — ١٢٥ : « قصة الأدب فى مصر للمؤلف ، و ١٥٥ وما بعدها جـ ١ فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى .

أثرت فى عقول الناس وأفكارهم ومشاعرهم وخيالاتهم ، وقد ازداد هذا التأثير بمرور الأعوام ، وتعددت الاتجاهات الأدبية تعدداً كثيراً . فمن الاتجاه قومى فى الأدب يميل حينا إلى الوحدة العربية وحينا إلى وحدة إسلامية ، واتجاه اجتماعى يتجلى فى دهشة الناس من المخترعات الحديثة ، وما حملته لهم المدنية الغربية من حسنات وسيئات ، والشعور بالفاقة الاقتصادية وبالظلم الاجتماعى وبالفروق الظالمة بين الطبقات ، ويتجلى كذلك فى صيحات الأدباء الداعية إلى الإصلاح والعدالة ، وفى صيحة المرأة كذلك مطالبة بحقوقها منذ ارتفع صوت رفاعة الطهطاوى (عام ١٨٧٣) داعيا إلى تعليم المرأة ، وفى دعوة الداعين إلى أدب إنسانى يتخطى الحدود والقيود ويكافح من أجل الدعوة إلى عالم أفضل تسوده الطمأنينة والسلام ، وإلى القضاء على النزعة العنصرية الإقليمية ، ومن اتجاه فكرى يساير العلم ويكره الجمود والتعصب ويتأمل الطبيعة ويستغرق فى تأملها . ويحيا فى الكون يستلهم جماله الطبيعى ؛ ومن اتجاه فنى يظهر فى هذا التطور الكبير فى أسلوب الشعر والنثر فى هذه الفترة من حياتنا .

وقد أخذ الأدب يتقدم بعد أن نهل الأدباء من حياض أعلام الأدب الأقدمين : فى جاهليتهم وإسلامهم من مثل امرىء القيس ، وأبى نواس وأبى تمام ، والبحترى ، والمتنبى ، وابن المقفع ، والجاحظ . وكان من ثمرة هذه النهضة إبراهيم المويلحى الكاتب ١٨٩٥ ، ومحمود سامى البارودى الشاعر ، فبرئت آثارهما من كثير من آفات من سبقهما من المتأخرين ، وإن بقى الأول متعلقا بسجعه ، والآخر محبوساً فى أغراض شعره .

شاعرية البارودى :

كأنما خلق البارودى ليجدد الشعر ، ويحيى دارس عروبته ، فقد كان منذ حداثته يميل إلى آداب اللغة ، ووجهه ذلك الميل إلى غشيان مجالس الأدب ،

واستماع ما يلق فيها من منثور ومنظوم ، ثم صار يقرأ على الأدباء ويشاطرهم فقه مايقرأ ، ثم اشتغل وحده بقراءة الدواوين بالدقة والإمعان ، حتى وصل في قليل من الزمن إلى مالا يدرك في متطاول الأزمان، فنظم الشعر وهو دون العشرين ، وصار يحذو حذو الجاهليين والإسلاميين ، فلا يقصر عنهم ولا يقع دونهم .

وإن تعجب فعجب أن البارودى ، لم يدرس قواعد العروض والقافية ، ولا قرأ النحو والتصريف ومعاجم اللغة ، وإنما اتخذ الأدب إمامه ، ووصل إلى ما وصـــل إليه من طريق محاكاته للقدماء ، فلا تجد له ألفاظا نابية ، ولا أساليب ضعيفة ، كأنما هو من الأعراب النابتين في البادية: فطرة سليمة ، ونفس صافية ، وإلهام إلهى ، وتمهد سماوى. وشعر البارودى في حداثته يتميز عنه في أيام محنته ، كما يتميز عن شعره في آخر عهده :

فشعره في أيام المحنة والاغتراب (١٨٨٢ — ١٩٠٠) ممتلىء فنى رصين، يحاكى شعر فحول القرنين الثالث والرابع من أمثال : أبى تمام ، والبحترى ، والمتنبى ، وابن الرومى ، والرضى وغيرهم : جزالة لفظ ، وفحولة نظم ، ورصانة قافية ، وإشراق ديباجة : وحين عاد إلى مصر استقبلها بقصيدته :

أبابل مرأى العين أم هـــذه مصر
فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر

وهو مطلع متكلف .

وفى آخر عهده (١٩٠٠ — ١٩٠٤) فتر شعره ، وخمدت جذوته ، لما أصابه الكبر ، ووهنت قواه .

وشعره عامة يمتاز بالقوة وجزالة اللفظ ، وفخامة النظم ، ومتانة القافية ، وصفاء العبارة ، حتى يمكن أن يقال إنه منذ مئات من السنين لم يجىء من الشعراء من يفوق البارودى فى ذلك ، أو من يدانيه . . ويقول

عنه أستاذه المرصفي(١) : أولع البارودى وهو غض الحداثة بحفظ الشعر ، وأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء المتقدمين ، حتى شب فصيح اللسان ، مطبوعا على الأعراب دون أن يتعلم النحو ، فانطلق يقول الشعر فى أغراضه المختلفة ، ونهض به نهضة عظيمة ، وأعاد إليه حلته العربية ، وبهجته البدوية ، حتى شاكل الشريف الرضى فى جزالة اللفظ ومتانة النسيج ، وقوة الكلام ، ولم يتخلف عن متقدمى الشعراء فى شىء ، على أنه أربى عليهم بما جال فى فنون المعانى التى تجلت بها الحضارة الجديدة ، وما وصف من مخترعات أخرجها العلم الحديث .

وألفاظ البارودى فى شعره ألفاظ لحلة جزلة قوية بريئة عن عنجهية البداوة ووحشيتها .

وأساليبه : أساليب عربية قوية ، متينة الأسر ، رصينة السبك ، تطالع فيها قوة الجاهليين ، وعذوبة الإسلاميين ، ودقة العباسيين ، ورقة الحضارة المصرية ؛ وكلا هذين ـ الألفاظ والأساليب ـ أوحى بهما ولوعه بأشعار هذه العصور جميعاً وإعجابه بها وتملؤه من محفوظها تملؤا ملك عليه حواسه ، وسرى فى مشاعره وتغلغل فى دمائه ، وحل من نفسه محل النفس ، فنضح كل أولئك على شعره نضوحا سلكه فى نظام شعراء تلك العصور : إشراق أسلوب ، ورقة ديباجة ، وتخير ألفاظ ونسجاً عبقريا منمنما ، افتنت فى تحبيره كل أولئك الأيادى الصناع ، حتى انقطعت صلته انقطاعا تاما بمتعارف شعراء عصره ، ولاريب أن هذه إحدى دعائم زعامة البارودى الشعرية .

وقد دارت أخيلته ومعانيه بين توليداته العجيبة فى معانى هؤلاء السابقين وأخيلتهم ، وبين ما أثارته أحاسيسه المصرية الخاصة وهى بين مولدة ومخترعة فهى آية القدرة ، ومراد الفن ، ومظاهر العبقرية ، مما انقطع

---

(١) ٢ : ٤٧٤ الوسيلة الأدبية .

عنه ، أو عمادونه بكثير ، طموح شعراء عصره،وهذه هى الدعامة الثانيه من دعائم زعامة البارودى الشعرية .

فأما أغراضه : فقد سار البارودى فى طريقة الشعراء القدامى ، وحطم القيود والأغلال ، ففخر ، ووصف وشـــكا ، وحن إلى الوطن ، وتغزل ومدح ، وهجا ورثى ، وقال فى السياسة ، وعالج جميع الأغراض التى عالجوها .

وليس البارودى فى جميع الأغراض التى تناولها فى شعره بمنزلة سواء ، برز البارودى فى وصف المعارك ، وفى الشكوى والحنين إلى الوطن ، وفى الوصف(١) وفى الفخر والتمدح بشمائله ومجده وصفاته الفذة ، فأجاد إجادة منقطعة النظير ، لأنه فى فخره كان يمتح من معين فياض من عواطفه التى تثيرها بيئته وبيته ، ومواقفه فى البطولة وفى المناصب وفى شرف النفس وعلو الهمة ؛ وفى الطموح إلى الغاية التى لايطمح إليهـا إلا الأبطال المعلمون .

ويقول عنه مطران : إن شعر البارودى هو بجملته صناعة لاتقاس بقديم أو حديث،مع ابتكارقليل وإحساس فياض. اختار له أحسن أساليب

---

(١) من أروع صور الوصف فى شعره وصفه السجن ، وفيه يقول :

فسواد الليل ما إن ينقضى   وبياض الصبح ما إن ينتظر
لا أنيس يسمع الشكوى ولا   خبر يأتى ولا طيف يمر
بين حيطان وباب موصد   كلما حركه السجان صر
يتمشى دونه حتى إذا   لحقته نبأة منى استقر
كلما درت لأقضى حاجة   قالت الظلمة : مهلا لاتدر
أتقرى الشىء أبغيه فلا   أجد الشىء ولا نفسى تقر
ظلمة ما إن بها من كوكب   غير أنفاس ترامى بالشرر

العرب وأفصح ألفاظهم وتغنى بها على وحى نفسه ـ ونفسه جارية النغمة وعاشقة الإيقاع ـ فافتن حتى أنسى الفن ، وجود حتى أذهل عن المعنى ، مثل قارئه مثل سامع المنشد البارع لاينفس حين يلتبس عليه فهم الألفاظ إذا استمر النغم على نظامه وإتقانه ، بل يستمر فى طربه ويترقى فيه إلى أن يخلق لنفسه شجونا ، حيث تفوته شجون الأقوال المنشدة . ذلك كان مذهبه فى الشعر وتلك غايته منه ، ولا ننسى له فضلا جديراً بالذكر الخاص وهو أنه أول شعراء البعثة الحديثة ، بمعنى أنه أول من رد الديباجة إلى بهائها وصفائها القديمين . وما ابن قريضه لقريض جيله ، فإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صعداً إلى عهد أرقى أزمنة العرب ، فهى كالجبال الشامخة وحولها القصائد الأخر كالأركان المقامة من حجارة أطلال بلا اختيار ولا نسق وهندام .

شعراء مدرسة البارودى :

ظهر فى عصر البارودى أمثال : إسماعيل صبرى ، وشوقى ، وحافظ ، وحفنى ناصف ، ومحمد عبد المطلب (١٨٧١-١٩٣١) والسيد محمد توفيق البكرى (١٨٧٠ - ١٩٣٢) وأولئك هم الشعراء الذين لايدفعون عن حياض الشعر ، لافى قديم ولا فى حديث ، وإن لم يكونوا فى ذلك بمنزلة سواء ، ثم خلفهم الجارم (٨ فبراير ١٩٤٩) والأسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٦) وعلى الجندى (٤ يونيو ١٩٧٣) وعزيز أباظة ، ومحمود غنيم ١٩٠٢ - ٢٤ سبتمبر ١٩٧٢ ، ومحمد عبد الغنى حسن ، وهم شعراء الكلاسيكية المجددة فيما عدا الشاعر الجارم .

ويقول العقاد فى كتابه « شعراء مصر » : وله ميزة واضحة لانظير لها فى تاريخ الأدب المصرى الحديث ، وتلك أنه وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمتانة ، كأنه القمة الشاهقة تنبت فى متون الطود بعيدة عما قبلها فينقطع بينها وبينه طريق الوصول فإذا

أرسلت بصرك خمسمائة سنة وراء عصره لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تساميه أو تدانيه ، وكنت كمن يقف على رأس الطود المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والكثبان والوهاد إلى أقصى مدى الأفق البعيد ، وهذه وثبة قديرة فى تاريخ الأدب ترفع الرجل بحق إلى مقام الطليعة » .

وشاعرية البارودى على هذا الاعتبار وليدة عوامل كلها يصلح وحده لأن يكون مذكياً لجذوتها ، مشعلا لجمرتها . فهو قارىء للشعر ، حافظ للكثير منه ، ناقد له يعرف جيده ورديئه ، وقديماً كان العربى يقول «احفظ تقل إن الكلام من الكلام » ، وهو كذلك عارف للأدب التركى والفارسى ، ينظم فيهما ، ويستطيع أن يكون له بهما تذوق ومعرفة ، ودراية ونظر ، فله فى الأدب العربى رصيد ينفق منه ، وله فى الأدب التركى والفارسى رصيد ينفق منه ، وله من مجموع هذا رصيد ينفق منه ، ومن حقه أن يكون له هذه الشاعرية الفذة والطاقة الكبرى والمنزلة العظمى ، بين الذين كانوا قبله ، والذين جاءوا بعده .

نهضة الشعر على يدى البارودى ومظاهرها :

١ — حين ظهر البارودى أخذ ينهض بالشعر نهضة أحيت مكانته ، ويثب به وثبة ردت صولته ، فأرسله جزل العبارة ، فخم الأسلوب ، يأسر به الألباب ، ويسحر القلوب ، وطار به فى سماء المتقدمين ، وحلق فى أفق الجاهليين والإسلاميين ، فحفز حب المنافسة أو الرغبة فى الاحتذاء ، بعض معاصريه من الشعراء ، إلى بلوغ شأوه ، وكان لا بد لهم لكى يعدوا أنفسهم للجولان فى تلك الحلبة والصيال فى ذلك الميدان ، من استظهار أشعار الفحول السالفين : من جاهليين وإسلاميين ، فسمت مداركهم ، وثقفت ألسنتهم ، وقويت ملكاتهم ، ونبل قريضهم ؛ وقلت هناتهم ، وأخذوا يتحرزون عن التماس المحسنات البديعية والجهد فى إيرادها ، وسوق بعض الأبيات لمجرد اصطيادها ، جريا على ما كان مألوفا بين إخوانهم السابقين

والمعاصرين ، فتحللوا من هذا كله ، ونسجوا على منوال الأقدمين ، فأتى نسجهم متلاحماً ، مشرق الديباجة ، لحمتـــه الجزالة والرصانة ، وسداه الرقة والإبانة .

٢ — ولقد لبث الشعر يتعثر فى أذيال الجمود والتكلف ، حتى أتاح الله له البارودى ، فرفع لواءه ، وشاد بناءه ، وتبعه قوم توفروا على الأدب القديم حباً فى مجاراته ، وتوسلا إلى محاكاته ، فأضفى عليهم المجد رداءه ، وأسبغ عليهم حسنه ورواءه ، ولكن بعضهم أسرفوا فى تقليد القديم ومعانيه برغم أن بعض هؤلاء قد اطلعوا على ثقافات الغربيين ، وليس ينكر فضل هؤلاء فى إنهاض الشعر بعد طول ركوده ، والدأب على انتشاله من وهدة خموده ، ولكن إخوانا لهم آخرين قد طاروا إلى مثل سمائهم ، وحلقوا فى مثل أجوائهم ، إلا أنهم فاقوهم بما عنوا به من التجديد والابتكار ، وبما نزعوا إليه من كل طريف أتاح للشعر العربى الانتعاش والازدهار ، فهم مع علو كعبهم فى الاداب العربية ، قد رووا نفوسهم من الآداب الغربية والثقافة الأوروبية ، فزجوا على حد تعبير بعض الأدباء «بين الثقافتين» ، وتخرجوا فى المدرستين .

وهكذا اجتمعت للنهضة الشعرية إذذاك كل أسباب القوة ، فهذه طريقة الملكة العربية قد عبدها البارودى ، وذلك بحر المعانى الخضم المنساب من الحياة وآداب الغرب ، وتتبع خياله فى القصص «الروايات» . ولقد شعر أحمد شوقى بأثر ذلك كما شعر به غيره حين رأينا علو شعره بعد الحرب الكبرى ، فقد قال : إن مداومتى أثناء اعتقالى بإسبانيا لشهود الخيالة كان لها أثر عظيم فى تقوية خيالى .

٣ — وكان أعظم المظاهر فى تطور الشعر على أيدى مدرسة البارودى هى : النزوع به إلى أساليب البلاغة العربية وترك الإفراط فى المبالغات ، وعدم الاكتراث للمحسنات البديعية .

٤ — وأما من حيث الأغراض فقد أعرض الشعراء عن الفخر بتاتا والمديح والرثاء إلا فى عظماء الرجال ، على أنه بعد ذلك قد شارك فى الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وخاض به الفنيون فى فنون الفلسفة وقواعد الأخلاق على أن البارودى مع سمو أدبه وعلو كعبه ، لم يعد كما ذكرنا أغراض السابقين ، ولم يرم إلى غير أهداف الأقدمين : من غزل ونسيب ، ومديح أو تشبيب ، وإطراء أو هجاء ، ونخر أو رثاء ، ووصف إلى حد ما ، وبكاء ديار ، ووقوف بدمن وآثار .

٥ — وإذا جعلنا الحوادث الكبرى وفى مقدمتها الثورة العرابية ، ثم الحرب الكبرى ، مجازاً انتقل عليه الشعر من حال إلى حال ، فإننا لا ننسى أن من تلك الحوادث ظهور البارودى ، فإنه كما يقول النقاد والباحثون قد ظفر بالشعر من حضيضه الراكد الآسن إلى ثبج بحر خضم تتلاطم أمواجه ويعب عبابه ، فرأينا فى شعره جلجلة كلام الأقدمين وقوة روحهم ، وأسمعنا على بعد العهد جزالة أبى تمام ، وصفاء البحترى ، ووصف المتنبى للحروب ، بل أرانا صورة مجتمعة من قوة اللفظ ووضوح النهج ، وجلال المعانى مما عرفه الناس من قبل البارودى لفحول الشعراء العباسيين، فالبارودى - لاريب - حين نشر الناس مطارف شعره ، خلبهم بهذه المحاسن المجتمعة ، وروى ظمأهم من تلك الجزالة التى تشتاق إليها النفوس فى جدها ، وتحتاج إليها النهضات فى أوائلها ، دل الناس على أسباب ذلك الفضل الذى جمعه لنفسه ، فعرفوا شعر القدماء وزاد الإقبال على حفظه ، والعمل على شاكلته ،وساروا فى النهج الذى اختطه البارودى لنفسه ، فأخذوا يترسمونه ، ويحاكون منهجه وأسلوبه فى الشعر ، ويحفظون قصائده ويعارضونها ، فقويت مواهبهم وملكاتهم وأخذ الشعر يسير جزلا فخما شريف اللفظ ، مونق الأسلوب مشرق الديباجة ، متلاحم النسج ، عذب الموسيقى ، رصين القافية ، وأخذ يبعد عن المحسنات البديعية وعن الضعف ، وإن كان البارودى مع جلالة مكانته فى الشعر لم يعد الأغراض التى نظم فيها المتقدمون .

التجديد بين البارودى وشوقى :

ذاك شأن الشعر وما آل إليه أمره على يدى البارودى وفى عصره ؛ ولقد انتقل الشعر بعد البارودى من طور إلى طور ، باطلاع الشعراء على الآداب الغربية ، فراحوا يتوسعون فى أغراض الشعر ، ويخوضون به فى فنون من المعانى والأخيلة لم يسبق إليها السابقون ، فنظموا الشعر القصصى والتمثيلى ، ونظموه فى السياسة والاجتماع والفلسفة ، والوصف لمشاهد الحضارة الدقيقة ، وأخذوا يتأنقون فى أسلوب القصيدة وألفاظها وموسيقاها ، ويحرصون على الوحدة فيها ، ويوائمون بين الشعور والشعر ، وقد أكسب الشعراء مصر الزعامة الأدبية فى العالم العربى ، مما تجلى واضحا حين قدمت وفود الشعراء العرب إلى مصر عام ١٩٢٧ م لتأمير شوقى على عرش القريض فكان ذلك كما قال النقاد إجماعا على الإنصاف ، وشهادة لا تلفيق فيها على فضل الرجل أولا ، وفضل مصر ثانيا وقال حافظ قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وكان أثر النهضة فى تجديد الشعر مختلفاً أيضاً ، فتجديد البارودى كان من ناحية الرجوع بالشعر العربى ، لا إلى العصر القريب المنحط الذى لم يتجاوز فيه الشعر : التهانى والتعازى وماشاكلهما ، أو الخلاعة والمجون فى ألفاظ بذيئة ، بل إلى العصر العباسى البعيد . فترسم آثار أبى نواس ، وأبى فراس ، والمتنبى ، والشريف الرضى ، من حيث الأغراض والمعانى وفحولة اللفظ .

وأما تجديد شوقى وحافظ وأضرابهما ، فكان بتطعيم الشعر العربى بالشعر الأجنبى قليلا ، كما يفهم من التجديد ، ولذلك كان أوضح من تجديد البارودى ، ولكنهما مع هذا كان حظهما من القديم أكثر من حظهما من الجديد . يقول هيكل فى مقدمته لديوان شوقى : إن حكمة شوقى وما يصدر عنه من وصف وغزل ، وما يميز شعره جميعا ، يبدو كأنما شوقى عربى ، لا يتأثر بالحياة الغربية

إلا بمقدار ، وهذا طبيعى مادام شوقى شاعر العرب والمسلمين ، ومادام يجد فى الحضارة الشرقية القديمة ، مايغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية ، إلا بالمقدار الذى تحتاج إليه أمم الشرق فى حياتها الحاضرة ، لسيرها فى سبيل المنافسة العامة ، ولقد ترى شوقى يغلو فى شرقيته وعربيته أحيانا ، ولقد تراه يتعمد ذلك فى لفظه ومعناه ، وسبب ذلك هو مايراه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة بنفوس كثيرة تصبو إلى نسيان ماخلف السلف من تراث والأخذ بكل مايلمع به الحاضر من رواء الغرب .

وقد يكون غلو شوقى أكثر وضوحا فى جانب اللغة ، منه فى جانب المعانى ، فهو بمعانيه وصوره وخيالاته يحيط بما فى الغرب بكل مايسيغه الطبع الشرقى وترضاه الحضارة الشرقية ، أما لغته فتعمد إلى بعث القديم من الألفاظ التى نسيها الناس وصاروا لايحبونها لأنهم لايعرفونها ، ولعل سر ذلك عند شوقى أن البعث وسيلة من وسائل التجديد ، بل لقد يكون البعث آكد وسائل التجديد ، نتيجة أن وجد من أرباب اللغة من يفيضون على الألفاظ القديمة روحا تكفل حياتها .

إسماعيل صبرى

كان إسماعيل صبرى (٢٠ فبراير ١٨٥٤ — ١٦ مارس ١٩٢٣) من شعراء مصر المعدودين فى مطلع القرن العشرين(١) . وقد استقبل الحياة حيث كانت حركة الإحياء الأدبى سائرة فى خطاها الجادة العاملة ، وتزود صبرى بكثير من الثقافات الأدبية القديمة ، وقرأ طويلا فى الشعر العربى وأحبه محاولا تقليده ونظمه ، فى قصائد هى مجرد تقليد واضح فى أغراضها ومعانيها وأساليبها وخيالها للشعراء الكبار فى عصره : كالبارودى وعبد الله فكرى . وإن ظهرت عليها حينا مسحة رقيقة من جمال روحه وشخصيته ، ثم أخذ يقرأ بحكم ثقافته فى الأدب الفرنسى ، وسافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق فى جامعاتها عام ١٨٧٣ .. تأثر بالبحترى فى روحه الغنائى كثيراً ، وتأثر بألوان من الخيال فى الشعر العربى ، وببعض سمات الشعر الفرنسى ، فلما استوى سنه ، ونضج شعره ، بدأت شخصيته الأدبية تظهر بوضوح فى قصائده ، وخاصة تلك التى نظمها يصف بها عواطفه ومشاعره ، ويتغنى فيها بأناشيد الهوى والحب والجمال والحكمة والتصوف والروحية العميقة والوطنية ، وكان شعره يجمع بين عمق المعنى وحلاوة اللفظ ، فى بساطة وصدق وقوة عاطفة ، وكان يكره الصنعة والتعمل والتعقيد . وقد بدأ ينظم الشعر وهو فى السادسة عشرة وكان ينشر فى مجلة « روضة المدارس » . ويقول فيه طه حسين فى المقدمة التى كتبها لديوانه : أجمع الجيل الذى عاصر صبرى على أنه كان شاعراً ممتازاً ، وعلى أنه كان علماً من أعلام الشعر فيه ، وكان صبرى مقلا شديد الإقلال . ولم يكن يتخذ الشعر صناعة ، وإنما كان

---

(١) ترجم له هيكل فى كتابه « تراجم شرقية وغربية » . وراجع ٢ : ٩٩ فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى — طبعة ثالثة ، ومقدمة ديوان إسماعيل صبرى .

يتخذه لونا من ألوان الترف ، وفنا من فنون الامتياز العقلى والأدبى الرفيع ، وفى الشعر السياسى لصبرى هذا الروح المصرى الذى تعرفه فى شعر حافظ وشوقى ، وتعرفه فى حياة الجيل كله . هذه الوطنية الحادة الطامحة إلى مثل أعلى غير محدود . ولقد انتهى إسماعيل صبرى إلى أن أصبح شاعراً بأدق معانى الكلمة ، فهو لايحتفل لقرض الشعر إلا إذا جاشت فى نفسه العاطفة القوية ، وسنح لذهنه الخاطر البديع . فلا يزال يتخير له الألفاظ الشريفة يرصعها فى الصيغ ترصيعا ، ومايزال بها يصقلها ويجلوها حتى يخرجها وكأنها من لظم جوهرى لامن نظم شاعر . وشعره كله فى طوره الثانى ، يجرى فى سهولة ، وحلاوة لفظ ، ورقة أسلوب وتلاحم نسج ، ورصانة قافية . ولقد كان من أثر اقتصاره فى الشعر على الترجمة عما يعتلج فى نفسه أن أصبح مقلا يقتصر على البيتين أو الأربعة أو العشرة . اللهم إلا أن تبعثه بعض الأحداث إلى القصيد فيطيل ماشاء أن يطيل .

ولقد كان متقدمو الشعراء من أمثال شوقى ، فى أول نشأته . وحافظ وأضرابهما يعرضون عليه أشعارهم لما عرفوا من رفاهية حسه ، ودقة ذوقه، ورقة طبعه .

ومن قصائده قصيدته « فرعون يخاطب قومه » التى يقول فيها :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى
إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
ولست إن لم تؤيدنى فراعنة
منكم بفرعون عالى الأمر والشان
ولست جبار ذا الوادى إذا سلمت
جباله تلك من غارات أعوانى

لاتقربوا النيل إن لم تعملوا عملا   فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة(١) كدا دون مورده   أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمو   لاتتركوا بعدكم فخراً لإنسان
أمرتكم فأطيعوا أمر ربكمو   لايثن مستمعاً عن طاعة ثان
والملك أمر وطاعات تسابقه   جنبا لجنب إلى غايات إحسان
لاتتركوا مستحيلا فى استحالته   حتى يميط(٢) لكم عن وجه إمكان
مقالة هبطت عن عرش قائلها   على مناكب أبطال وشجعان
مادت(٣) لها الأرض من ذعر ودان لها   مافى المقطم من صخر وصوان
لو غير فرعون ألقاها على ملإ   فى غير مصر لعدت حلم يقظان
لكن فرعون إن نادى بها جبلا   لبت حجارته فى قبضة البانى
وآزرته جماهير تسيل بها   بطاح(٤) واد بماضى القوم ملآن
يبنون ماتقف الأجيال حائرة   أمامه بين إعجاب وإذعان
من كل مالم يلد فكر ولو فتحت   على نظائره فى الكون عينان
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل   جنا تطير بأمر من سليمان

---

(١) المجرة : مجموعة نجوم فى السماء تشبه البقعة البيضاء وربما قيل نهر المجرة .

(٢) أماطت المرأة اللثام عن وجهها إذا كشفته .

(٣) مالت واضطربت وسقطت . ودان خضع .

(٤) البطاح واحدها أبطح وهو مسيل الماء فيه دقاق الحصا .

برا بذى الأمر لاخوفا ولا طمعاً … لكنهم خلقوا طلاب إتقان
أهرامهم تلك حى الفن متخذا … من الصخور بروجا فوق كيوان(١)
قد مر دهر عليها وهى ساخرة … بما يضعضع من صرح وإيوان(٢)
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى … ما يأخذ النمل من أركان ثهلان(٣)
كأنها والعوادى(٤) فى جوانبها … صرعى بناء شياطين لشيطان
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة … تسعى استباقا إلى ماخلد الفانى
فصغرت كل موجود ضخامتها … وغض بنيانها من كل بنيان
وعاد منكر فضل القوم معترفا … يثنى على القوم فى سر وإعلان
تلك الهياكل فى الأمصار شاهدة … بأنهم أهل سبق أهل إمعان
وأن فرعون فى حول(٥) ومقدرة … وقوم فرعون فى الأقوام كفتان
إذا أقام عليهم شاهدا حجر … فى هيكل قامت الأخرى ببرهان
كأنما هى والأقوام خاشعة … أمامها صحف من عالم ثان
تستقبل العين فى أثنائها صور … فصيحة الرمز دارت حول جدران
لوأنها أعطيت صوتاً لكان له … صدى يروع صم الإنس والجان

ومن أشهر قصائده الغنائية قصيدته :

يالواء الحسن ، أحزاب الهوى … أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم … فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى … فيه للأنفس رى وشفاء

---

(١) اسم كوكب .
(٢) يضعضع : يضعف .
(٣) ثهلان اسم جبل .
(٤) الأحداث والمصائب .
(٥) قوة واقتدار .

لاتذودی بعضنا عن ورده دون بعض ، واعدلی بین الظماء
أنت یم الحسن ، فیه ازدحمت سفن الآمال یزجیها الرجاء
یقذف الشـــوق بها فی مائج بین لجـــین عناء وشقاء
شدة تمضی ، وتأتی شـدة تقتفیها شدة ، هل من رجاء ؟
ساعفی آمال أنضاء الهـــوى بقبول من سجایاك رخاء
وتجلی ، واجعـــلی قوم الهوى
تحت عرش الشمس فی الحکم سواء
أقبلی نستقبل الدنیا وما ضمنته من معدات الهناء
واسفری تلك حلی ماخلقت لتواری بلثـــام أو خباء
واخطری بین الندامی یحلفوا أن روضا راح فی النادی وجاء
وانطقی ینثر إذا حـــدثتنا ناثر الدر علینـــا ماتشاء
وابسمی من کان هذا ثغره یملأ الدنیا ابتساما وازدهاء
لاتخافی شططا من أنفس تعثر الصبوة فیها بالحیاء
راضت النخوة من أخلاقنا وارتضی أخلاقنا صدق الولاء
فلو امتـــدت أمانینا إلى ملك ماکدرت ذاك الصفاء
أنت روحانیـــة لاتدعی أن هذا الحسن من طین وماء
وانزعی عن جسمك الثوب یبن للملا تکوین سکان السماء
وأری الدنیا جناحی ملك خلف تمثال مصوغ من ضیاء

ومع ذلك ففیها تکلف وصنعة وابتذال کثیر(١) .

---

(١) راجع عن صبری : کتاب « أدب وتاریخ » للدکتور محمد صبری وفی مجلة أبولو لسنة ١٩٣٤ مقال للشاعر أحمد محرم عن صبری ، وراجع کتاب « شعراء مصر » للعقاد .

أمير الشعراء أحمد شوقى

١٨٦٨ — ١٩٣٢ م : ١٢٨٥ — ١٣٥١ هـ

— ١ —

كان شوقى شاعر مصر والعروبة والإسلام ، وشاعر القومية العالية التى ضرب على أوتارها ، فهزت الشرق العربى وأيقظته من سبات ، وإذا كان رواد النهضة الأدبية فى القرن التاسع عشر : كأمين الجندى، وبطرس كرامة وناصيف اليازجى، وعبدالغفار الأخرس، ونجيب الحداد، وإبراهيم الأحدب، وعلى الليثى ، ومحمود سامى البارودى ، وخليل الخورى اللبنانى ، وسواهم ، قد رفعوا الأدب العربى عما كان عليه فى عصر الانحطاط ، فنزعوا عن الشعر أطماره البالية ، وألبسوه حللا قشيبة من البيان والمعانى ، فإن شوقياً وأضرابه قد نهضوا به نهضة فعالة ، وجعلوا من الشعر العربى فناً جديراً بخطره وتاريخه العريق ، كان شوقى صناجة مصر والعروبة والإسلام فى العصر الحديث ، عقل كبير تفيض منه الحكمة ، وقلب كبير يشع منه الحب ، وخيال لطيف خصب يصور آلام العرب ، وآمالهم ، وماضيهم ، وحاضرهم ،أبدع تصوير. وكان شوقى أنضج شعراء طبقته ، وأدقهم تعبيراً ، وأبدعهم بيانا .

— ٢ —

ولد أحمد شوقى بك بن على شوقى بالقاهرة ونشأ فيها . وقد حدث عن نفسه فى مقدمة الطبعة الأولى لديوانه (الشوقيات) قال : « سمعت أبى يرد أصلنا إلى الأكراد فالعرب ، ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والى مصر محمد على . . . فأدخله الوالى فى معيته ، ثم تداولت الأيام ، وتعاقب الولاة الفخام . وهو يتقلد المراتب العالية ، ويتقلب فى المناصب السامية ، إلى أن أقامه سعيد باشا أمينا للجمارك

المصرية » : ثم ذكر طرفاً من سيرة جده لوالدته إلى أن قال عن نفسه : « أنا إذن عربي ، تركي ، يوناني ، جركسي » .

وقد كفلته من المهد جدته لأمه ، وكانت في يسر ونعمة ، على حين أتلف أبوه ماورثه ، وكانت جدته من وصائف قصر الإمارة في عهد إسماعيل . قال : حدثتني (يريد جدته) أنها دخلت بي على الخديوي إسماعيل ، وأنا في الثالثة من عمري ، وكان بصري لا ينزل عن السماء لاختلال أعصابه ، فطلب الخديوي بدرة من الذهب ، ثم نثرها على البساط عند قدميه ، فوقعت عينه على الذهب فاشتغل بجمعه واللعب به ، فقال لجدتي : اصنعي به مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يامولاي قال : جيئي به متى شئت . . ودخل شوقي المدارس(١) :

(١) دخل شوقي مكتب الشيخ صالح عام ١٨٧٣ ؛ ثم دخل المدرسة الخديوية ، ثم الحقوق عام ١٨٨٠ ، وسافر إلى أوربا أواخر عام ١٨٨٩ وعاد منها في أكتوبر ١٨٩٣ — ونفي إلى أسبانيا عام ١٩١٥ وعاد إلى وطنه أواخر عام ١٩١٩

وفي فبراير سنة ١٨٩٧ سأله سليم سركيس عن حياته فأجابه بأنه وفق لنظم الشعر في الرابعة عشرة من عمره وأن أستاذه يومئذ كان الشيخ حسين المرصفي ، وعليه قرأ الكشكول والبهاء زهير . وقال إنه كان عظيم الكلف بقراءة كتب الآداب الفرنسية وعلى الأخص فكتور هوجو ، وموسيه ولامرتين . وقد نقل بعض المقطوعات إلى اللغة العربية كقول هوجو في الجنائز :

أرى زمراً مشيعـــة وأسمع أيما صـــوت
ولو عقلوا لما فعلوا جلال الموت في الموت

وكقوله يصف ظلمة المستقبل في أواخر أيام نابليون الثالث :

سل الليل هل أضمر الغدر أم لأمر سوى الغدر يستجمع

. . . .

ظلام أناخ بلا كوكب يضىء ولا بارق يلمع

وكقوله فى الحض على حب الأطفال ورحمتهم :

أولى البيوت بغابط أو حاسد بيت يضم صغيرة وصغيرا

وقد نشرت كل هذه الأبيات فى الطبعة القديمة من الشوقيات ولكن دون إشارة إلى أنها معربة .

وقد ذكر البيت الأخير آخر أبيات نظمها شوقى على لسان البكوات المماليك مطلعها :

إن الذى رزق المماليك الغنى وحباهم ملك البـــلاد كبيرا
لم يعطهم من نعمة الأولاد ما أعطى الخلائق مثريا وفقيرا

وقد ألف شوقى رواية « على بك الكبير » وهو نزيل باريس فى أكتوبر سنة ١٨٩٣ ، ورواية « عذراء الهند » سنة ١٨٩٧ ورواية « لادياس » سنة ١٨٩٩ ، ورواية «دل ويتمان أو آخر الفراعنة» وقدنشرتها مجلة (الموسوعات لصاحبها حافظ عوض سنة ١٨٩٩ - ١٩٠٠ بعد نشرها رواية (لادياس) ، ورواية « شيطان بنتاؤر» وقد نشرتها (المجلة المصرية) لصاحبها خليل مطران سنة ١٩٠١ - ١٩٠٢ ، ورواية « ورقة الآس » وقد ظهرت سنة ١٩٠٤ ، وصدر الجزء الأول من « الشوقيات » وعليه تاريخ سنة ١٨٩٨ ، والتاريخ الموضوع على غلاف الديوان هو تاريخ بدء الطبع لأن الديوان لم يتم طبعه ويصدر إلا فى مارس سنة ١٩٠٠ ، وقد ظهرت له طبعة ثانية دون أى تعديل سنة ١٩١١ ،وأهم ما اشتمل عليه الديوان همزيته الكبيرة التى تسرد كبار حوادث وادى النيل ، وكانت مما ألقى فى المؤتمر المشرقى الدولى الذى انعقد فى جنيف فى شهر سبتمبر عام ١٨٩٤ ، والثانية (صدى الحرب فى الوقائع العثمانية =

وتخرج من الحقوق ، وألحقه الخديوى توفيق بمعيته ، ثم أشخصه على نفقته إلى فرنسا ليدرس الحقوق والآداب الفرنسية ، على أن يقضى عامين فى مدينة « مونبلييه » وعامين فى باريس . حتى إذا أحرز الشهادة النهائية رأى توفيق أن يظل فى فرنسا ستة أشهر أخرى ففعل ، وعاد بعدها إلى مصر

= اليونانية) التى نظمها سنة ١٨٩٧ ، وهاتان القصيدتان وغيرهما من القصائد لم تنشر فى حينها فى الصحف ، ولكنها طبعت على حدة فى كراسات صغيرة ، ويشمل الجزء الأول شعره من ١٨٨١ حتى ١٨٩٨ .

وأخرج « الشوقيات » ـ الطبعة النهائية الكاملة ـ فصدر الجزء الأول منها فى مايو سنة ١٩٢٦ ، والثانى فى سنة ١٩٣٠ ، والثالث (المراثى) فى سنة ١٩٣٦ بعد وفاة شوقى ، والرابع فى سنة ١٩٤٢ ، ولشوقى كتاب « أسواق الذهب » وهو نثر مسجوع جارى به شوقى الكتاب القدماء ، وقد ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٣٢ (الهلال) ، والثانية سنة ١٩٥١ .

وللشاعر شوقى كذلك كتاب « دول العرب وعظماء الإسلام » وهو ملحمة شعرية تاريخية طبعت بعد وفاته سنة ١٩٣٣ .

أما رواياته المسرحية ، فقد ظهرت الطبعة الأولى لرواية « مصرع كليوباترا » فى إبريل سنة ١٩٢٩ فكان لها دوى فى عالم الأدب ثم تبعتها رواية « قمبيز » فى سنة ١٩٣١ والطبعة الثانية من رواية « على بك الكبير » (مع تعديل جوهرى فى الطبعة الأولى) فى مارس سنة ١٩٣٢ وذلك بمناسبة انعقاد مؤتمر الموسيقى الشرقية فى القاهرة ، وظهرت رواية « مجنون ليلى » فى سنة ١٩٣١ ، ورواية « عنترة » ، وأميرة الأندلس سنة ١٩٣٢ ثم رواية « السيدة هدى » التى مثلت مرارا فى الإذاعة وغيرها وطبعت أخيرا طبعة عادية ، ورواية « البخيلة » التى لا تزال غير مطبوعة .

وتولى منصبه فى معية الأمير ، وفى سنة ١،١٩٦ م ناب عن مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف من أعمال سويسرا .

وما برح شوقى يتدرج فى المناصب حتى تولى رياسة القلم الإفرنجى فى المعية الخديوية ، ولما نشبت الحرب الكبرى أزيل عن منصبه ، ثم رؤى له أن يغادر البلاد ، فاختار برشلونة من أعمال أسبانيا مثوى له ولأسرته . ولم يؤذن له فى العودة إلى مصر إلا بعد أن استقر السلام ، وانتهت الحرب العالمية ، وكان أكبر منصب سما إليه شوقى فى معية الخديوى هو رياسة القلم الإفرنجى ، على أن نفوذه وسلطانه تجاوزا شأن هذا المنصب إلى حد بعيد ، فلقد نال من الحظوة عند ولى الأمر مالم ينله من قبل أحد ، فكانت داره ، (كرمة ابن هانىء) مثابة طلاب الحاجات ، ومورد المستشفعين من كل ناحية ، صغار الناس وكبارهم فى هذا بمنزلة سواء ، فلقد كانت إشارته حكما ، وطاعته عند أكثر الحكام غنما .

وفى سنة ١٩٢٧ عقد فى مصر مؤتمر لتكريمه اشترك فيه كثير من رجالات مصر وعلمائها وأدبائها ، وحضر إليه عدد غير قليل من أدباء الأقطار العربية ، وبويع بإمارة الشعر وسلم لواءه ، وعاش ماعاش مبجلا عالى الاسم رفيع المنزلة ، إلى أن قبض إلى رحمة الله تعالى ، فأقامت له وزارة المعارف بالاشتراك مع طائفة من أهل الفضل والأدب حفلة تأبين دعت إليها كبار العلماء والأدباء فى الأقطار العربية ، وقد أقيمت هذه الحفلة فى دار الأوبرا فى شهر ديسمبر من السنة التى قبض فيها .

وكان عطوفا شديد العطف ، رحيما كثير الرحمة ، ينفر من ذكر المآسى ويفر من رؤيتها ، على أنه مع هذا قد راض نفسه على الصبر على المكروه ، ودربها على الرضا بالقضاء واقعا حيث وقع ، ولعل أوجع ماشكى فيه قوله :

أحرام على بلابله الدو
ح حلال للطير من كل جنس ؟

وقد قاله وهو منفى من وطنه ، وهو الذى يقول فى هذا الوطن من القصيدة نفسها :

وطنى ، لو شغلت بالخلد عنه　　　نازعتنى إليه فى الخلد نفسى !

وهو بعد هذا شاعر بأجمع معانى الكلمة ، يكلف بفنه إلى حد الافتتان ، بل إنه لايكاد يرى الرجل كل الرجل يتمثل إلا فى الشاعر ، ولا يرى للحياة فى جميع صورها غاية إلا قرض الشعر ، ويعبر عن اعتزازه بالشعر وبشاعريته قوله :

جاذبتنى ثوبى العصى وقالت :　　　أنتم النـــاس أيها الشعراء !

ولقد كان إلى هذا شديد التمكن من نفسه حتى لايرى فى الدنيا شاعراً يباريه ، أو يتعلق بغباره .

— ٣ —

كان للعنصر وللدم دخل فى توجيه شاعرية الشاعر ، وتكوين عقليته ، وكذلك البيئة والثقافات التى حصلها ، وسمو منزلة الأدب ورفعة مكانة الأدباء فى عصره ، وتلمذته على أئمة الأدباء وعلى شعر البارودى ، وإسماعيل صبرى وعبد الله فكرى .

وكان أعلام الشعراء قبله هم : عبد الله فكرى ، ومحمود سامى البارودى ، وإسماعيل صبرى ، فدلته الموهبة عليهم ، وعدل من فوره إلى احتذائهم ، وانتهاج طريقهم فى تجويد الشعر ، باصطفاء اللفظ ، وإحكام الصياغة ، والاحتفال للمعانى ، وعدم استهلاكها فى سبيل البديع ، صنع أكثر من يقوم فى العصر من الشعراء .

وكان فى صدر شبابه كلما قرض قصيدة أو نظم مقطوعة من الشعر ، عرضها على إسماعيل صبرى ، وهو شاعر قد بلغ الغاية من دقة الذهن ، وكمال الذوق ، ورهافة الحس .

وقد قرأ شوقى ، فوق هذا ، للشعراء القدامى وتأثر بهم ، ومن بينهم : أبو نواس ، وأبو تمام ، والبحترى ، والمتنبي ، وقد ظهر أثرهم على شعره ، فكان أثر كل منهم فيه بينا. وإنك لتلمح فيه حلاوة أبى نواس ودقة وصفه، وتصرفه فى فنون الغزل ، وإشادته بمجالس اللهو ، وافتنانه فى الخمريات ، كما تلمح فيه احتفال أبى تمام للمعانى الرفيعة والارتصاد لإصابتها مهما جشمه ذلك من إعنات اللفظ وجلجلة الصياغة. وتلمح فيه غنائية البحترى ، وإحكام نسجه ، وبراعة نظمه ، أما أثر المتنبي فى شعره ففيما ترى من شيوع الحكمة والإكثار من ضرب المثل .

ومن الأسباب التى أثرت فى شوقى وشاعريته حذقه اللغة الفرنسية ، وسعة اطلاعه فيها على أدب الغرب .

وكذلك من العوامل التى لها أثر واضح فى شاعرية شوقى نشأته فى بيت الملك ، ومقامه فى بطانة الأمراء، ودخوله فى أدق الأسباب السياسية فى مصر .

وكذلك سياحاته الكثيرة فى بلاد الغرب ، وفى بلاد الشرق القريب ، ومخالطته لأصناف الناس ووقوفه على طباعهم وأخلاقهم ومأثور عاداتهم ، وما تجلى له من صور الطبيعة فى كل مكان ، وغير ذلك مما لا يتهيأ لكثير من الشعراء . كل هذا كان له أثره فى شعره وشاعريته ؛ وشوقى يعد ، بحق ، من أقطاب الشعراء فى العالم العربى كله ، بل إن بعض النقاد ليتخطى به القرون فيصله بأعلام الشعراء فى أزكى عصور العربية وأنضرها بيانا ، ولقد تصرف شوقى فى كل فن ، وجال فى كل غرض ، وأصاب من كل مطلب ، فبذ وبرع ، وعارض متقدمى الشعراء ومتأخريهم فما قصر ولا تخلف ،وما أكثر ما اخترع شوقى من المعانى؛ على أن ما سبق به قد نفخ فيه من روحه تجديداً فى سبكه ، ولقد ظل أمداً يرسل غالى الشعر . ما وقع فى البلد من حدث

إلا جلجل بالقريض ، ولا كانت الحلى فى بلد من بلاد العالم إلا نظم ما تنهر دونه أنفاس الشعراء(١) .

وغنائية شوقى التى تضارع فن البحترى مشهورة معروفة ، وانظر إلى قوله من قصيدته « لبنان » :

دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل
فأتيت دون طريقه فزحمته
فازور غضبانا وأعرض نافراً حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابى إلى أترابه وزعمتهن لباتتى فأغرته
فمشى إلى وليس أول جؤذر وقعت عليه حبائلى فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادنى وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرت به على حرم الهدى لابن البتول وللصلاة وهبته

ولما بويع بإمارة الشعر تجلت عبقريته وبدت روائعه فيما نظم من القصائد ومن الروايات التى ردت إلى الشعر العربى نضارته .

ولشوقى مهارة فنية خارقة تعتمد على الفكر العربى والحياة العربية قبل

---

(١) يقع ديوان شوقى فى أربعة أجزاء ، وله غير الشعر كتاب (عظماء الإسلام) ، وله فى النثر كذلك : كتاب (أسواق الذهب) جارى فيه الزمخشرى رحمه الله فى كتابه (أطواق الذهب) وله روايات شعرية وهى : على بك الكبير ، وكليوبترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعنترة . وروايات أخرى نثرية منها : لا دياس ، وورقة الآس ، ومذكرات بنتاؤر ، وأميرة الأندلس .

وقد جمع الدكتور محمد صبرى قصائد شوقى التى لم تنشر ، وطبعها فى جزءين . .

كل شيء ، ولقد استطاع أن يذلل ناحية اللفظ الشعرى والأسلوب الموسيقى إلى حد كبير .

وكان شوقى فى أول حياته يصرف عنايته إلى المعانى ولا يحفل كثيراً بالمبانى ، كان حافظ على عكسه فكان لكل منهما أنصار ، ولكن لما عاد شوقى من منفاه جزلت عبارته ونخمت صياغته ، وراع أسلوبه ، ففاق حافظاً فى اللفظ والمعنى .

وسئل حافظ فى ذلك فقال : كان شوقى قليل البضاعة فى الشعر العربى واسع الاطلاع على الشعر الإفرنجى ، فلما كان فى منفاه بالأندلس عكف على قراءة دواوين فحول الشعراء ، وكشف كنوزها ، وعلق عيونها ، فأصبح جامعاً للمزيتين حائزاً للفضيلتين .

وكان يطيل القصائد دون إسفاف أو ضعف ؛ حتى لقد تبلغ القصيدة مائة بيت أو تزيد ، وقصيدته فى (كبار الحوادث فى وادى النيل) بلغت نحو ثلاثمائة بيت أكثرها جيد بارع ، على أنها من شعره فى مرحلة الشباب .

وقد حاول بعض الأدباء أن ينال من شاعرية شوقى أمام حافظ فاحتد حافظ عليه وقال : كلا . . . لا تكونوا خبثاء أو جهلاء ، والله إن شوقى لشاعر ، وإنه لأشعر منى . وما كفرت بهذه الحقيقة فى شبابى وكهولتى ، ولا أريد أن أكفر بها فى شيخوختى ، وأود أن يعرفها الناس بعد مماتى .

وحافظ هو الذى قال فى مبايعة شوقى بإمارة الشعر :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولكننا نقرأ فى « ليالى سطيح » لحافظ كلاما تناول فيه ديوان الشوقيات الأول ، ولقده نقداً لاذعا ، فقال : « بربك ماذا رأيت فيها من الآيات ، وما جاء به صاحبها من المعجزات ، اللهم إلا ما يتباصر به علينا من تلك المعانى الغربية التى ماسكنت فى معنى عربى إلا وذهبت بروائه(١) » .

ثم يقول عن شوقى(٢) : إنه لايزال مهزول اللفظ، غامض المعنى ، يحتاج الناظر فى كلامه إلى تخوت الرمل ، وطوالع التنجيم ، وقد قصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها ، حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره، وإن طريقته فى شعره أن يغير على صحائف الأولين، ومعانى الشعراء السابقين ، فهو لم يغادر معنى فى خدره إلا سباه . ولا لفظا فى وكره إلا أزعجه . .

ولعل السبب فى ذلك أن حافظا لمــا أنعم عليه برتبة (البكوية) ورأس شوقى حفل تكريمه لم يهنىء حافظا ولو ببيت من الشعر . واشتدت الجفوة آنذاك بين الشاعرين .

ولاذ حافظ بالشيخ محمد عبده ووجد فيه خير عون ، وأكبر مشجع ، حتى إذا افتقده سنة ١٩٠٥ بكاه بكاء حارا ، وبكى حظه الذى ذهب بذهابه ، وراح يشكو الزمان الأبله ، ويألم من صديقه شوقى ، بل راح يخاصم أصدقاءه : كالسيد مصطفى لطفى المنفلوطى الذى كان ينافح عن الشوقيات ، وزعامة شوقى بين شعراء العربية ، ولما مات المنفلوطى رثاه حافظ بأبيات لاتتجاوز العشرة ، وليس فيها من ألم الفجيعة مايليق بهذا الأديب الكبير .

ولمــا أصدر المازنى والعقاد كتابا فى النقد باسم « الديوان » كان الغرض

---

(١) ٨٢ ليالى سطيح — طبعة كتاب الهلال الشهرى .
(٢) صـ ٨٥ المرجع نفسه

من هذا الكتاب كما يقول المازنى (١) أن نشرح للناس مذهبنا الجديد فى الأدب، بنقد المعاصرين وبعرض نماذج للأدب كما ينبغى فى رأينا أن يكون . ولم يتيسر لنا أن نصدر غير جزين ، وكان العزم أن نجعله فى عشرة أجزاء كما أعلنا ، وفى هذين الجزءين تولى الأستاذ العقاد نقد شوقى وكتب فصلا مرا عن الرافعى ، وتولى المازنى نقد المنفلوطى .

وشوقى كان فى صدر حياته أشعر منه فى أخرياتها ، ولكنه فى العهد الاخير كان أبلغ عبارة ، وأعلى بياناً ، وكان ذا حيوية عجيبة . من ذلك أنه اقتنع فى شيخوخته بأن نظم القصائد على الطريقة القديمة التقليدية عبث وباطل ليس يجدى ، فتحول إلى وضع الروايات الشعرية التمثيلية ، وطمح أن يكون فى الأدب العربى ، كشكسبير فى الأدب الإنجليزى ، ولايسعنى إلا أن أجل هذه الحيوية فى شيخوخته ، وهذا الاجتهاد المضنى فى سن عالية ، وتلك الغيرة الرائعة على شعره ومكانته وسمعته ، ولم ينقطع عن نظم القصائد المألوفة ، ولكنه صار عظيم الاهتمام بالشعر التمثيلى .

وشوقى مدين لخليل مطران بأكثر مما يعرفه الناس ـ ولا سيما فى صدر حياته ـ فإن خليل مطران هو أول من أدخل شيئاً من التجديد على الشعر فى مصر . تبعه شوقى حينا ، ثم صرفه مركزه الرسمى فى بلاط الخديوى عباس ، عن مواصلة الاتباع ، ثم ظهرت مدرسة شعراء الديوان ودعت إلى التجديد فى الشعر لحاول أن يساير زمانه بالتحول إلى الشعر التمثيلى ، ولا عيب فى شعره هذا من حيث إنه شعر ، وإنما العيب فى القصة نفسها وفى طريقة عرضها ، أى فى الفن التمثيلى لا النظم .

وكان شوقى يختلف أسلوبه باختلاف الفرصة التى ينظم فيها ، والموضوع الذى يتناوله ؛ فله فى الغزل والوصف رقة مهيار والبحترى ، وفى الحماسة

---

(١) من مقال لإبراهيم عبد القادر المازنى ـ مجلة الهلال .

والمدح جزالة أبي فراس والشريف الرضي ، وفي الأدب والحكمة عمق أبي تمام والمتنبي ، ومازال شوقي يطالع الأمة العربية والعالم الإسلامي أكثر من أربعين عاما بروائع شعره حتى اختاره الله لجواره في ١٣ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هـ — ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م .

— ٤ —

وقال شوقي الشعر في أغراضه القديمة ماعدا الهجاء، فقد كان عف اللسان على أنه ابتكر الشعر المسرحي التمثيلي بصورته الكاملة في مصرع كيلوباتره ومجنون ليلى وغيرهما ، وأكثر من الشعر السياسي والاجتماعي والتاريخي ووصف الآثار المصرية ، وهو في ثنايا ذلك ينثر الحكم الخالدة ، داعياً إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة والتحلي بالثقافة ، والتسابق إلى المجد ، وقوة الجيش ووحدة الأمة الخ . ذلك عدا قصائده في الوصف والرثاء والمدح والغزل ، وفي الموضوعات الاجتماعية والسياسية .

ويغلب على نسيب شوقي روح الوصف ، والألفاظ ومتانتها وضخامتها هي عنده الألوان التي يبرز بها صورته للناس ، سواء في النسيب أم في سواه من أغراض الشعر وفنونه ، بعكس صبري ، فكانت ألفاظه عذبة حلوة موسيقية جميلة ، وكأن الروح المتصل في شعره هو النغمة الموسيقية الحلوة التي تطرب لها حتى في القصائد التي يكلف الشاعر نفسه فيها أن يكون حماسيا، كقصيدة فرعون وقومه .

وشوقي في الوصف في نسيبه مبدع في الدقة متقن في تخير الألفاظ التي تبرز الصورة التي يريد وصفها واضحة قوية من غير أن يتحرى النغمة الموسيقية للألفاظ ، ومن غير أن يحرص على سهولتها وسلاستها كما في قصيدته « مال واحتجب » مثلا .

وهو في نسيبه لم يكن ينطق عن عاطفة قوية صحيحة ، بل كان ينظر إلى النسيب كفن خالص فهو الذي يقول :

فقالت للمجد أشعارى مسيرة
وفى غوانى العلا لا فى المها وطرى

وشأن شوقى شأن سواه من الشعراء المحدثين الذين ينطقون بالغزل فنا لاعاطفة ؛ ومن قصائد شوقى فى النسيب قصائد خالدة مثل :

مضناك جفـــاه مرقده وبـكاه ورحم عوده

التى عارض بها قصيدة الحصرى المشهورة .

أما مدحه فـكان الـكثير منه فى آل محمد على وفى الخلفاء العثمانيين ويؤخذ عليه تأييده لتوفيق الذى خان بلاده ، واصلته بتوفيق مدحه وذم عرابى وحزبه ، ومن ذلك قوله :

تبينت عن قرب صفات محمد تبين حسان خلال النبوة
هو المالك المصرى طبعاً وإن يكن له نسب عال به الترك عزت
رعى الله يوما أشرقت فيه مصر عن
سنا وجـــه توفيق بأيمن غرة
ويوما سما فيه فتاها محمد إلى عهد إسماعيل بالأولوية
ويوما تناهت فيه عليا مليكها إلى غرة التيجان بدر الأسرة
ويوما أمد الله فيه محمـدا بأشرف نصر غب أشرف هجرة
على عصبة عمى القلوب تعوضوا عن المالك ابن المالـكين بسوقة
كشيعة موسى غاب عنها لياليا فلما تولى رعيها العجل ضلت

— ● —

وكان شوقى من أظهر أعلام مدرسة البارودى ، ولـكنه فاق أستاذه ، وقد ظهر البارودى فى طليعة النهضة الحديثة حاملا لواء الشعر ، وتبعه من بعده شوقى ، وإسماعيل صبرى ، وحافظ ، والزهاوى ، والرصافى ، ومطران ،

وشكرى ، والعقاد ، والمازنى ، وأبو شادى ، ومحرم ، وغيرهم ، فنهضوا بالشعر وأدخلوا فيه فنونا جديدة : كالشعر التمثيلى ، والشعر القصصى ، ووصف مظاهر المدنية الحديثة ، ووصف آثار المدنية القديمة ، وعنوا بالناحية الاجتماعية والوطنية ، فوصفوا المجتمع المصرى ، وحاولوا ان يعالجوا عيوبه ، كما وصفوا ما توالى على مصر من حوادث جسام .

وهؤلاء قد أعادوا للشعر العربى شبابه وجماله من حيث روعة الأسلوب وجمال الفن ، وتعدد الموضوعات ، وقد أدخلوا كثيراً من الأساليب الأوربية والمعانى الأجنبية بعد صقل وتهذيب . فخطوا بالشعر خطوات موفقة ، وكان لهؤلاء القادة فضل كبير فى فتح أبواب جديدة للناشئين من الشعراء المعاصرين الذين تتلمذوا عليهم .

ويمتاز شوقى فى رواياته التمثيلية بالجدة والابتكار والذهن الفنى الرفيع ، ولا نعرف أحداً يدنو من شوقى فى هذا المضمار . فرواياته معرض لتحف شعرية نادرة ، وهى فى غاية ما يكون من حسن التناسق والتآلف ، فليست هى خاطراً ناشئاً عن مؤثر خاص كحج الخديوى مثلا ، أوكنوز توت عنخ آمون ، أوسقوط عبد الحميد ، أوضرب الشام ، بل هى مظهر لملكات شاعر موهوب وفنان أصيل .

— ٦ —

ويختلف النقاد حول مجدد الشعر فى هذا العصر فقال جماعة : إنه البارودى بلا منازع . وقال آخرون : إن الشعر لم ينل حظه من التجديد إلا عند شوقى . على أن للبارودى وشوقى آثاراً تجديدية فى الشعر العربى لا يمكن إنكارها : ونحن نعرض الرجلين فى ضوء المنهج النقدى لنحكم لهما أوعليهما . مقررين مالكل من آثار فى التجديد .

استفاد البارودى من الشعر الجاهلى والعباسى فاطلع عليه وقرأه فى تضاعيف

كتبه ، وقد كان الشعر العربى فى هذا العصر مقبوراً مهجوراً ، وكان الشعراء فى ذلك العصر لا يعنون بدراسة روائعه أو الانتهال من بحاره الزاخرة ومنابعه الأولى ، فجاء البارودى واستطاع بثاقب فكره وثقافته الواسعة أن يبعث الشعر القديم من مرقده وأن يخرجه من مكمنه ، وبذلك أعاد للشعر سابق صولته ، وأهدى إليه عنفوانه وقوته ، ويكفينا دليلا على ذلك ما نقرؤه فى ديوانه من قصائد فى الفخر ومقطوعات فى الرثاء ونتف فى الغزل وشذرات فى الوصف ، استطاع بها أن يكون أكبر مقلد للقدماء وأعظم مجود لأغراضهم بعد أن مضت عليهم عصور سحيقة وأزمان طويلة .

جارى البارودى القدماء ، ومع ذلك فلم يكن فى تقليده بالضعيف ولا الواهن ذلك لأن الصبغة التقليدية كانت قوية فى نفسه ، فامتدت عدوى التقليد من طريقة التفنن فى الأغراض إلى عناصر القصيدة نفسها . فتراه يقتفى آثار الجاهليين ـ فى صناعة الشعر : فهو يبدأ قصائده بالغزل كما يبدأونها ، وينطلق فى عناصر القصيدة ولا ينسى فيها الفخر بنفسه ، كما كانوا لا ينسون أنفسهم .

ونحن لا نعتبره مقلدا صرفا لسببين :

أولهما : الإجادة فى أغراضه ومطابقتها لواقع الحياة .

وثانيهما : أن نفسه ـ لما فيها من استعداد الموهبة ، ولما يحيط بها من عوامل مؤثرة ـ أشربت أساليب هؤلاء الشعراء حتى صارت طريقة البارودى أشبه بمشاعر الجاهليين المنبعثة من النفس بلا قصد مكروه وبلا تكلف ممقوت .

ومن هنا نذهب إلى أن البارودى بعث الشعر القديم من رقدته وإن لم يجدد فيه كل التجديد .

فماذا فعل شوقى ؟ حين تقرأ لشوقى تحس أن التجديد قد بدأ واضحا فى شعره ، ذلك لأنه استطاع أن يتحلل من قيود الشعر الجاهلى ومن تقاليده

العتيقة ، فهو لا يبدأ القصيدة بالغزل كما بدأ القدماء وفعل البارودى ، وهو لا يجعل الفخر منتهى همه ومبلغ مزاجه الأدبى كما فعل أسلافه ، بل يضرب المثل بإجادته فى ألوان الشعر جميعاً ، وهو فى ذلك فضلا عن تحرره مبتدع . أمين على أساليب الشعر ، فهو يسير فى « وحدة القصيدة » على طريقة قويمة — يرتضيها المحدثون — فلا يقسم القصيدة أجزاء مفككة لا تآلف بينها ، وتستطيع أن تلمس ذلك فى وصفه « لحادث دنشواى » فهو حين تحدث عنه تكلم عن كل ما يتصل بهذا الحادث ؛ ذكر الحادث ، وذكر شهداءه ، وذكر ماقاساه أبناء دنشواى من استعباد ، وما جر إلى ذلك من ويل وثبور وتنكيل بالمظلومين . . .

يادنشواى على رباك سلام ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهلة ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها بعد البشاشة وحشة وظلام

فأنت ترى كيف وصل ما بين الأبيات فى موضوع واحد هو « دنشواى » وهكذا إلى آخر هذه القصيدة ، لا يكاد يخرج عن الموضوع قيد أنملة ، كما أننا لا ننسى أن فى شوقى عنصراً خطيراً آخر من عناصر التجديد هو ما أضافه إلى قيثارة النغم من الشعر التمثيلى — فقد استطاع شوقى بحسن ثقافته ، وسعة اطلاعه ، وبراعة تذوقه الأدب ، أن ينقل إلى الشعر العربى لوناً جديداً من ألوانه ، وأن يطعمه بهذه التمثيليات التى تمد عنصرا جديداً فى الشعر العربى ، وقد كاد يكون خلواً منها ، اللهم إلا شذرات وخطرات جاءت فيه عفوا وهى شاذة ، هذه التمثيليات قائمة على الحوار الشعرى ، ومنها تمثيلية « كليوباترة » و « على بك الكبير » و « مجنون ليلى » و « عنترة » وغيرها وهذه الميزة التى استنها شوقى لا تزال سنة يحتذيها الشعراء من بعده مكثرين

ومقلين وخاصة المجيدين منهم إن البارودى استطاع أن يبعث الشعر العربى من رقدته الطويلة ، بينما استطاع شوقى أن يجدد فيه حتى ساير الشعر الغربى الحديث فى كثير من شعابه ونواحيه .

— ٧ —

وكان شوقى صاحب بيان ؛ نضر الله به صفحة الأدب ، ولغة العرب وحفظ به تراث الإسلام والمسلمين . كان صوتا قويا من أصوات العروبة ، وسيفاً مجلواً ينتضى للذياد به عن العرب ، والدفاع عن الإسلام . كان حبه كله لبلاده وإخلاصه كله لدينه . وقصائد شوقى وفرائده فى الإسلام وتاريخه ومآثره ومفاخره ، وفى الاعتزاز بكتابه الخالد ، وبلغته المبينة الفصيحة ، ورسالته فى القديم والحديث ؛ ظلت وستظل منهلا عذبا ينهل منه الواردون والظامئون ، ويأخذ الحكمة منه السابقون عن أتوا بعده واللاحقون .

إن أمير الشعراء سبق جيلنا فى الدعوة إلى بناء الحاضر الممتد لشعوب الإسلام على أساس قوى من تراث العربية وثقافتها وماضيها ؛ وفى المناداة بوحدة الشعوب الإسلامية والعربية وإخائها ؛ وفى تعظيم شأن العرب وقوميتهم ؛ وفى الدعوة إلى اشتراكية الإسلام السمحة ، بما تحتوى عليه من حب وعدل ومساواة وإخاء ومثل عالية رفيعة ؛ وهنا نتحدث عن آراء شوقى وآياته الخوالد ، فى كتابه « دول العرب وعظماء الإسلام » الذى نظمه فى منفاه بالأندلس ، إبان الحرب العالمية الأولى ، والذى قصره على الحديث عن تاريخ الإسلام وبطولات أعلامه الخالدين ، وقد طبع الكتاب لأول مرة فى القاهرة عام ١٩٣٢ بعد وفاة شوقى بعام .. وكله من بحر الرجز العذب المستساغ .

يقول شوقى فى مقدمة هذا الكتاب أو الديوان على حد سواء ، مشيراً إلى الحرب العالمية الأولى ، ويذكر تأليفه لهذا الديوان فى منفاه :

لما رمى الله بهذى الحرب   على بنى الشرق وأهل الغرب
تحركت سواكن الأقدار   واطردت عوامل الأكدار
وحكم الله بهجرة الوطن   وطالما ابتلى بها أهل الفطن
فكنت أستهدى على الهموم   بنات فكر ليس بالمذموم
حتى أراد الله أن نظمت   من سير الرجال ما استعظمت
واخترت بحراً واسعاً من الرجز
قد زعموه مركباً لمن عجز
يرون رأياً وأرى خلافه   الكأس لاتقوم السلافة
وقيمة اللؤلؤ فى النحور   بنفسه وليس بالبحور
شعر لزمت فيه مالا يلزم   وتركه أليق بى وأحزم

وهو هنا يشير إلى مجمل منهجه فى هذا الديوان من حيث الموضوع والشكل ؛ وإن كان لم يستطع كل الإفصاح عن قيمة أعماله الفكرية أو الأدبية ، أو الفنية على السواء ، وقد يكون مبعث ذلك أن الشاعر غير الناقد ، وأن حديث الشاعر عن شعره قلما يكون ذا قيمة نقدية كبيرة ، وعلى الجملة فطلاوة ديباجة شوقى ، وعذوبة أسلوبه هنا أكبر من مغزى كلامه ومعناه .

ولسوف نتناول بعض آراء شوقى فى هذا الديوان بالدراسة والتحليل والنقد ، لأهميتها ولأهمية الديوان معاً ؛ إذ انه من أروع مايمكن أن يكتبه شاعر ليقرب التاريخ إلى عقول الناس ، وليتخذ منه مادة لأدبه ، وموضوعا لشعره .

ويحتوى الديوان على قصيدة عن العربية عنوانها « لغة العرب » مجد فيها شوقى لغة القرآن وعذوبتها وفصاحتها ، وأشار إلى أطوار تهذيبها ، ونزول القرآن بها ، وحملها لرسالته وثقافته وحضارته ، واستعارتها من فارس واليونان ما استعارته من معرب منقول ؛ ودعا الشباب العربى فيها

إلى التزود من ثقافات العرب والعربية بكل جليل ومفيد داعيا إلى ترك الزيف من دعوات الداعين لهدم تراثنا ، والانقضاض على قديمنا ، وإلى الأخذ بطرف من كل جديد مفيد، وإلى الإقبال على القرآن والحديث إقبال المستفيد المسترشد لما فيها من حكمة وأدب وبلاغة .

يقول شوقي - فيما يقول - من هذه القصيدة :

لسانك الأول في الكتاب ولغة الصبوة والعتاب
نخض عباب فقهه وسره وغص على صحيحه وحره
لاترض منه مبلغ الرعاع وحصة الأعمى من الشعاع
واقرأ علوم السلف الأعلام فإنها معالم الكلام
رب قديم كشعاع الشمس أين غد واليوم من أمس
وخل مازيفت الليالي وما نفت مصارف الأجيال
ولا تضع فضل الجديد كله يفتك وضع الشيء في محله
رب جديد عنده المعول ورب كنز لم يثره الأول
إن طريق العقل لايسد ومذهب الأفكار لايحد

وما أجل مارسم شوقي هنا من منهج قوي يحافظ على العربية . وإن كان لا يتنكر للتجديد المقبول الذي يقره أئمتها سواء في مفرداتها أو قواعدها ، إن (شوقي) في هذه القصيدة كان يصدر عن عقل حصيف ، وتجربة حكيمة، وفكر مضيء . . . وقد دعا شوقي إلى تسجيل تاريخ العرب بالشعر ، وفضل الشعر التاريخي والنثر التاريخي على كتابات المؤرخين ، الذين يسجلون الأحداث لحسب ؛ وذلك في قصيدة له في هذا الديوان ، عنوانها « التاريخ » ويشير شوقي في قصيدته الوطن إلى سيادة العرب والعربية بعد الإسلام ، فيقول :

وأنجز الله النبي وعده وساد قومه الزمان بعده
فورثوا قيصر في المشارق وأخذوا الغرب بسيف طارق

وأمنوا الأمصار فاتحينا وعدلوا فى العالمين حينا
واتخذوا كل القرى أوطانا وحاسنوا الأهلين والقطانا
فحيث حل العربى حيا من الملا قبيلة وحيا
وشاطر الأرض على التساوى محاسن الأقوام والمساوى
حتى انقضى سلطانهم وزالا وفضلهم باق ولن يزالا
وذلك اللسان باق لم يزل يمضى عليه من جلا ومن نزل
لم يبق منهم سوى الأصوات وعجب تكلم الأموات

وقصيدة شوقى فى الديوان عن البيت الحرام تنبىء بحبه للعرب والعربية والإسلام وكتابه ولغته وبيته العتيق ، وقد تحدث فيها عن قداسة البيت وعظمته وتاريخه وسدنته من قريش أبناء إسماعيل ، ومن العرب الميامين الذين انتشروا فى كل صقيع :

انتشروا قبائلا على الزمن ملء الحجاز والشام واليمن

ويختم القصيدة ببيان أهمية البيت الحرام وجلالته حتى فى الجاهلية ، حيث يقول :

لاينطق الهجر به والإفك ولا يحل للدماء سفك

وماأروع ماقال شوقى فى البيت الحرام .

وإذا كان شوقى قد حلق فى قصيدته النبوية « البردة » فقد حلق هنا فى هذا الديوان فى مطولته الرائعة « السيرة النبوية » التى تحدث فيها عن الرسول حديثا عجبا جامعا ، فى طفولته وشبابه ورجولته ،وفى بعثته ورسالته ودعوته وهجرته وغزواته . صلوات الله عليه .

ويمضى شوقى فى الديوان فى تسجيل تاريخ الإسلام تسجيلا رائعاً فى قصائده : الخلفاء الراشدون ، خلافة أبى بكر ، خلافة عمر ، عمر وخالد

ابن الوليد ، مقتل عمر ، خـــلافة عثمان ، الخصمان : أمير المؤمنين على ، ومعاوية ، عمرو بن العاص خالد بن الوليد ، دولة بنى أمية ، خلافة عبدالله ابن الزبير ، البيعة للسفاح ، أبومسلم الخراسانى ، الدولة العباسية ، أبو جعفر المنصور ، صقر قريش ، دولة الفاطميين .

فى هذه القصائد يسجل تاريخ الإسلام وملوكه وخلفاء المسلمين، تسجيلا صادقا واعيا ، ويصور الأحداث تصويراً فنياً عاليا ، وينطق الزمن حتى لكأن الزمن يتحدث عن بطولات المسلمين وتاريخهم وسير أعلامهم .

وهنا نشير إلى اتخاذ شوقى القصيدة العربية موضوعا لتسجيل التاريخ ـ كما يبدو فى همزيته فى الجزء الأول من ديوانه، وفى هذا الديوان ـ كان عملا كبيراً فى تجديد الشعر وفتح الأبواب أمام الشعراء وإمداد الشاعر بطاقات كبيرة من المعانى والأفكار والأخيلة والحكم الأصيلة ، ولا شك أن ذلك كان خطوة من خطوات التجديد الشعرى عند شوقى ، وكان مقدمة لكتابة شوقى رواياته التاريخية التى عدت فتحا كبيراً فى الشعر العربى الحديث .

ونحن لا ننكر أن شعراء العربية القدامى سبقوا (شوقياً) فى هذا المضمار ، من مثل ابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) الذى نظم تاريخ الخليفة المعتضد العباسى (٢٧٩ — ٢٨٩) ، وكما فعل ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) فى نظم تاريخ الناصر الخليفة الأموى الذى حكم الأندلس خمسين عاما (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ولكننا لا نتجاهل أن شوقيا قد جدد الشعر العربى بنظمه لأحداث التاريخ الإسلامى وبطولاته وسير أعلامه، وجدد طريقة الأقدمين فى كتابة السيرة ، وتسجيل تاريخ الإســـلام ، منذ بدأ فجره يضىء فى آفاق الدنيا وأرجائها . وكان هذا سببا حمل الشاعر أحمد محرم على نظم ملحمته « الإلياذة الاسلامية » .

وبذلك زاد شوقى فى القيثارة العربية الأوتار الناقصة ، فأضاف الشعر القصصى والتمثيلى إلى شعرنا الغنائى . فكان بذلك الشاعر العبقرى .

إن شوقي من صنع الطبيعة ، ولد منشداً ، كما يولد البلبل مغرداً ، وعاش يتغنى على الشعر برودا من جمال ، وثيابا منمنمة الخيال . ومن ثم بايعه الشعراء جميعا بإمارة الشعر .

— ٨ —

ولعبد العزيز البشري في شوقي رأي نذكره هنا ، قال البشري :

لقد ضرب شوقي في كل قصد ، وجال في كل غرض ، فبرع وبذ وأتى بالطريف لاتدرك آثاره ، ولا يلحق غباره . ومن عجب الزمان أن يخرج شوقي في هذا الزمان ! ولا أدري كيف فر هذا الشاعر من شاطيء دجلة إلى شاطيء النيل ، ولا كيف تسلل من جيل أبي نواس إلى هذا الجيل ؟ ! لقد عارض الفحول من متقدمي الشعراء في أجل قصيدهم فما قصر عن مداهم ولا انخذل عن اللحاق بهم . بل لقد زاد عليهم من كل ما فتق العصر في فنون المعاني يرسلها في الكلام الناصع فلا ينبو عنها الطبع العربي ولا يجد لها عليه نشوزا .

وشوقي هو شوقي من يوم شدن ومن يوم تحرك بالشعر لسانه ، آية من آيات البيان يدوى بها السهل والجبل ، ولقد يكون التقدم في السن ، والتبسط في العلم ، وتجارب الأيام ، وطول التمرين في نظم الكلام قد بسطت في أغراضه وبصرته بكثير من مضارب القلم إلا أنها لم تزد . وهيهات لها أن تزيد في « شاعريته » كثيرا ولا قليلا ، ذلك أن هذه العبقريات إنما تخلق مع المرء خلقا فلا تنال بكسب ولا تعليم . فإذا كان لشيء من ذلك فضل ففي مجرد الصقل والتهذيب وليس بدعا في سنة الله أن ينتضح طبع شوقي بكل هذا البيان العربي وهو فتى لا يتصل من أبناء العرب من أمه وأبيه

بسبب ، ولا كان محصوله من لغتهم وأشعارهم ومحاضرتهم ومظاهر بلاغتهم بأوفر من محصول من نشأ فيهم من أهل البيان ، فوثب دونهم ورد بيان بنى العباس عليهم - وإلا فمن علم البدر كيف يتألق ومن علم الغدير كيف يترقرق ومن علم السحر الجفون ، ومن علم الغمامة كيف تسح بالعارض الهتون ، ومن علم الوردة كيف تتنفس بالأرج ، ومن علم البلبل كيف يتغنى بالرمل والهزج ؟ ألا ذلك تقدير العزيز العليم ! .

إن طبع شوقى ليجود بالشعر يصيب به أعلى المعانى ما أحسبه يرتصد لها أو يعالجها بالمطاولة والتفكير ، ولقد تراجعه فى بعض شعره وماطلب به فيروح يتفهمه معك بمجاهدة الفكر وطول الشد على العصب . حتى إذا قر هذا الشعر واحتدمت فيه الأذهان خرج للناس فيه من وجوه المعانى مايحير العقول ويذهب بالألباب . فإذا رأيت بعد هذا شوقى ولم تستطيع التوفيق بين مجلسه وحديثه فى الأسباب الدائرة بين الناس ، وبين شعره الذى ينيف بك ، كلما قرأته ، على السماك ، فاعلم أن هناك موهبة أومايدعونه « عبقرية » ليس من الحتم أن تتسق دائما مع سائر غرائز الإنسان ؛ وإذا رأيت أثر النعمة باديا على شعر شوقى فلا يتعاظمنك هذا ممن لاغاه إسماعيل طفلا ، ورباه توفيق يافعا ، وخرجه عباس رجلا ، وعاش عمره متقلب الأعطاف فى الترف والنعيم .

وشوقى لايحفل كثيرا بنسج الكلام وتزوير اللفظ وتزويق الديباجة فإن طبعه قد انصرف أكثره إلى المعانى حتى إنه ليحمل اللفظ أحيانا مايثقله ويبهظه ويكد ذهن القارىء فى التماسه وتبيينه ، بل إنه فى سبيل فى الوفاء بما قصد له من المعنى ليأتى أحيانا بالغريب الشامس من اللفظ لاتدرك معناه إلا بعد مراجعة .

وقد يسف شوقى كما كان يسف بشار وأبو نواس وأبو تمام والبحترى

والمتنبي والمعرى ومن دخل فى خللهم من جلة الشعراء ، ولا بد للطائر الحالق أن يستريح هنيهة بالإسفاف ، وأنك لو وازنت بينهم فى فصاحة شعرهم وحبك قريضهم وارتفاع معانيهم ، وفى إسفافهم ذاك وتزايل ألفاظهم وفسولة معانيهم ، لخلتهم إنما يعتمدون هذا اعتمادا ، استجماما بالعبث أو تجنياً على ما أمكنهم الله من نواصى البيان ! .

— ٩ —

ولمصطفى صادق الرافعى فى شوقى رأى آخر ، قال فيه :

كان (شوقى) فى العالم العربى كأنه عمل تاريخى متميز من أعمال مصر ، غير أنه مسمى باسم رجل ، وكان على الحقيقة - لا على المجاز - كان فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلبة التى تخلد بأسماء الآثار الفنية وتكسبها العظمة فى الوجودين ، من محلها ومن نفس الإنسان ؛ وأعجب من هذا وذلك أنى لم أر شعراً عربياً يحسن فى وصف الآثار المصرية مايحسن فى وصفها شعر شوقى ، حتى لأسأل نفسى : هل تختار بعض الأشياء العظيمة وصفها ومفسر عظمتها ، كما تختار المرأة الجميلة عاشقها ومستجلى حسنها ؛ وما بان شوقى على غيره إلا بأنه رجل أفرغ فى رأسه الذهن الشعرى الكبير ، فكان فى رأسه مصنع عماله الأعصاب ، ومادته المعانى ، ومهندسه الإلهام ، والدنيا ترسل إليه وتأخذ منه ، وعلامة ذلك من كل شاعر عظيم أن تضع دنياه على اسمه شهادتها له ، ولهذا يكون بعض الشعراء كأن اسمه فى وزن اسم مملكة . فإذا قلت شكسبير وانجلترا ، فهما فى العظمة النفسية من وزن واحد ، وكذلك المتنبي والعالم العربى ، وكذلك شوقى ومصر .

ويقول الدكتور أحمد زكى أبو شادى(١) فى شوقى : نبغ فى عصر واحد شوقى ومطران وصبرى وحافظ ، وكان لمطران رسالة مستمدة من الإنسانية أولا ومن القومية ثانية ، إلى جانب شعره الوجدانى وشعر الطبيعة المنوع؛ وكانت رسالة إسماعيل صبرى وجدانية وطنية وأقلها الجانب الوطنى ، وأغلبها شعر العواطف المترفة التى لا تحمل أية رسالة فوق المتعة الموسيقية والأناقة الفنية للترويح عن النفس ، وكانت رسالة حافظ وطنية سياسية شعبية إلى أبعد غاية ، وإن حفظت له نماذج رائعة فى شكوى الزمان ، وأما رسالة شوقى فكانت أساسيا التغنى بمجد مصر ، ثم بتاريخ الإسلام والعرب ، تسعفه فى كل ذلك ثقافته التاريخية وقربه من ولى الأمر فى مصر ، واستجابته لميوله .

ولاريب أن (شوقيا) كان صادقاً فى تاريخياته المنوعة التى تجلت فيها عبقريته ولم يبزه أحد فيها ، وتفوقه فى هذا المضمار جدير بالتمجيد والتبجيل ، وإنها لرسالة ذات قيمة كبيرة لا يعاديها أى إنسان حصيف ولا أى ناقد منصف ، إلا إذا جاز أن يعادى من يسجل أمجاد التاريخ القومى بإخلاص ولذة ، ل وشراهة . إن طاقة شوقى الفنية عظيمة وموسيقاه أعذب فى جملتها من موسيقى المتنبى ، ولكن طاقة المتنبى الفنية أعظم وأصالته أجل .

ولا ريب أحد أن شوقى فى مجمل شاعريته وآثاره مرحلة تقدمية فى الشعر العربى فى الحديث . ونحن نعد ديوان شوقى وآثاره الأخرى ثروة للعربية ، خلافاً لما يرى عباس محمود العقاد وأقرانه الذين لا تصل شاعريتهم إلى شاعرية

---

(١) من مقالة عن شوقى بقلم الدكتور الشاعر أحمد زكى أبو شادى — المقتطف فبراير ١٩٥٢ .

شوقى منزلة وتنوعاً ، ولو أن شوقى فى كثير من آثاره جارى عصره وخصوصاً ثقافته الغربية .

ولقد أثبت أحمد شوقى بألمعيته كفاية العربية لاستيعاب المعانى العصرية فى أسلوب كلاسيكى ساحر يمرح فيه الخيال كما تتدلل الموسيقى والمعانى وتتألق الصور فتنة للقارئين .

ويرى العقاد أن شوقى ليس من المجددين الذين يعطون من عندهم كل ما أعطوه من معنى وتعبير ، ولكنه كان يقلد ويتصرف ، فهو قد نشط بالشعر من جمود الصيغ المطروقة والمعانى المكرورة ولكنه لم يستطع أن ينتقل به من شعر القوالب العامة إلى شعر « الشخصية » الخاصة التى لا تخفى معالمها ولا تلتبس بغيرها . فلا شخصية هناك فى قصائده ولا فى رواياته ولا يخصه شىء من شعره إذا صرفنا النظر عن براعة القالب وطلاوة اللفظ ونغمة الأداء ، لهذا يعرض لنا الأبطال فى رواياته كأنهم « الخامات » التاريخية بغير تصوير من الخيال أو صقل من القريحة » .

ويقول : « وخلاصة القول فيه أنه مقلد مبتكر أو أنه مبتكر مقلد فلا هو تقفى آثار الأقدمين ولا هو ينفرد بملامحه الشخصية فى التعبير عن نفسه أو التعبير عن سواه » ، وهو رأى فيه كثير من المبالغة .

وشعر شوقى فى مرحلة الشباب — ويمثله الجزء الأول من الشوقيات — شعر تقليدى ، أما شعره بعد مرحلة الشباب فهو المعبر عن شخصيته وملامحه الفنيه ، يقول من قصيدته فى « كارنارفون » :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه   كل امرىء رهن بطى كتابه

وكان حافظ يعجب فيها بقوله :

وطوى القرون القهقرى حتى أتى
فرعون بين طعامه وشرابه

وقد ظهرت رقته فى أوجها فى قصيدته (الأندلسية) :

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة فيك والإسلام

وفى (ذكرى نشواى) :

يا دنشواى على رباك سلام   ذهبت بأنس ربوعك الأيام

مما يذكرنا بقول أبى نواس :

يادار مافعلت بك الأيام   لم تبق فيك بشاشة تستام

وقصيدة (رومة) :

قف بروما وشاهد الأمرواشهد   أن للخلق خالقاً سبحانه

وقصيدة (أنس الوجود) :

أيها المنتحى بأسوان دارا   كالثريا تريد أن تنقضا

وقصيدة « أيها النيل » :

من أى عهد فى القرى تتدفق   وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من   عليا الجنان جداولا تترقرق

وهذا المعنى الأخير أخذه عن هيرودوت الذى وصف النيل بأنه النهر النازل من السموات .

وظهرت روح المعرى وأبى العتاهية فى قصيدة(البنون والحياة الدنيا) .

الضـــلوع تتقـــد   والدمـــوع تطرد

وتنسب لشوقى هذه الأبيات :

شاهدت أجناداً يسو   قون الجناة إلى السجون

فسألتهم ماذا جنوا قالوا : لصوص يسرقون
قلت : اسجنوا الفتا ة رشيقة القد المصون
سرقت نهاى ومهجتى حتى الرقاد عن العيون

وقد حقق محمود إبراهيم أباظة نسبة هذه الأبيات إلى سليم عنحورى ونسب إلى شوقى البيت :

خطرات النسيم تجرح خديـ ـه ولمس الحرير يدمى بنانه

والصحيح أنه ليس له .

— ١١ —

بعض صور من شعر شوقى :

١ — قال شوقى فى مشروع القرش يخاطب الشباب ، ولم تنشر هذه القصيدة فى ديوانه :

لا يقيمن على الضيم الأسد نزع الشبل من الغاب الوتد
كبر الشبل وشبت نابه وتغطى منكباه باللبد
اتركوه يمش فى آجامه ودعوه عن حمى الغاب يذد
واعرضوا الدنيا على أظفاره وابعثوه فى صحاراها يصد
فتية الوادى عرفنا صوتكم مرحبا بالطائر الشادى الغرد
هو صوت الحق لم يبغ ولم يحمل الحقد ولم يخف الحسد
تلك مصر الغد تبنى ملكها نادت البانى وجاءت بالعدد
وعلى المال بنت سلطانها ثابت الأساس مرفوع العمد
وأصارت بنك مصر كهفها حبذا الركن وأعظم بالسند
مثل من همة قـــد بعدت ومداها فى المعالى قد بعد
ردها العصر إلى أسلوبه كل عصر بأساليب جدد

البنون استنهضوا آباءهم ... ودعا الشبل من الوادى الأسد
أصبحت مصر وأضحى مجدها ... همـة الوالد أو شغل الولد
هـذه الهمة بالأمس جرت ... لخوت فى طلب الحـق الأمد
أيها الجيل الذى نرجو لغـد ... غدك العز ودنياك الرغد
أنت فى مدرجـة السيل وقد ... ضل من فى مدرج السيل رقد
قدت فى الحق فقـد فى مثله ... من نواحى القصد أو سبل الرشد
هـلم الآباء واهتف قائلا : ... « أيها الشعب تعاون واقتصد »
رب عام أنت فيه واجـد ... فادخر فيه لعام لا تجد
جمع القرش إلى القرش يكن ... لك من جمعهما مال لبد
اطلب القطن وزاول غيره ... واتخذ سوقا إذا سوق كسد
نحن قبل القطن كنا أمة ... تهبط الوادى وترعى ونرد
قد أخذنا فى الصناعات المدى ... وبنينا فى الأوالى ماخـلد
وغزلنا قبل إدريس الكسا ... ونسجنا قبل داود الزرد
إن تلك اليوم لواء قائداً ... كم لواء لك بالأمس انعقـد

٢ — ومن قصيدة لأحمد شوقى :

ويا « سعد » أنت أمين البلاد ... قد امتلأت منك أيمانها
ولن ترتضى أن تقـد القناة ... ويبتر من مصر سـودانها
وحجتنا فيهما كالصباح ... وليس بعميك تبيـانها
فمصر الرياض وسودانها ... عيون الرياض وخلجانها
وما هـو ماء ولكنه ... وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعـه ... كما تمم العين إنسانها
وأهلوه منـذ جرى عذبه ... عشيرة مصر وجيرانها
وأما الشريك فعـلانه ... هى الشركات وأقطانها
وحرب مضت نحن أوزارها ... وخيل خلت نحن فرسـانها
وكم من أتاك بمجموعة ... من الباطل ، الحق عنوانها

فأين من « المنش » « بحر الغزا ... ل » وفيض « نيانزا » وتهتانها ؟
وأين التماسيح من لجـــة ... يموت من البرد حيتانها
ولـكن رءوس لأموالهم ... يحرك قرنيه شيطانها
ودعوى القوى كدعوى السباع ... من الناب والظفر برهانها

٣ — ولأحمد شوقى فى الوطن ولم تنشر فى ديوانه :

عصفورتان بالحجـــا ... ز حلتا على فنن
فى خامل من الريا ... ض لا ند ولا حسن
بينا هما تنتجيـــا ... ن سحراً على الغصن
مر على غصنيهما ... ريح سرى من اليمن
حيـــا وقال : درتا ... ن فى وعاء ممتهن
لقد رأيت حول صنعا ... ء وفى ظل عدن
خـــائلا كأنها ... بقية من ذى يزن
الحب فيهـــا سكر ... والمـاء شهد ولبن
لم يرها الطـــير ولم ... يسمع بها إلا افتتن
هيا اركبانى نأتها ... فى ساعة من الزمن
قالت له إحـــداهما ... ـ والطير منهن الفطن ـ
« ياريح أنت ابن السبيـ ... ـل ماعرفت ما السكن ؟
هب جنة الخلد اليمن ... لا شىء يعدل الوطن

مصادر عن شوقى :

الجزء الخامس من قصة الأدب فى مصر للمؤلف ـ أبى شوقى لحسين شوقى (١٩٤٩) ـ الأدب العربى المعاصر فى مصر شوقى ضيف (١٩٥٧) ـ أدب مصر الحديث لمصطفى زيد (١٩٤٩) ص٨٨ — ٩٥ — أشهر مشاهير

أدباء الشرق لمحمد محمد عبد الفتاح ص ٣ - ٣٢ - التجديد فى الأدب المصرى الحديث لعبد الوهاب حمودة - حافظ وشوقى للصيرفى (١٩٤٨) - حافظ وشوقى لطه حسين ١٩٥٣ — حياة شوقى لأحمد محفوظ — الديوان للعقاد والمازنى - ذكرى الشاعرين لأحمد عبيد (١٩٤٦) - شاعرا العروبة شوقى وحافظ لعبد السميع المصرى (١٩٤٩) - الشعر المعاصر للسحرتى - الشعراء الثلاثة شوقى وحافظ وسطران للسندوبى (١٩٤٣) - شعراء مصر وبيئاتهم للعقاد (١٩٥٠) - شعراء الوطنية ، أحمد شوقى : لعبد الرحمن الرافعى (١٩٥٤) - شوقى لأنطون الجميل (١٩٤٣) - شوقى لشكيب أرسلان (١٩٣٦) - شوقى شاعر العصر الحديث لشوقى ضيف (١٩٥٣) - العربية وشاعرها الأكبر لاسعاف النشاشيبى (١٩٢٧) - فى الأدب الحديث الجزء الثانى لعمر الدسوقى (١٩٥٠) - فى الأدب العربى الحديث ليوسف عز الدين - شوقى وشعره الإسلامى لماهر حسن فهمى - تطور الشعر العربى الحديث فى مصر له أيضا - المتنبى وشوقى لعباس حسن .

قمبيز فى الميزان للعقاد - كلمة فى أحمد شوقى لعمر فروخ (١٩٤٧) - المتنبى وشوقى لعباس حسن - محاضرات فى الشعر المصرى بعد شوقى لمندور - المسرحية فى شعر شوقى لمحمود حامد شوكت، ولمندور - مع شوقى فى مصرع كليوباترا لمصطفى الشكعة (١٩٥٧) - وطنية شوقى للحوفى (١٩٥٥) ، مجلة الهلال عدد نوفمبر ١٩٦٨ وهو عدد خاص عن شوقى ولشوقى كتب منها : ديوانه - ورقة الآس - مصرع كليوباترا - مجنون ليلى - لادياس - عنترة - قمبيز - على بك الكبير - الست هدى - أميرة الأندلس - أسواق الذهب - دول العرب وعظماء الإسلام - شيطان بنتاءور .

حافظ إبراهيم شاعر النيل (١)

١٢٨٨ - ٤ فبراير ١٨٧٢ — ١٣٥١ - ١٩٣٢

شخصية حافظ الشعرية :

عاش حافظ وكأنه كان يحس الحياة بأعصاب عارية ، وكان همه أن يتلقى بهذه الأعصاب الحساسة - وقع الحياة ثم ينقلها إلى الناس مصورة فى شعر جزل رصين ، سهل الورود على الأذن ، سريع النفاذ إلى القلب ، وكان يرسل نفسه على سجيتها بلا تكلف أو تعمل ، فلا يذهب يتصيد النافر من المعانى ولا يحاول الإغراب فى لفظ أو فكرة ، وإنما دأبه أن يخاطب القلوب من أقرب طريق ، وكان إلى هذه البساطة التى امتاز بها فى العرض مخلصاً صادق السريرة ، جم الإخلاص ، وللنفوس معايير حساسة ، لا يجوز عليها الزيف ؛ ولا يدخل عليها التصنع والغش ، ولا يخدعها التزويق والدجل ، وقد اقترنت حياته الأدبيـــة بالنهضة القومية ، وكان شعره من أقوى العوامل فى هذه النهضة ، ومن أسبق مقدماتها أيضا وأحقها بالذكر .

وكانت حياته كشعره . بساطة تنفر من التكلف ، ووفاء للذين اتصلت أسبابه بأسبابهم ، وكرم عريض يصدر فيه عن مروءة فطرية . ولا ينشد من ورائه غاية ، وأنس محضر ورقة حاشية وتواضع محبب وصراحة فى أدب

---

(١) صدر عنه عدد ممتاز من أعداد مجلة أبولو - يوليو ١٩٣٢ ، وعدد خاص من مجلة السياسة الأسبوعية فى ٢ سبتمبر ١٩٣٢ ، وراجع : كتاب شوقى وحافظ لطه حسين ، وكتاب شوقى وحافظ للصيرفى ؛ وحافظ إبراهيم لمحفوظ - وحافظ شاعر النيل (طبع دار المعارف بالقاهرة) ٩٣ - ٩٧ ، ساعات بين الكتب والناس للعقاد - حافظ لعبد الحميد الجندى - حافظ لمحمد هارون الحلو

جم وحلم وطيد وإيثار للصفاء . وكان رحمه الله مليح الفكاهة سريع الخاطر خلو الحديث فياضاً ، وقد أعانه على ذلك أنه كان قوى الذاكرة ، حافظا المختار فى كل باب ، وكان إلى هذا حسن الإلقاء ، ومن حسن إلقائه أنه كان يقطع الكلام على المعانى فيبرزها ويؤكدها . ولا يجريه على النظم وحده ، يساعده على ذلك صوت قوى ونبرات موافقة . فالكلام جاريا على لسانه له ضعف مزاياه حين يسمعه المرء من سواه .

ولقد بدأ حافظ حياته جنديا ، ثم انصرف عن الجندية وزهد فى الحرب ورغب عن حياة كل ما فيها يذكر بهما ، ولكنه على هذا عاش ما عاش وأبرز مزاياه أنه جندى شهم ـ جاهد فى سبيل وطنه ، وفى سبيل لغته ، وفى سبيل العرب والشرق ، والإسلام وفى سبيل وطنه الخالد .

يقول عبد العزيز البشرى فى حافظ : حافظ شاعر ، يحب الجمال ويجتمع له ، ويكره القبح وينعى على أهله ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث حاضر البديهة ، ورائع النكتة ، بديع المحاضرة ، إذا كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك ؛ ولم أر قط رجلا أسرع منه حفظا ولا أثبت حافظة ، ولقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثب فيها وثباً حتى يأتى على غايتها ، وإذا هو قد استظهر أكثر جملها ، أو أبياتها إن كانت قصيدا . وإذا هى ثابتة على قلبه على تطاول السنين ، كذلك لم أر قط رجلا اجتمع له من متخير القول . ومصفى الكلام مرسلا ومقفى ، مثل ما اجتمع لحافظ إبراهيم ، فكان حقاً له من اسمه أوفر نصيب ، ولئن كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرق ، وهيىء لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب لصب على سمعك عصارة الشعر العربى ، وأبدع ما انتضحت به القرائح من عهد امرىء القيس إلى الآن ، ويمكنك أن تعد بحق حافظاً أجمع كتاب لمتخير الشعر . وحافظ كلف بالصنعة والديباجة ونسج الكلام ، وما بعد هذا عنده فضل ، وهو يرى أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق

بدقائق المعانى وإن تزايلت من دونها الألفاظ ، وأن أدق المعانى وأجلها قد تقع للدهماء فى حوارهم ومشارع كلامهم، أما إشراق الديباجة وفصاحة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك هو الشعر .

هذا رأى حافظ فى الشعر ، وتلك أيضاً صورة من شعره ؛ مشرق الديباجة ، جزل اللفظ ، صافى القول ، محكم النسج ، رصين القافية ، ترى معناه فى ظاهر لفظه ، فإذا أقبل عليك ينشدك من شعره أبصرت البيت يستشرف وحده للقافية استشرافا حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها حافظ إبراهيم .

ويقول عنه إبراهيم المازنى : نقدت شعر حافظ نقداً كله سخر وتهكم ، أو قلة عقل لأنه صار فى رأيى مثلا لمذهب قديم يجب هدمه ؛ ومضت سنوات وأخرجت أنا والعقاد جزءين من كتاب « الديوان » فى النقد والتعريف بالمذهب الجديد فى الأدب ، وكنا نلتقى بحافظ من حين إلى حين ، فى مقهى أمام دار الكتب ، ونتحدث فى هذا المذهب الجديد ، وأن الأدب فرع من شجرة الحياة ، وأن التقليد يفسده ، وأن الأديب يجب أن ينظر بعينه ويفكر بعقله ، ويحس بقلبه ، وأن يكون — قبل كل شىء ، وفوق كل شىء — مخلصاً إلى آخر هذا ، فيوافقنا حافظ .

ولم يكن لحافظ من الثقافة المدرسية حظ كبير ، لأنه كما عرفت تعلم فى المدارس الابتدائية ، ثم فى المدرسة الحربية ، أما المدارس الثانوية فلم تطل بها إقامته ، على أن المناهج وقتئذ لم تكن مهذبة كفيلة بتخريج الرجل المثقف غير أنه كان يغشى مجالس العلماء والأدباء والشعراء من أمثال : محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وعبد العزيز البشرى ، وخليل مطران ، وعبد الوهاب النجار وغيرهم ؛ فكان يتلقى عنهم ، ويطارح شعراءهم الشعر . وقد أكثر من قراءة الأدب القديم ، وحفظ كثيراً من روائعه .

وكان له بعض إلمام بالفرنسية فتمكن من الاطلاع على آدابها ، وترجم كتاب البؤساء لفكتور هوجو . واتخذ من البارودى قدوة له يجاريه فى جزالة اللفظ وروعة الأسلوب .

شاعريته وسماتها الفنية :

نشأ حافظ يتيما فقيراً بائساً ، فصور البؤس فى أقسى مظاهره ، وعطف على البائسين ، ودعا إلى العطف عليهم والبر بهم ، فتراه يقول فى رعاية الطفل ، وفى الدعوة إلى الإحسان ، وفى الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجمعية إعانة المكفوفين ، وملجأ الحرية ، وأمثالها .

وخالط طبقات الشعب عامة ، وجالس الأميين والأدباء ، وذاق حلو الحياة ومرها ، وتقلب فى بؤسها ونعيمها ، فجاء شعره فى اغراضه ومعانيه صورة لما تقلب فيه ، فلاغرو إذا كان حافظ بحق شاعر الوطنية وشاعر الشعب وشاعر السياسة والاجتماع ، لم يجاره فى هذا شاعر من شعراء عصره ، وكان صادق الوطنية ، فأكثر من الشعر فى الأحداث السياسية والمطالب القومية ، كما أكثر من لوم المصريين على تخاذلهم وانصرافهم إلى اللهو ، والعدو جاثم على صدورهم يتربص بهم الدوائر ، ويجد فى القضاء على حريتهم واستقلالهم ، بل لقد اتسعت دائرة وطنيته حتى شملت العرب جميعاً ، بل لقد شملت الشرق كله ، ولعلك قرأت له قصيدته التى موضوعها « سورية ومصر » وكم قال فى علاقة مصر بالآستانة ، وتمنى نهضة الخلافة ، ودعا إلى وحدة الشرق وتعاونه .

وكان يكره جداً أن يجد الناس فى شعره عيباً ، ولذا حرص كل الحرص على روعة أسلوبه ، وإشراق ديباجته ، وحسن وقعه وقوة تأثيره ، فلا يعلن قصيدته إلا بعد أن يهذبها ، ويعرضها على أصحابه ، فاستوى بذلك نظمه ، واستقام قريضه ، وكان هذا مما دعاه إلى استخراج كثير من مهجور اللغة

الذى كان يجهله رجال عصره ، فشاعت ألفاظها المشرقة على أقلام الأدباء ، وفى ذلك يقول على لسان اللغة العربية :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى ؟

وخاض حافظ فى مرحلة شبابه فى الأغراض القديمة التى كان يخوض فيها شعراء عصره فقاله فى : الغزل،والمدح ، والهجاء ، والوصف ، وغيرها. ثم قامت ثورة فى مصر من بعض الأدباء المثقفين ثقافة أجنبية على الشعراء ؛ ورموهم بأنهم مقلدون للسابقين فى الأغراض وفى الأوزان ، فثار حافظ أيضاً مع هؤلاء على الشعر القديم ثورة صارخة ، وقال فى ذلك قصيدته التى منها :

آن ياشعر أن نفك قيوداً قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ولكنه حين أراد التجديد لم يجدد فى البحور والأوزان ، ولا فى الأسلوب والبيان ، ولا فى التفكير والخيال ، وإنما جدد فى موضوعات الشعر وأغراضه ، فنظمه فى الأغراض الجديدة التى جعلها محور شعره وهى : الشعر الوطنى ، والشعر الاجتماعى ، والشعر السياسى .

ومن هذه الأغراض تفجرت ينابيع شعره ، أو هى الهدف الذى كان يرمى إليه فيما يقول من شعره ، حتى ولو كان موضوع قصيدته لغيرها فلقد كان إذا رثا ، أو حيا عاما جديداً ، أو وصف ، فتح لنفسه بابا ينفذ منه إلى الناحية الوطنية أو الاجتماعية أو السياسية .

وقد كان حافظ شاعر الشعب ، فوصف آلام الدهماء من الشعب ، وصور وطنية الأمة وموقفها من المستعمر والحاكم ، ووصف حال مصر وما منيت به من فوضى واضطراب وما ترزح تحت نيره من أعباء ثقال ، وكأن شعره

ديوان تاريخ لبنى وطنه ، وهذه الخصائص تجد لها صورة جلية فى قصائد كثيرة من شعره .

وقرأ حافظ إبراهيم أشعار القدامى واستظهر الجم الكثير منها وقلد بعض أصحابها وحاول أن يفوق فى ألفاظه وأسلوبه جزالة بشار ورقة مهيار وأناقة المتنبي وقوة حسان وجرس البارودى ، وظل شعره فى حلبة الصياغة والنسج على سباق مع الأقدمين حتى ليكاد شعره يعد من الشعر العباسى من حيث الجزالة والمتانة .

وقد وصفه الدكتور طه حسين هو وشوقى فقال : « هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك » .

وكان حافظ يعجب بالبارودى وإسماعيل صبرى ، ويرى للبارودى فضل التقدم ، فقد جدد الشعر ونقاه من التكلف وعاد به إلى عمود القوة والجزالة والرصانة وإحكام النسج قبل أن ينبس شاعرنا ببنت شفة ، ومن ثم فقد كان شعر البارودى جسراً عبر عليه شاعرنا إلى الشعر الحديث المصقول بصقال الفن الأدبى الرائع ، وكان الشعراء المعاصرون يحبون فى شعر حافظ جزالة ألفاظه ومتانة تركيبه وقوة أسلوبه ، فمن ذلك قول شوقى :

مازلت تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميت أمانة القدماء
جددت أسلوب الوليد ولفظه ... وأتيت للدنيا بسحر الطائى(١)

منزلة حافظ فى الشعر الحديث :

يعد حافظ فى الطليعة من شعراء العصر الحاضر ، وقد قلد البارودى وتقيل طريقته منذ أن تفتحت أكمام شعره ، كما قلد كثيرا من الشعراء

---

(١) يعنى بالوليد البحترى ، والطائى هو أبو تمام .

الغابرين ، وتأثر بما استظهره من الشعر الرصين ، ثم ابتكر فى شعره نهجاً تميز به عمن يعاصرونه من الشعراء ، قوامه الأسلوب الرائق ، والمعنى الشائق ، وعذوبة الكلمات ورشاقة العبارات ، والتجاوب الوثيق بين اللفظ والمعنى ، وكان شعره سجلا للأحداث والمحن السياسية فى مصر ومرآة لأحوال وطنه ، ترى فيه صيحة الوطنية وصرخة الألم وصورة المظاهرات والثورات ، فكان لذلك شاعر الشعب .

لقد كان كل من حافظ وشوقى شاعرا مطبوعا ، وكان حافظ فى الغالب شاعرا عاطفيا معبرا عن أمته ، فى حين كان شوقى فى الراجح شاعر الذكاء المحض وصفا وتاريخا وتصويرا وسردا ، ولم نعهد لحافظ مثيلا من طبقته سوى محرم ومطران ، فى حين كان شوقى شاعر القصر يستمد شعره من وحى القصر ، ومن ذكائه الحاد وثقافته وتجاربه ، حتى إنه فى رثائه والدته عارض المتنبى فى رثائه جدته .

والشعر عند شوقى غاية رياضية ذهنية ، فى حين أنه عند حافظ كان منبرا يصيح من فوقه بأمته لتهب للحياة والكفاح متأثرا فى ذلك بتعاليم أستاذه الإمام محمد عبده ؛ على أن الطبع الشعرى عند حافظ كان أصيلا ؛ وبقى قويا إلى نهاية عمره ، ولو لم يظهر له شعر كثير ، ولم يدون فى أواخر حياته ؛ وهو الذى ارتجل ارتجالا رثاء مصطفى كامل يوم وفاته ، وكان يسح بالشعر سحا فى جميع مجالسه الأدبية .

ولقد ظهرت طلائع النهضة الشعرية فى مصر حين ظهرت فيها طلائع الثورة العرابية ولم تسبقها نهضة مذكورة بعد الركود الذى أصاب الشعر العربى كله فى أعقاب الدولة العباسية ، ومن الأدباء من يعتبر الساعاتى طليعة هذه النهضة الحديثة وخاتمة الأدباء الناشئين على الطريقة التقليدية ، والساعاتى جدير بحق أن يعتبر حلقة الاتصال بين الشعراء العروضيين والشعراء المحدثين . وقد كان إمام الشعراء فى العصر الحديث بلا ريب محمود سامى

البارودى، صاحب الفضل الأول فى تجديد أسلوب الشعر وإنقاذه من الصناعة والتكلف العقيم ، ورده إلى صدق الفطرة ، وسلامة التعبير . وكان للبارودى أثر عظيم فيمن لحق به من الشعراء المحدثين ، ولا سيما حافظ إبراهيم .

وهناك بواعث كثيرة قربت بين حافظ والبارودى فى الطريقة ،ومازالت بهما حتى جمعت بينهما بعد ذلك بجامعة الألفة والمودة ، فحافظ قد اختار حياة الجندية كما اختارها البارودى من قبله ، وحافظ كان مفطوراً كصاحبه على إيثار الجزالة والإعجاب بالصياغة والفحولة فى العبارة ، وكان كصاحبه أيضاً من حزب التمرد والثورة لا من حزب التسليم والاستكانة ، وكان الشيخ حسين المرصفى أستاذ الشاعرين وقدوتهما فى الرأى والنقد وتذوق الكلام .

وإمامة البارودى فيها معنى السبق والابتداء القوى الفائق فى هذا النمط الحديث ، أما أنه كان ممثلا لعصره جامعاً لنواحيه الأدبية أو الفكرية فذلك ما لم يكن من نصيب البارودى . وحافظ إبراهيم حلقة متوسطة بين من سبقوه وجاءوا بعده فى جميع درجات التطور والانتقال . فهو « أولا » وسط بين الشاعر كما كانوا يفهمونه فى القرون الوسطى وما بعدها وبين الشاعر كما يفهمونه فى القرن العشرين .

وحافظ شاعر الحياة القومية فى كلامه عن اللغة الفصحى وعن السفور والحجاب وعن فاجعة دنشواى وعن أزمات المال والسياسة وعن مضاربات الأغنياء فى سوق القطن وأضرار الشركات بالبلاد ، ثم هو شاعر الحياة الشخصية فى شكواه وهزله وخمرياته ومساجلاته ، وفيما يبدو خلال قصائده الاجتماعية من ميول نفسه وخلجات طبعه ، فليس له فى أبناء جيله نظير فى الجمع بين الخصلتين والظهور بحالة قومه وحالة نفسه معاً على صفحات ديوانه(١) .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للعقاد .

ويقول مطران فى حافظ وشاعريته : كان حافظ يطرق الموضوع فى الغالب من جوهره ، وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع شأن الصانع القدير الذى يبدأ بأصعب ما بين يديه .

وهو على الجملة أحد الثلاثة الذين كانوا نجوم الأدب العربى فى الشرق العربى لهذا العصر ، ولكل من تلك النجوم أثره الخالد ، أما شعره فشعر البيان ، وإن من البيان لسحرا .

صور من شعر حافظ :

١ — من قصيدة « مصر » لحافظ إبراهيم :

وقف الخلق ينظرون جميعـــا كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبناة الأهرام فى سالف الدهـ
ـر كفونى الكلام عند التحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشر ق ودراته فرائد عقـــدى
أى شىء فى الغرب قد بهر النا س جمالا ولم يكن منه عندى ؟
ورجالى لو أنصفوهم لسادوا من كهول ملء العيون ومرد
إنهم كالظبـــا ألح عليها صدأ الدهر من ثواء وغمد
فإذا صيقل القضاء جلاها كن كالموت ماله من مرد
قل لمن أنكروا مفاخر قومى
مثل ما أنكروا مآثر ولدى
هل وقفتم بقمة الهرم الأكـ بر يوما فريتم بعض جهدى ؟
هل رأيتم تلك النقوش اللواتى
أعجزت طوق صنعة المتحدى ؟
هل فهمتم أسرار ما كان عندى من علوم مخبوءة طى بردى ؟
ذاك فن التحنيط قد غلب الدهـ ـر وأبلى البلى وأعجز ندى

أنا أم التشريع قد أخذ الرو ... مان عنى الأصول فى كل حد
ورصدت النجوم منذ أضاءت ... فى سماء الدجى فأحكمت رصدى
وشدا (بنتاءور) فوق ربوعى ... قبل عهد اليونان أو عهد نجد
وقديما بنى الأساطيل قومى ... ففرقن البحار يحملن بندى
فسلوا البحر عن بلاء سفينى ... وسلوا البر عن مواقع جردى
أى شعب أحق منى بعيش
وارف الظل أخضر اللون رغد ؟
فردوا بى مناهل العز حتى ... يخطب النجم فى المجرة ودى
وارفعوا دولتى على العلم والأخـ ... ـلاق فالعلم وحده ليس يجدى
إن فى الغرب أعينا راصدات ... كحلتها الأطماع فيكم بسهد
فاتقوها بجنة من وئام ... غير رث العرا وسعى وكد
واصفحوا عن هنات من كان منكم
رب هاف هفا على غير عمد
نحن نجتاز موقفاً تعثر الآ ... راء فيه ، وعثرة الرأى تردى
فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا ... جانبيه بعزمة المستعد
إننا عند فجر ليل طويل ... قد قطعناه بين سهد ووجد
وتجلى ضياؤه بعد لأى ... وهو رمز لعهدى المسترد
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا ... فالمعالى مخطوبة للمجد

٢ — وقال حافظ إبراهيم من قصيدة عنوانها « وداع الشباب » ، ولم تنشر فى ديوانه ؛ وكان حافظ يقيم سنى صباه بدار منعزلة قائمة بين المزارع بناحية الجيزة ، ثم تحول عنها إلى دار غيرها فى حى غير حيها ، ولبث أعواما لا يراها ، ثم مر بعد ذلك العهد الطويل بها فتنكرت له معالمها وقامت حولها دور شامخة ، وقصور باذخة ، وذهب عنها رواء البساطة الذى كان سر أنسها وحلاوة بهجتها ، والروح الذى يصل بينها وبين نضارة الحقول التى كانت محيطة بها ، والتى ازورت عنها فأسند الشاعر ظهره إلى جدار

مسجد أمامها ومرت به ذكريات الصبا الذى قضاه فيها ، فلبث طويلا وهو يبكى وينشد ما جاشت به فى هذا الموقف الرهيب شاعريته القوية المتحركة .

قال حافظ :

كم مر بى فيك عيش لست أذكره ومر بى فيك عيش لست أنساه
ودعت فيك بقايا ما علقت به من الشباب وما ودعت ذكراه
أهفو إليه على ما أقرحت كبدى من التباريح أولاه وأخراه
لبسته ودموع العـين طيعة والنفس جياشة والقلب أواه
فكان عونى على وجد أكابده ومر عيش على العلات ألقاه
إن خان ودى صديق كنت أصحبه أو خان عهدى حبيب كنت أهواه
قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به والهفتى ونضوب الشيب أغلاه
كم روح الدمع عن قلبى وكم غسلت منه السوابق حزنا فى حناياه
لم أدر ما يده حتى ترشفه فم المشيب على رغمى فأفناه
قالوا تحررت من قيد الملاح فعش حراً ففى الأسر ذل كنت تأباه
فقلت ياليته دامت صرامته ما كان أرفقه عندى وأحناه
بدلت منه بقيد لست أفلته وكيف أفلت قيداً صاغه الله
أسرى الصبابة أحياء وإن جهدوا أما المشيب ففى الأموات أسراه

الثورة الوطنية والفنية فى شعر أحمد محرم[1]

— ١ —

من حق الشاعر الكبير الخالد ، أحمد محرم ، على وطنه ، أن يذكره ، وأن يقدر فيه الشاعر الثائر ، الذى عاش لأمته ، وضحى من أجل حريتها وعزتها ومجدها أغلى التضحيات .

---

(١) احتفلت محافظة البحيرة ، بذكرى الشاعر أحمد محرم فى دمنهور عاصمة البحيرة ، فأقامت لذلك مهرجانا كبيراً فى سينما النصر بدمنهور استمر من ٢٧ إلى ٢٩ جمادى الأولى عام ١٣٨٣ هـ — ١٥ إلى ١٧ أكتوبر عام ١٩٦٣ م .

ثلاثة أيام كاملة عاشتها دمنهور فى أعيـــاد وطنية ، وهى تحتفل بذكرى الشاعر الكبير أحمد محرم شاعر الوطنية والثورة ، عليه رحمة الله (١٨٧٧ — ١٩٤٥) .

وقد امتلأت دمنهور بوفود الأدباء من جميع أنحاء الجمهورية العربية الذين قصدوا إليها .

فى اليوم الأول من المهرجان افتتحت حفلة الذكرى بآيات من القرآن الكريم ، ثم ألقى كلمة الافتتاح المحافظ وتلاه السكرتير العام للمجلس الأعلى للفنون والآداب السيد الأستاذ يوسف السباعى فنوه بالمهرجان والشاعر وطالب بتكوين الهيئة المحلية للآداب والفنون فى المحافظة ؛ ثم ألقيت قصائد من الشعراء : على باكثير وفضيلة الشيخ إبراهيم بديوى شيخ المعهد الدينى بدمنهور ، والشاعر محمود جبر والشاعر محمد القونى ؛ وألقيت بحوث عن الوطنية فى شعر محرم ، والخلق الفنى فى شعره والمقومات الفنية فى شعره للدكتور أحمد الحوفى والثورة الوطنية والفنية فى شعر محرم للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى وعبد الحى دياب والدكتور حامد حفنى داود . =

من حقه على بلاده — فى نهضتها التحررية العربية الكبرى — أن تحتفى بشعره ، الذى كان غذاء لثورتها ، وشعلة أضاءت لها الطريق إلى غايتها ، والذى نادى بالثورة وبشر بها قبل ميلادها بوقت طويل .

لقد عاش محرم عدواً للملكية والحزبية السياسية ، وللمحتل وأذنابه ، وللرجعية والإقطاع . حارب كل هذه الأركان المتداعية الواهية ، وحاربته حتى لفظ أنفاسه ، ولاقى ربه .

(ا) ذم الملوك الفاسدين ، وأزرى بهم ، وندد بفسادهم ، من مطلع شبابه إلى آخر حياته . فقال فى تصوير استبدادهم :

= وفى اليوم الثانى للمهرجان ألقيت قصائد للشعراء : محمود محمد حسن ، عبد الغنى سلامة ، محمد صابر عاشور ، عبد القادر العوا ، أحمد على السمرة ، موسى شاكر الطنطاوى ، محمد عثمان مصطفى ، وألقيت بحوث عدة ، منها بحث عن الثورة الاجتماعية فى شعر محرم للأستاذ محمد محمد الحوفى ، وبحث آخر عن الالتزام فى شعر محرم ، وقد ألقاه الأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى ، وبحث ثالث عن اللمحات الإنسانية فى شعر محرم وقد ألقاه الأستاذ فوزى عبد القادر الميلادى .

وفى اليوم الثالث للمهرجان ألقى الدكتور سعد الدين الجيزاوى بحثا عن القرآن الكريم فى شعر محرم ، وألقت حسنين محمود حسنين بحثا عن العامل والفلاح فى شعر محرم ، وألقى كلمات منها كلمة الأستاذ الشرباصى وقصائد بليغة ، من الشعراء عبد العليم القبانى ، السقا محمد عبد الشناوى ، كمال نشأت ، إدورد حنا سعد ، يس الفيل ، وألقى الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله كلمة فى تحية ذكرى الشاعر ، واختتم المهرجان الأستاذ أحمد الجبالى بكلمة ، حيا فيها ذكرى الشاعر كما حيا فيها وفود أدباء الجمهورية العربية المتحدة .

بغت الملوك على الشعوب وغرها عن تسوس تجاوز وسماح

وتحدث عن ظلمهم لشعوبهم فقال :

رأيت ملوك الناس لا ينصفونهم وخير الملوك المنصف المترفق
يقيمون صرح الظلم فى كل أمة إذا ملكوا والعدل بالملك أخلق(١)

ورأى أنهم يعيشون على حساب الشعب والضمير فقال :

كذب الملوك ومن يحاول عندهم شرفاً . ويزعم أنهم شرفاء
لا المجد مجـــد بعد ما عبثت به أيدى الملوك ، ولا السناء سناء
مالوا عن الشرف الصميم وأحدثوا ما شاءت الأوهام والأهواء
لوجاور الشرف الملوك لأورقت صم الصخور وضاءت الظلماء

وندد بعباس وخيانته الوطنية لمصر فقال :

ماذا بدا لك فاعتزلت صفوفنا أو أصبحت حرب الغزاة سلاما ؟
أتخون مصر وما تحول نيلها سما ، وما انقلب الضياء ظلاما ؟

(ب) وحارب كذلك الحزبية السياسية المستغلة الفاسدة ، فقال فى جناياتها على الشعب :

شعب بأيدى الجاهلين تقوده أهواؤهم قود الذليل الضارع(٢)

ودعا إلى الانفضاض من حول الزعماء الحزبيين ، فقال :

دعوا الزعماء إن لهم لدينا يدين بغيره الشعب الرشيد
إذا ذكروا الزعامة فهى دعوى يكيد بها الكنانة من يكيد

---

(١) ٢ : ٨٦ الديوان .
(٢) ٢ : ٦٧ الديوان .

وكان الشعار الحزبى يدعو إلى تمجيد الزعماء ، لا إلى البذل والفداء من أجل استقلال الوطن . فقال محرم يندد بهذا الشعار الزائف :

هو الحق الذى نسعى إليه ولسنا عنه ماعشنا نحيد
إذا لم يحفظ استقلال مصر فلا سعد يطاع ولا سعيد

(ج) وحارب محرم المحتلين حربا لاهوادة فيها ، فقال من قصيدته فى مأساة « دنشواى » يندد بالإنجليز وأعوانهم :

بنى التاميز كونوا كيف شئتم فلن ندع الكفاح ولن نلينا
خذوا أنصاركم إنا نراهم لنا ولقومنا الداء الدفينا
هم الأعداء لسنا من ذويهم وليسوا فى الشدائد من ذوينا
ذممنا عهدكم فمتى نراكم تشدون الرحال مودعينا ؟

ولقد شدوا الرحال عن مصر مرتين خلال عام واحد ، ولكن بعد وفاة محرم بإحدى عشرة سنة . ويقف الشاعر أمام الإنجليز وجها لوجه ، فيقول :

حماة النيل إن النيل عان يريد العدل والحكم النزيها
أسأتم فى سياستكم إلينا وتلك سياسة مانرتضيها(١)

ويخاطب أنصار المحتلين وأذنابهم ، وينذرهم ثورة الشعب ، وهو يتنبأ بها من وراء الغيب فيقول :

ياأيها الناس إن الله يأمركم ألا تكونوا لأهل الظلم أعوانا
إنى أخاف عليكم حادثاً جللا لاتملكون له رداً إذا حانا

---

(١) ٢ : ٦٧ الديوان .

ويذكر أذناب المحتلين بذنبهم وبلادهم فيقول :

وأشد أبناء البلاد عداوة من لايرى المحتل من أعدائه
هى فى جلالتها حمى أبنائه ومضاجع الماضين من أبنائه

(د) وحارب محرم الرجعية فى شتى صورها ، الرجعية الفكرية التى يقول عنها :

أيعجب قوما من أولى العلم أنهم
يسيرون بين الناس فى نوره عميا(١)

والرجعية الاقتصادية والاجتماعية التى شن عليها حربا لاهوادة فيها . فدعا إلى تعليم البنت فى زمن كانت الدعوة إليه فيه إلحاداً :

وجاهل ظن أن العلم منقصة للبنت ، فانتقص التعليم وانتقدا
مهلا فرب فتاة أهلكت بلدا بجهلها ، وعجوز أفسدت بلدا(٢)

وحارب الطائفية الدينية فى مصر ، فقال :

أسفى على المتباغضين وقد رأوا أن الفلاح تودد ووئام
شرعوا العداوة بينهم لم يوصهم دين المسيح بها ولا الإسلام(٣)

ومن أجل ذلك دعا إلى الإخاء الوطنى فى كثير من قصائده ، يقول :

الدين لله العلى وإنما دين الحياة تودد ووئام

---

(١) ٢ : ٨٠ الديوان .
(٢) ٢ : ١٧٦ المرجع .
(٣) ٢ : ٤٧ « «

إن كان للواشى المفرق مأرب فلنا كذلك مأرب ومرام
أنظل صرعى والشعوب حثيثة ونعيش فوضى والحياة نظام
لا النيل إن رمنا الحياة بجاهل أنا لها ، كلا ، ولا الأهرام

ونادى بمحاربة الجهل وأكثر من تصوير جنايته على الأمة ، فقال :

الجهل أصبح داءها المودى بها ومن البلية أن تموت بدائها

وحارب الرشوة ، وصور أثرها على الشعب ، فقال يخاطب الموظف :

تتلت برشوة حقا ضعيفاً له من إثمها كفن ورمس(١)

ودعا إلى تصنيع بلاده فقال :

ابنوا المصانع شما تبلغون بها شأو الألى رفعوا شم العرانين
أينهب القوم آفاق الدنى صعدا ونحن مرعى الأمانى والأظانين

ودعا إلى حرية الصحافة فقال :

لاتظلموا الأقلام إن سبيلها عون الضعيف ونصرة المخذول

ونعى على صحافة المحتلين أكاذيبها وافتراءاتها فقال :

صحف يزل الصدق عن صفحاتها ويظل جد القول عنها نابياً(٢)

(هـ) وحارب الإقطاع وصـــور شرهه فى أكل حقوق الشعب المسكين فقال :

يامدمن الأعمال فى طلب الغنى لاتظلمن العامل المسكينا
أطعمت من دمه الخزائن جمة ولبثت تطعمه البلاء فنونا

---

(١) ٢ : ١٨٨ الديوان .
(٢) ٣ : ٩٨ المرجع .

وأنذر الإقطاعيين الثورة فقال :

إنى أرى خلل الحوادث موقفا جللا يقيم قيامة المثرينا
مهلا موالينا أيجمع واحد ما لو تفرق جاوز المليونا ؟
ونظل لانرجو نظاما صالحا يقضى الحقوق ولا نرى قانونا

وقال فى جناياتهم على الشعب :

أضروا الشعب واستلبوا قواه وآفة كل شعب مترفوه

— ٢ —

ولقد حاربته كل هذه الأركان التى كان يقوم عليها بناء مصر آنذاك ، حاربته الملكية البائدة ، والحزبية الفاسدة ، والرجعية الماكرة ، والإقطاع المتنمر ، وحاربه المحتلون ، وأذنابهم كذلك . . . فعاش طول حياته فقيرا بائسا محروما ، حتى يقول فيما يقول :

ظمئت وفى فمى الأدب المصفى وضعت وفى يدى الكنز الثمين
لربى ماعملت وعند قومى ديونى حين تلتمس الديون

ويصور حنق هذه الأركان المتداعية عليه فيقول(١) .

سبحان ربى هل هممت بمفظع أم جئت أمرا فى الزمان عجابا
ما كان إلا أن مررت بمنكر فنهيت عنه وقلت فيه صوابا
إن الغواة إذا هممت بنصحهم ألفيتهم متنمرين غضاباً

ويوبخ زمانه وعصره وقد جهلا مكانه ومنزلته فيقول :

ويلمه زمنا حلت به الأسى وشقيت فيه بكل خلق منكر

---

(١) ٢ : ٧٥ الديوان .

ويلده زمنا سيعرف موضعى
وبرى مكانى إن حييت ومظهرى
ولئن هلكت لتعلمن مكانتى أمم أنشرت لها زمان البحترى
أعليت فى الأمم الخوالى جدها
ورفعت رتبة عصرها فى الأعصر
قلم من الروح الذكى يمده ماشاء ربك من نطاف الكوثر(١)

ويبين بعد مذهبه ودعوته الوطنية عن مذاهب من حاربوه ودعواتهم فيقول :

دعونى وما أرضى لنفسى وجنبوا
هواى هواكم ليس مذهبنا معا
لكم شأنكم إنى أرى غير رأيكم وإن لنفسى دونكم متطلعا
سأسكت حتى ماأرد تحية وأبعد حتى ماتروا لى موضعا(٢)

وتعرض عليه المناصب والأموال ليسكت فيقول :

ولست ببائع نفسى ودينى ولو أوتيت ملك المشرقين
سأملأ هذه الغبراء مجدا وأترك أهلها صفر اليدين
على التاريخ بعد الموت حق وعند الله يوم الدين دينى(٣)

ويفضل البؤس والحرمان على خيانة أمته فيقول :

ما أبالى حين تسمو أمتى من هوى من بعد هذا أوسما

---

(١) ص ٤٠ محرم شاعر العروبة والإسلام للأستاذ محمد إبراهيم الجيوشى ١٤٠ مشاهير شعراء العصر .
(٢) ٢ : ٧٥ الديوان .
(٣) ٢ : ٧٨ المرجع .

من أيادى الله أنى لم أخن عهدها الأوفى أريد المغنما
مرحبا بالبؤس من أسبابه عفة البائس عن أن يأثما
راودتنى عصبة عن حقها وأبى العرق الكريم المنتمى(١)

وحين يرى الأمور فى مصر لا تبشر بخير ، يقول فى حسرة دامية(٢) .

أكلف جد الأمر نفسى ولا أرى
سوى أمة خرقاء شيمتها الهزل
أردت لها عز الحياة فأعرضت تريد حياة ما يفارقها الذل

ولكنه لا يسخط على أمته ، بل يستغفر لها ولقومه ، فيقول :

أستغفر الله عن قومى وأسأله حظا لمصر من الخيرات موفوراً

وفى استنهاض همم العاملين من أجل مصر يقول :

أمن ركب العواصف أو ترقى إلى السبع الطباق كمن تردى
حياة الخاملين لهم عقاب فما أقسى العقاب وما أشدا

وتشتد به الحاجة ، ويعضه الحرمان ، فيقول فى ثورة عارمة :

وحدى حملت صروف الدهر فادحة
ماخاننى منكبى فيها ولا عضدى
وحدى بليت بنفس ليس يعجبها ما يعجب الناس من رأى ومعتقد
ولا يطيب لها إلا الذى كرهوا من مركب خشن أو مطلب نكد
وحدى شقيت بهذا الشعر أجعله أحدوثة الدهر أو أنشودة الأبد

---

(١) ٢ : ١٥٩ المرجع .
(٢) ٢ : ٨٠ الديوان .

أصوغه من شعاع الشمس ليس يحجبه
ستر من الحقد أو سور من الحسد

وحدى وفيت بعهدى والوفاء أذى ... يجنى على الروح ما يجنى على الجسد
من كان يمشى وراء الموت متئدا ... يبغى البقاء فإنى غير متئد

ولا يدرى محرم مكانه ووجوده ، فيقول فى حيرة :

وجودى لست لى فلمن تكون ... أسر أنت عن نفسى مصون ؟
وجودى ماعرفتك غير معنى ... تغلغل فى الخفاء فما يبين
غريق فى الظلام ولا مناص ... ولا حصن يلاذ به أمين
أقيم عليه سور من عباب ... تضل على جوانبه السفين
أطل ويضرب التيار وجهى ... فأين أنا أحر أم سجين ؟

— ٣ —

لقد عاش محرم لبلاده ، لوطنه ، لشعبه ، لأمته ، وامتلأ قلبه حبا لمصر الخالدة التى كان حبها سر همومه، والتفكير فى حاضرها سبب أدوائه ، فقال :

ولست وإن ظلمت أذم مصراً ... فمصر الهم والداء الدخيل

ويقول فى تصوير حبه لأمته :

فإن يسألوا ما حب مصر فإنه ... دمى وفؤادى والجوانح والصدر
لنفسى وفائى إن وفيت بعهدها ... وبى لا بها إن خنت حرمتها الغدر
أخاف وأرجو وهى جهد مخافتى ... ومرمى رجائى لاخفاء ولا نكر
هى العيش والموت المبغض والغنى ... لأبنائها والفقر والأمن والذعر
هى القدر الجارى هى السخط والرضا
هى الدين والدنيا هى الناس والدهر

ويفتدى مصر وطنه الحبيب بكل ما تملك يداه فيقول :

مصر الحياة وحبها الشرف الذى   بطرازه الغالى أدل وأعجب
نفسى وما ملكت يداى لأمتى   ومراة آبائى وما أنا منجب
أبنى إنك للبـــلاد وإنما   لك بعد والدك التراث الأطيب

ويهب لأمته حياته فيقول(١):

وهبت الصبا والشوق والحب والهوى
لمصر وإن لم أقض حق الهوى مصرا
بلاد حبتنى أرضها وسماؤها   حياتى وأجرى نيلها فى فى الدرا

ويؤكد أن مصر فى حياته كل شىء ، فيقول :

مصر الرخاء والنعيم والرغد   مصر الرفيق والصديق والولد
مصر النصير والظهـــير والسند
مصر الهوى ، مصر الصبا ، مصر الهرم

ويذكر أن حب بلاده تغلغل فى نفسه وأعماق قلبه ودمه وفؤاده فيقول:

فإن يسألوا : ما حب مصر ؟ فإنه   دمى وفؤادى والجوانح والصدر
تدفق فيها الوحى شعرا وإنما   سقانا بها النيل الذى كله شعر

ويقول يعبر عن ثقته بشعبه :

أقول لمصر مصـــر الحياة   حياة الغد الدائم المتصل
لقد جد شعبك فى شأنه   فما يتـــوانى وما يتكل

وفى إيمانه ببلاده ، وحنينه إلى استقلالها ، يقول(٢):

---

(١) ٢ : ١٢١ الديوان .
(٢) ٢ : ٩٣ الديوان .

وما المرء إلا قومه وبلاده فإن يذهبا يلق الأذى حيث يمما
وما من فتى تغشى المهانة قومه فيطمع أن يلقى من الناس مكرما
ولم أر كالأوطان أكبر حرمة وأكرم ميثاقا وأعظم مقسما
من العار أن تشقى بلادى وأسلما وكالموت أن يقضى عليها وأنعما
أحن إلى استقلالها وإخاله إذا ما رأينا الصدع أمرا محتما

ومن أجل حبه لمصر، أحب محرم النيل شريان حياتها، ومصدر رخائها، فذكره فى كثير من شعره، وأهدى إليه الجزء الأول من ديوانه، فقال:

فيانيل أنت المنى والحياة وأنت الأمير وأنت الأب
ويانيل أنت الصديق الوفى وأنت الأخ الأصدق الأطيب
وأنت القريض الذى أقتنى فيزهى به الشـــرق والمغرب

ولقد أحب محرم العمل الوطنى الشريف، ودعا إليه. فقال(١):

أشرع لأمتك الحياة ولا يكن لك فى حياتك غير ذلك مأرب
ما المرء إلا قومه وبلاده فانظر إلى أى المواطن تنسب

وكان محرم يغرس الإيمان بالوطن فى قلوب الشعب، ويقضى على الخرافة القائلة بأن مناهضة المحتل وأساطيله عبث، ومن أجل ذلك كان يؤكد فى مواضع كثيرة من شعره أن الحق قوة، والنصر له، وأن الضعيف الذى يقف الحق بجانبه هو القوى المنتصر إذا طلب حقه وجاهد دونه؛ يقول:

الحق أسطول الضعيف وجيشه إن شن حربا أو أراد مغارا

ويقول:

---

(١) ٢ : ١٠٦ المرجع.

لا تحسبن الحق صيحة عاجز الحق عزم صادق وجلاد

ونادى بالتضحيات الغوالى من أجل الوطن فقال :

نضن بمصر إن عدت العوادى ولكنا بأنفسنا نجود

وكم هتف محرم فى شعره بالجلاء ، ونادى به ودعا إليه ، وبشر به ، بقول فيما يقول :

هو الجلاء وإن ريعت له فئة يود ساداتهم لو أنهم خدم

لقد تنبأ محرم فى شعره بالثورة ، ثورة الشعب على الفساد السياسى ، وعلى الاحتلال والرجعية والإقطاع ، وكأنه كان يرى ويسمع من خلال الغيب صيحة الحرية تدوى على لسان « جمال عبد الناصر وصحبه الأبرار » فقال :

لابد للشعب مهما لان جانبه من وثبة تفزع الأفلاك والشهبا

وقال من قصيدته البعث المؤمل(١):

وما أنا من روح الإله بآيس وإن ملأ الهم الجوانح والصدرا

فيارب لا تبعث إلى منيتى إلى أن أرى البعث المؤمل والنشرا

وقد جاء البعث فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ فى عهد السادات . .

— ٤ —

هذا هو محرم فى ثورته الوطنية العارمة ، كان أسبق الشعراء إلى الإيمان بالثورة والدعوة إليها ، والتنبؤ بها ، الثورة من أجل مصر وحدها ، ومن أجل مستقبل شعبها الحر الأبى .

وكان محرم كذلك من أعظم الشعراء الداعين إلى القومية والوحدة العربية ، فقال فيما قال من شعره :

---

(١) ٢ : ٨٢ الديوان .

أمم العروبة جاء يومك فاعملى ... وإلى مكانك فانهضى وتقدمى
ضمى القوى وتجمعى فى وحدة ... عربية تحمى اللواء وتحتمى
هذا السبيل لكل شعب ما جد ... عالى اللواء إلى العروبة ينتمى
أمم العروبة جد جدك فانظمى ... من عقدك المنثور مالم ينظم
لك أن تسودى تحت رايتك التى
خفقت لها الدنيا فسودى واسلمى

وصور نكبة فلسطين فى كثير من قصائده فقال فيما قال :

فى حمى الحق ومن حول الحرم ... أمة تؤذى وشعب يهتضم
فزع القدس وضجت مكة ... وبكت يثرب من فرط الألم
يا فلسطين اصطليها نكبة ... هاجها للقوم عهد مضطرم

ومع عنصره التركى فلقد كان أحمد محرم عربى الروح والفكر واللسان، وكانت العروبة عنده كل شىء ، يتحدث فى شعره عن قضاياها ، ويدافع عن أمها المكافحة فى سبيل حريتها واستقلالها ، بل لقد تغلغلت روح العروبة فى كيانه ونفسه تغلغل الدم فى مسارب البدن ، حتى ليقول يرد على الذين قالوا له : مالك وللعرب ، ولست منهم فى شىء من النسب (١):

قالوا : هبلت أتبغى بينهم نسبا
هيهات مالك فى الأعراب من نسب
فقلت والشعر تنميني روائعه ... لولا الأعاريب قد عريت من أدبى

وكما عاش محرم شاعراً ، فقد عاش ثائراً ، حتى ليتحدث عن عاصفة فى ثورتها ، فيقول فيما يقول من قصيدة رمزية له :

حرة لم تعرف القيد ، ولا ... سمعت بالسجن فيما تسمع

(١) ٢ : ٤٢ الديوان .

وينظم قصيدة عنوانها « ثورة القدر » يتحدث فيها عن ثورة إبليس الخاطئة ـ وثورة القدر الحق عليه ، فيقول فيما يقول فيها :

ثورة خاطئـــة لو لم تقم   في ظلال العرش ماثار القدر

— ٥ —

ولقد كان شعر محرم أكبر مظهر لثورته ، ولروحه الثائرة الشاعرة ، إذ ثار على الفن وتقاليده في عصره ، ثار على الاحتذاء والتقليد ، وعلى بلادة العاطفة والانفعال ، وعلى ضعف التجربة الشعرية فيه . ثار على الأساليب الكلاسيكية الميتة ، والقوالب الشعرية الجافة ، وعلى المعاني الضعيفة المستخذية ؛ وحارب كل ذلك فيما حارب من عوامل الضعف في أمته وفي الشعر العربي ، الذي قلده أروع القلائد والآيات .

دعا محرم من مطلع شبابه إلى أن يكون الشعر تعبيراً جميلا لطيفاً ، ومعاني أنيقة شريفة ، فذهب في مقدمة الجزء الأول من ديوانه الذي ظهر عام ١٩٠٨ إلى أن آلتي الشعر رقة النفس ورسوخ العقل ، وأن من الضروري له حسن الأسلوب والصياغة وجودة النظم وجمال التركيب ، إلى تخير الكلم الرشيقة . وتخييل المعاني الأنيقة ، ويتحدث عن الشاعر وسماته ، فيقول :

مستبد يحسب الدنيـــا له   وهو خصم المستبد المحتكم
ينظر النظرة تستقصي المـــدى   وتريه النور يجري في الظلم
فيلسوف كشف الله له   عن خفايا كل سر مكتتم
فإذا ما أخذته لمحـــة   من جلال الفن أغضى واحتشم
هو عبد الفن والناس له   في حمى الفن عبيد وخـــدم
يسأل الأقوام : ماعنصره ؟   هـــو من نور وعطر ونغم
هـــو خلق بارع مما اصطفى   مبدع الكون وخلاق النعم

ولقد غذى أحمد محرم القصيدة العربية بالموسيقى الرائعة ، والغنائية

الساحرة ، وبالعاطفة الحارة القوية الصادقة ، وبالتجارب الشعرية العميقة ، وغذاها كذلك بالفكرة الوطنية الثائرة الملهمة ، وبكل المعانى والقيم الإنسانية الجميلة النبيلة ؛ وغذاها بالطبع والموهبة ، وبالديباجة المشرقة وبالأسلوب البليغ الرفيع العذب ، الذى هو مزيج من الكلاسيكية الجديدة ، والرومانسية الصادقة فى التعبير عن حياة الشاعر ونفسه ومختلف أحاسيسه ومشاعره ، وأجاد محرم الحديث فى الطبيعة ؛ ومن روائعه فيها قصيدته « الطبيعة وفتاة الريف » ، كما أجاد فى الحديث عن الفلاح ، وعن الحب ؛ وفى الوطنية والاجتماع ، وفى الحكمة والتأمل ، وفى التعبير عن وجدانه ونفسه ، وعن كل جديد مبتكر اهتدى إليه عقل الإنسان فى زمنه .

وكان أعظم جانب من جوانب شعر محرم هو شعره الدينى والإسلامى الذى بلغ الذروة فيه بالإلياذة الإسلامية التى نظمها فى سيرة الرسول الأعظم وحياته وجهاده وحروبه وبطولات أصحابه وتضحياتهم من أجل نشر رسالة الإسلام وتبليغها الناس كافة ؛ وفى الحق أن الإلياذة كانت من أعظم الأعمال الفنية فى الشعر العربى الحديث .

ولقد كان محرم كذلك من أسبق الشعراء إلى مزج الشعر بالقصة ، فظهرت النزعة القصصية واضحة غالبة على قصيدته ، ولعل محرم كان البذرة لفن إيليا أبى ماضى فى القصة الشعرية .

وقد طرح شاعرنا الصناعة اللفظية من شعره ، وساوق فيه بين اللفظ والمعنى ؛ بين الأسلوب والفكرة ، بين الطبع وموهبة الفن القادرة المصورة وأيد حركة التجديد فى الشعر ، ودعا إليها ، التجديد الذى يقوم على استلهام ما فى القصيدة الشعرية من عناصر وأصول ، وينهض بخصائصها الفنية ، ويحفظها من الجمال والمتعة والروعة والتأثير ، ولا يقوم على أشلائها ومن أجل هدمها .

لقد كان أحمد محرم أحد عمد الشعر العربى الحديث ، وكان هو وشوقى

وحافظ ومطران وشكرى مدرسة شعرية متكاملة البناء وكان يؤمن بالفن وسلطانه ، وبالشعر وسحره ، ومن ثم اتخذ منه لسانا يبين به عن أفكاره الوطنية والوجدانية والإنسانية النبيلة .

عاش محرم مضطهداً محروما من كل شيء ، ومات عن ثمانية وستين عاما ، وهو لا يجد القوت ولا أبسط أسباب الحياة ، معتزا بنفسه وفنه وكرامته ، وبوطنه وأمته ، أكبر اعتزاز . مات الشاعر الخالد ، والثائر الحر ، والوطنى الذى ألهمته بلاده وألهمها أجل الأفكار والمثل والمبادىء والرسالات ، والذى استمد أفكاره وروحه من أستاذه الإمام محمد عبده ، رحمهما الله .

التجديد فى شعر الرصافى

— ١ —

كانت المدرسة الشعرية السائدة فى عصر الرصافى هى المدرسة الكلاسيكية الموروثة عن أعلام التجديد فى الشعر العربى الحديث ، وفى مقدمتهم : محمود سامى البارودى فى مصر الذى قرأ التراث الشعرى القديم فى مختلف عصوره ، وتأثر بالشعراء الذى نشأوا فى أزهى عصور الشعر العربى كأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن الرومى والمتنبى والمعرى والشريف الرضى ومهيار وغيرهم ، ثم نظم قصائده محتذيا لهم فى الديباجة والبلاغة والرونق والمعانى والموضوعات ، فجدد بذلك القصيدة العربية ، وأحياها من موت الصنعة والركاكة والابتذال ، وجعلها مشرقة نضرة ، عليها طابع الجزالة والبلاغة والروعة ، وبذلك عد البارودى إمام المجددين فى الشعر المصرى الحديث .

أما فى العراق فكان عبد الغفار الأخرس (١٢٢٠ - ١٢٩١ هـ) ، وعبد الباقى الفاروقى العمرى (المتوفى ١٢٧٨ هـ - ١٨٦١ م) ، ومحمد سعيد الحبوبى النجفى (١٢٦٦ - ١٣٣٣ هـ : ١٩١٥) ، وكاظم الأزرى (١٢٥١ هـ) . وحيدر الحلى (١٢٤٦ - ١٣٠٤ هـ) ، وعبد الحميد الشاوى الحميرى ، يمثلون الشعر فى هذه الفترة كذلك تمثيلا واضحا ، وكان أشهرهم الحبوبى الذى اشتهر بموشحاته الغنائية وشعره الوجدانى ، والشاوى الذى اشتهر بوطنياته(١) ، وقد ردد هؤلاء الشعراء أخيلة الأقدمين ، ونظموا فى الأغراض القديمة ، مكررين معانى القدماء وصورهم الشعرية ، وكان فيلسوف الحركة الأدبية فى ذلك العصر فى العراق هو محمود شكرى الألوسى (١٨٥٦ - ١٩٢٤ م) صاحب كتاب « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » ، كما كان فيلسوفها فى مصر هو الإمام محمد عبده المتوفى عام ١٩٠٥ م .

---

(١) ٤٢ معروف الرصافى للواعظ ، ١٠١ و ١٠٢ الرصافى لطبانة .

انقسمت المدرسة الكلاسيكية إلى مدرستين مدرسة محافظة ومدرسة مجددة ، ومن أعلام الشعراء المحافظين فى مصر عبدالمطلب (١٩٢١) والرافعى (١٩٣٧) والقاياتى والجارم والكاظمى (المتوفى عام ١٣٥٥ هـ) وفى العراق الشيخ محسن بن عبد الغنى الخضرى (١٨٨٤م) والشيخ كاظم آل نوح وسواهما وهؤلاء المحافظون قلدوا القصيدة القديمة واحتذوها احتذاء كاملا وإن جددوا أحيانا فى الأغراض وبعض المعانى والأخيلة .

أما المدرسة الكلاسيكية المجددة فمن أعلامها فى مصر شوقى وحافظ وصبرى ومحرم ، وفى العراق الزهاوى والرصافى والصافى النجفى ومحمد رضا الشبيبى وغيرهم .

وهؤلاء نوعوا فى أغراض الشعر ، وزادوا فيه أغراضاً جديدة ، ولقحوه بمعانى الغرب وأخيلته ، ونظموا القصة الشعرية ، والقصة التاريخية ، والرواية التمثيلية ، وحافظوا على الأساليب والبلاغة القديمة .

ويقف الرصافى مع شعراء مصر : صبرى وحافظ وشوقى ومحرم ، وشعراء العراق : الزهاوى والكاظمى ومحمد رضا الشبيبى وعلى الشرقى ومحمد باقر الشبيبى وخيرى الهنداوى وأحمد الصافى النجفى وسواهم ..

وهذه الطبقة من الشعراء أثرت الشعر العربى المعاصر وجعلته يعبر تعبيرا صادقا عن كل مايتعلق بالمجتمع العراقى فى جميع شئونه ومشكلاته وآماله ،

وهذه النهضة الأدبية الجديدة فى العراق بدايتها هى عام ١٩٠٨ وهو العام الذى أعلن فيه الدستور العثمانى .

ثم ظهرت جماعات المجددين ، وفى مقدمتهم جبران والريحانى من أدباء المهجر ، ومطران وجماعة الديوان (شكرى والمازنى والعقاد) وجماعة أبولو (أبو شادى وإبراهيم ناجى وعلى محمود طه) وسواهم من الشعراء المجددين ، وهؤلاء يمثلون المدرسة الرومانسية فى الشعر العربى المعاصر وقد جددوا

فى شكل القصيدة الخارجى من حيث الصور الشعرية والموسيقى والقافية ، كما جددوا فى بنائها الفنى الداخلى من حيث فكرة الشاعر وعواطفه وأخيلته ومعانيه ، والتزموا الوحدة العضوية فى القصيدة ، وعلى الجملة غيروا القصيدة شكلا ومضمونا .

وتأثر الرصافى بحركة التجديد التى حملت رايتها المدرسة الكلاسيكية الجديدة ، والتى شاركها فى حمل رسالة الشعر .

كما تأثر بالمدارس الجديدة الأخرى كذلك وفى مقدمتهم جبران والريحانى من المهجريين وشكرى والمازنى والعقاد من المجددين .

ويضاف إلى ذلك عامل آخر وهو تأثره بشعراء الترك الكبار الذين كانت آثار المذاهب الغربية الأدبية فى شعرهم واضحة ، ومن أعلام شعراء الترك الذين تأثر بهم : نامق كمال شاعر تركيا ، الذى كان يعد أبا الوطنية فى العالم العثمانى وقد عاش فترة طويلة فى فرنسا ، وكافح كفاحا وطنيا مجيداً ونفى إلى قبرص ، وقد ذاعت أفكاره بين الشباب العربى الذى كان يتلقى تعليمه فى تركيا ، أو يعيش فيها لأسباب مختلفة ، وقد تأثر نامق بمونتسكيو وروسو وغيرهم وترجم كتاب (روح القانون) لمونتسكيو إلى التركية عام ١٨٦٧ م .

ومن الشعراء الأتراك كذلك عبد الحق حامد وقد عاصر نامق كمال ، وكان له كثير من القصائد والمسرحيات الوطنية ، ومنهم كذلك توفيق فكرت الشاعر التركى الكبير(١) . وعندما يقول الشاعر التركى نامق كمال يخاطب قبر السلطان عثمان فى بروسه :

أويان أرتق أويان أى حضرت عثمان ذى همت
أويا ندر كورنه حاله كيردى تاسيس اتديكك دولت

---

(١) ٧٣ - ٧٥ الرصافى لرؤوف الواعظ ، والأدب التركى .

يتش إمدادينه بى كس قالان أرباب إيمانك
يتش كه سر نكون أولدى لواى نصرت ملت

يقول الرصافى يخاطب صلاح الدين الأيوبى يستنهضه من قبره ليرى مافعله الجنرال اللنبى فى بيت المقدس :

حنانيك ياقبر ابن أيوب فانصدع   لينهض ثاو فى مطاويك مفضال
إليك صلاح الدين نشكو مصيبة   أصيب بها قلب العلا فهو مغتال

وقد ترجم الرصافى إلى العربية رواية (الرؤيا) للشاعر نامق كمال وطبعها عام ١٩٠٩ ببغداد ، وترجم نشيدا وطنيا وضعه بالتركية الشاعر التركى توفيق فكرت عقب إعلان الدستور وترجمه إلى العربية بنفس الوزن ، ووضع لحنه موسيقار عربى لبنانى هو « وديع صبرا » رئيس فرقة موسيقى البحرية العثمانية ، ونص ترجمة الرصافى هو :

نحن خواضو غمار الموت كشافو المحن
مالنا غير اكتساء العز أو لبس الكفن
نبذل الأرواح نفديها لإحياء الوطن
هل سوى الأرواح للأو طان فى الدنيا ثمن
ياضلالا الأولى لم يكونوا له الفدى
إن نمت نحن فلتعش ولتحيا أوطاننا(١)

وقد نظم الشاعر توفيق فكرت قصيدة هاجم فيها بعض رجال الحكم من المستغلين فى عهد جمعية الاتحاد والترقى سماها بما معناه فى العربية « مائدة النهب » وقد عربها الرصافى بتصرف ، وجعل عنوانها « من مطبخ الدستور » وهى :

---

(١) ٥٥٣ الديوان ، ١٩ ، ٢٠ الرصافى لمصطفى على .

كلوا يا أيها السادة كما تنكره العادة
كلوا من مطبخ الدستو ر أكل الساسة القادة
كلوا بالسبعة الأمعا ء حتى تنفدوا زاده
كلوا لاتخشوا الناس فإن الناس منقادة
كلوا لاتخشوا الدهر فأم الدهر قوادة(١)

وبجانب ذلك تأثر الرصافى فى شعره بحركة التحرر العثمانية التى قادها حزب الاتحاد والترقى العثمانى ، (٢) ، وبالحركات التحررية التى قامت فى العالم العربى ، وبالآراء الجديدة التى كان يقرؤها فى العلم والمعرفة فى المقتطف والهلال والمقتبس وغيرها (صـ ٤٤ مجلة الثقافة الجديدة عدد آذار سنة ١٩٥٩) .

ويضاف إلى ذلك ثقافته العربية التى تلقاها على يدى أستاذه محمود شكرى الألوسى (- ١٩٢٤ م) وقد تأثر به فى آرائه فى الإصلاح الدينى ، وفى مجال الوعظ والإرشاد ، وكان بدء شعر الرصافى فى مدح أستاذه الألوسى .

ويقول الرصافى : أتيت بهذه الأبيات صباحا إليه ، ولم أنشده إياها ، بل أعطيته الورقة التى كتبتها فيها ، وأنا خائف ألا تكون مقبولة لديه ، فقرأها جهرا ، بعد أن سألنى عن ناظمها ، وعلم أنها من نظمى ، وكان يقرؤها باستحسان ، وينظر إلى أثناء قراءتها بتعجب ، ثم قال . ولكن عادة الشعراء أن يتخلصوا من الشعر إلى ذكر الممدوح ، وأنت أهملت ذلك فمن تعنى بهذا المدح ؟ فقلت وأنا فى قبضة الخجل : إنى قصدت مدحكم ، وظننت أن تقديم

(١) ٥٤ الديوان .
(٢) صـ ٧٥ و ٧٦ الرصافى الواعظ

الأبيات إليكم كاف لإعلامكم أنها فى مدحكم واعتذرت(١) ، ويقول الرصافى: إن الذى أثار الشاعرية فى نفسه هو تأثره بما قرأ وحفظ من شعر الشواهد اللغوية والعربية(٢) .

وفوق ذلك كله فتجارب الشاعر فى الحياة ومواهبه الأدبية التى اكتملت على يدى أستاذه الألوسى ، ذلك كان عامـــلا من عوامل ميوله الشعرية وروحه الفنية .

وكان أستاذه الألوسى يقدمه للخطابة فى المناسبات المختلفة ، فلما جاء مندوب من جمعية الاتحاد والترقى إلى بغداد لحث الناس على الانضمام إلى الجمعية وعلى الاتحاد والسعى فيما يرقى بالبلاد ، وكان معه رسالتان من الزعماء الاتحاديين فى تركيا ، عقد اجتماع شعبى كبير فى جامع الوزير حضره كثير من أعيان بغداد وعلمائها وأدبائها يتقدمهم الألوسى والزهاوى وعبد اللطيف شيبان ، فقدم الألوسى تلميذه الرصافى لإلقاء خطبة شيخه(٣) وفى الديوان بيتان للألوسى رثى بهما الشاعر شيخه وهما : واشيخاه(٤) ، وفى موقف الأسى(٥) ، وفيهما يتحدث عن علمه وأدبه .

هذه العوامل العديدة أثرت فى شاعرية الرصافى وشعره تأثيرا كبيرا ، ومن ناحية أخرى ظهر تأثير أمين الريحانى فى أدبه وهو من أدباء المهجر المجددين ، وذلك واضح ، إذ أن الريحانى (١٨٨٣ - ١٩٤٢) كان صديقا حميا للرصافى ، وللرصافى فيه ثلاث قصائد هى فى ديوانه ، وهى :

١ — تجاه الريحانى أو شكواى العامة(٦) وقد أنشدها فى تكريم الريحانى فى بغداد ١٩٢٣ .

---

(١) ٦٢ الرصافى للواعظ ، ٤٥ الرصافى لطبانه ، ٢٢٣ ذكرى الرصافى للرشودى (٢) ٤٥ الرصافى لطبانه .
(٣) ج ٦٢ الرصافى للواعظ (٤) ٣٠٤ الديوان .
(٥) ٣٠٦ الديوان . (٦) ص ٤٢٩ الديوان .

٢ — تجاه الريحانى (هى النفس (١)) وقد أنشدها فى بيروت فى حفل أقيم لتكريم الريحانى بعد رجوعه من سياحته فى بلاد العرب .

٣ — تجاه الريحانى أو شكواى الخاصة(٢) .

وقد ترجم الريحانى للرصافى فى كتابه « ملوك العرب » ، وأشار إليه فى كتابه « قلب العراق » ، وكانت المودة متبادلة بينهما .

ومن حديث أدبى للرصافى مع مجلة الحرية لصاحبها رفائيل بطى سأله بطى : ماتقول فى الشعر المنثور الذى ابتدعه الريحانى والشعر المرسل ؟ وأجاب الرصافى بأن الشعر لابد فيه من الوزن والقافية وأجاز تعدد القوافى كما فى نظام الموشحات ، وقال : « وقصارى القول أنى وإن كنت لم أطلع على الشعر الأفرنجى لعدم معرفتى لغة أجنبية فقد اطلعت على المتفرنجين من شعراء الأتراك الذين قلدوا شعراء الأفرنج تقليدا مطلقا ، ومشوا فى أشعارهم على آثارهم . واتبعوهم فيها ، فلم أر شعرهم خاليا من الوزن ولا من القافية ، وإنما هم يبعدون فيها ويتجوزون ، وجل مايتجلى لى من هذا الشعر الذى يسميه صاحبه بالمرسل إنما هو اقتران الرعونة بالغرور وطلب السمعة من وراء البدعة ، وأما الشعر المنثور العارى من الوزن والقافية فهو شعر بالمعنى الأعم ، أى هو شعر بمعانيه ، وهو تقليد للشعر المنظوم ، وحبذا لو سمى الشعر المنثور بالشعر الصامت لعدم اقترانه بالغناء (٣) .

وطبعا لن يتعدى تأثير الريحانى وإخوانه من أدباء المهجر فى الرصافى جانب المعانى والأخيلة بأى حال من الأحوال : ويقول الرصافى (٤) :

---

(١) صـ ٤٤٠ الديوان .   (٢) صـ ١٤٢ الديوان .

(٢) مجلة الحرية ، ١٩٢ ، وراجع صـ ٢٢٨ وما بعدها من كتاب ذكرى الرصافى للرشودى .

(٤) صـ ٢٦ ذكرى الرصافى للرشودى، من محاضرات فى الأدب العربى للرصافى ط ١٩٢١ .

رأيت لجبران عدة رسائل من الشعر المنثور نحا فيه منحى أهل الغرب فى الشعر الأفرنجى ، وأعرف أمين الريحانى اجتمعت به فى داره فأنشدنى من الشعر المنثور مايزرى بعقود النحور وابتسام الثغور ، ويقول(١): اشتهر بالشعر المنثور فى عصرنا رجال منهم الريحانى وجبران ، وهذان الشاعران وإن كانا مجيدين فى صناعتهما إلا أنهما ليسا من المبتدعين فيها على ماأرى ، بل من المتبعين لأهل الغرب والمقتبسين من آدابهم .

وفى الديوان قصيدة عنوانها (فى رحلة (٢)) نظمها الرصافى عام ١٩٢٢ وأنشدها فى حفل أقيم له وللريحانى ويقول الرشودى: إنه كان بين الرصافى والريحانى صلات وثيقة قديمة ، فلما زار فيلسوف الفريكة العراق سنة ١٩٢٢ كان الرصافى فى طليعة المحتفلين به(٣) .

وخطب الرصافى فى حفلة الحزب الحر العراقى لتكريم الريحانى فقال : ليس الريحانى فى حاجة إلى الثناء ، إنه فيلسوف عرف الحقيقة منذ نعومة أظفاره ، تعرفت به قبل ثلاث عشرة سنة ولا أنسى تلك الليلة التى بتها فى داره(٤) ، وقد كتب الريحانى عن الرصافى فى كتبه ، وقد زاره الريحانى فى الفلوجة ، ولما كتب الريحانى عنه فى كتابه «قلب العراق» ماكتب نشر الرصافى كلمة فى جريدة بغدادية ينفى فيها مانسبه إليه(٥) .

— ٢ —

ولننظر إلى آراء الرصافى فى الشعر لنقف على العوامل التى أثرت فى شعره وفى حركة التجديد الشعرى عند شاعرنا .

---

(١) صـ ٢٦ ذكرى الرصافى للرشودى ، دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية للرصافى صـ ٤٨ (٢) صـ ٨٧ الديوان .

(٣) صـ ٢٩ ذكرى الرصافى للرشودى .

(٤) ٣٠ المرجع (٥) صـ ٣١ و٣٢ المرجع

(ا) يرى الرصافى أن دعامة الحياة الأدبية هى الشعر ، فنصيب كل أمة من الحياة الأدبية ورقيها فيها إنما هو نصيبها من الشعر ورقيه فيها ، فالشعر هو المقياس الوحيد الذى تقاس به الحياة الأدبية فى كل أمة (١) .

والشعر فى اتجاهاته الحديثة أخذ يصور لنا أشياء كثيرة من صور الحياة على اختلاف ألوانها ومنازعها ، إلا أن الشعر الحديث لم يزل فى اتجاهاته محدودا أيضا ، فهناك من مناحى الحياة ونواحيها مالم يجرؤ الشعر بعد على تصويره إذ يمنعه عن ذلك التقاليد والعادات(٢) .

وهو فى طريقه إلى الازدهار والتقدم برقى الحياة السياسية(٣) ، وليس التجديد فى الشعر بتقليد الغربيين ، بل بتصوير الحياة تصويرا يطربنا(٤)

(ب) كيف بدأ الرصافى نظم الشعر :

يقول الرصافى : كنت أدرس العربية على أستاذى محمود شكرى الألوسى وانا دون العشرين ، حتى حفظت ألفية بن مالك وقرأت لها عدة شروح وكنت مولعا بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم ، لحفظتها ، وكنت قوى الحافظة ، حتى حفظت شيئاً كثيرا من هذا القبيل بحيث إن أستاذى كان يلقبنى بالشواهدى ، وكنت أشعر بميل شديد إلى الشعر لشدة تأثيره فى ، وبينما أنا فى درس ألفية ابن مالك نظمت فى إحدى الليالى أكثر من عشرة أبيات وجهت الخطاب فيها إلى شيخى وضمنتها شيئا من مدحه دون أن أذكر اسمه فيها(٥) ، ثم مضى زمن وأنا أنظم البيت

---

(١) صـ ٢٢١و٢٢٢ ذكرى الرصافى للرشودى .
(٢) صـ ٢١١ المرجع .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) مغزى كلام الرصافى صـ ٣١٢ المرجع .
(٥) صـ ٢٣٢ و٢٢٣ المرجع السابق .

والبيتين والثلاثة ولم أطلع أحدا حتى جاءنى الحب فنظمت شيئا كثيرا من الغراميات وكان الذى أنظمه لايزيد على خمسة أبيات أوستة وقد جمعت ذلك فى كراسة مع بعض المقاطع الهجائية غير أنى لما تقدمت قليلا فى الإجادة فى نظم الشعر مزقت تلك الكراسة(١) ، وبعد ذلك أخذت أنظم الشعر فيما أشاهده من الحادثات اليومية وكانت مشاهد البؤس من أشدالدواعى عندى إلى نظم الشعر(٢) .

(ج) وكنت أشد ولوعا بنابغة بنى ذبيان لأنى أرى فى شعره أقصى ماوصل إليه الكلام من دجات البلاغة(٣) ، وبأبى الطيب وأبى العلاء ، لأنى لم أر شاعرية تعلو على شاعرية المتنبى ، ولأن المعرى كان أمة وحده بفلسفته العليا وحكمته الناصعة(٤) : وقال فيه إنه شاعر البشر (٢١٨ الرصافى لمصطفى على) .

(د) الشعر العصرى لم يبلغ بعد غايته المطلوبة لأن العرب أنفسهم لم يبلغوا بعد غايتهم المطلوبة لافى العلم ولافى غيره من مظاهر العصر الحاضر ، ومن أسباب قصوره عن بلوغ غايته قصور لغته عن تلك الغاية(٥) ، ولابد أن يكون للشعر العربى مستقبل باهر إذا توفرت له أسباب التقدم والرقى(٦) .

---

(١) المرجع نفسه .
(٢) صـ ٢٢٤ المرجع ، ٤٤و١٧١ الرصافى لطبانة .
(٣) ٢٢٥ المرجع ١١٧ الرصافى لمصطفى على ، صـ ٢٠ دروس فى تاريخ الأدب للرصافى .
(٤) ٢٢٥ ذكرى الرصافى .
(٥) ٢٢٧ المرجع .
(٦) ٢٢٨ المرجع .

(هـ) وإنى أفضل حافظا بنقاوة ألفاظه وصدق تراكيبه ووضوحها ؛ وأفضل أحمد شوقى ببعض معانيه أحيانا(١) .

(و) الشعر لابد فيه من الوزن والقافية ، فالشعر المرسل إنما هو اقتران الرعونة بالشعور(٢) ، وأما الشعر المنثور العارى من الوزن والقافية فهو شعر بالمعنى الأعم ، أى شعر بمعانيه ، فهو تقليد للشعر المنظوم من جهة الغاية المقصود به ، وأنا أستحسن الشعر المنثور لأنه خير واسطة لإثبات القرائح ، وإثارة العواطف لاغير ، إلا أنى لا أفضله على الشعر المنظوم(٣) ، إن حقيقة الشعر قائمة بالوزن لأنه بالوزن وحده يصلح للغناء .

(ز) سمعت بعض المجددين من أدباء الترك فى الآستانة يقولون : إن الأدب لاغاية له ويتوسعون فى هذا القول حتى يعموا به مايسمونه بالصناعات النفسية أو الفنون الجميلة ، وهى الشعر والموسيق والرسم والنحت ، فالشاعر إذا قال قصيدة كانت غايته تلك القصيدة ، ولقد تأملت هذا القول فلم أجد له محصلا ينطبق على المعقول ، إذ لاريب أن الغاية هى مايكون لأجله وجود الشىء فهى إذن علة الوجود ، والشىء ليس علة لنفسه . فإذا قال الشاعر قصيدة فليس من المعقول أن تكون القصيدة نفسها هى الباعث له على قولها . وسألت عن تحقيق معنى هذا القول بعض من يقولونه فلم يجيبوا بما يشفى الغلة ، ثم إنى اطلعت على كتاب فى علم النفس نقله من الفرنسية إلى التركية نعيم بك البابان مدرس علم النفس فى دار العلوم بالآستانة فقرأت فيه بحث قولهم « الصنعة للصنعة » ، وعلمت منه أن ليس معنى هذا القول أن الفنون الجميلة لاغاية لها ، بل معناه أنها لاتحتاج فى وجودها إلى مادة خارجة عن غايتها فإن الشاعر إذا قال شعرا لايحتاج فيه إلا إلى استعمال الكلمات

---

(١) ٢٢٨ المرجع .
(٢) ٢٢٩ ذكرى الرصافى ، ٢٥٦ الرصافى لطبانة .
(٣) ٢٣٠ المرجع .

وهى غير خارجة عن الغاية المقصودة منه ، بل هى نفس تلك الغاية ، لأن غاية الشاعر من شعره إثارة العواطف والتأثير فى النفوس ، والكلمات التى يستعملها فى شعره ليست خارجة عن هذه الغاية ، بل هى الغاية نفسها لأنه متى تكلم بتلك الكلمات ، وأنشدها السامعين ، فقد حصلت غايته المطلوبة هذا معنى قولهم « الصنعة للصنعة » وهو معنى صحيح لاغبار عليه ولا يلزم أن الأدب ليس له غاية كما يقولون(١) .

هذا إلى تأثره بالزهاوى وشوقى وبعض الشعراء الآخرين كما تأثر بالسموأل فى قصيدته (إلى الأمة العربية ـ الديوان ص ٢٩٤) .

(ح) وفى قصيدته «الفنون الجميلة»(٢) يتحدث عن صلة الشعر بالموسيقى وغيرها من ألوان الفنون الجميلة .

وفى قصيدته (الصديق المضاع(٣)) يقول الرصافى :

ولست على شعرى أروم مثوبة ... ولكن نصيح القوم جل مراميا
وماالشعر إلا أن يكون نصيحة ... تنشط كسلانا وتنهض ثاويا
وليس سرى القوم من كان شاعرا ... ولكن سرى القوم من كان هاديا

وفى قصيدته (بعد البين(٤)) يقول الشاعر :

تركت من الشعر المديح لأهله ... ونزهت شعرى أن يكون قزاعا
وأنشدته يجلو الحقيقة بالنهى ... ويكشف عن وجه الصواب قناعا
وأرسلته عفوا لجاه كما ترى ... قوافى تجتاب البلاد سراعا

---

(١) دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ، ٢٩ : ١ مطبعة دار السلام فى بغداد ١٩٢٨ .
(٢) ص ٨٠ الديوان .
(٣) ص ١٢٢ الديوان .
(٤) ص ١٢٦

وفى قصيدته (عتاب وولاء(١)) يذكر الشعر وأنه لابد أن ينبض به الشعور (٢) .

وفى قصيدته (مناجاة وشكوى (٣)) يذكر الشعر ورسالته .

وفى قصيدته (خواطر شاعر (٤)) يقول الرصافى فيها يقول عن الشعر :

وما الشعر إلا كل ما رنح الفتى كما رنحت أعطاف شاربها الخمر

وفى ديوان الرصافى قصيدة عنوانها (أنا والشعر (٥)) يؤكد فيها جنوحه فى الشعر إلى الفكر والمعانى وتأمل أسرار الحياة .

وفى قصيدته (على البوسفور(٦)) يقول :

فياشعراء القوم كفوا وغاكم فشرح الملافى بعض شعرى ملخص

وقصيدته (شاعر البشر (٧)) فى المعرى تدلنا على روحه الشعرى فهو يحب شعر الفكر والفلسفة والمعانى ، وكذلك قصيدته « المتنبى »(٨) يعنى فيها بالحكمة والقدرة البيانية والمعانى مع حسن الألفاظ والأساليب .

إلى غير ذلك مما ردده الرصافى فى ديوانه عن شعره هو وعن شاعريته ، ومما يوضح لنا مذهبه الفنى وضوحا كاملا ، وكان الرصافى يقول : أنا نفسى

---

(١) ص ١٧١ ديوان الرصافى .
(٢) ص ١٧٢ المرجع .
(٣) ص ١٧٥ « « .
(٤) ص ١٨٢ « « .
(٥) ص ١٩٦ ديوان الرصافى .
(٦) ص ٢١٧ المرجع .
(٧) ص ٢٦٩ « « .
(٨) ص ٢٧٤ « « .

آية شعرية ، أو قل آية إلهية ساعة أنظم الشعر وأجيد(١) .

وما أصدق مايقول الشاعر الرصافي فى شعره :

طابقت لفظى بالمعنى فطابقه | خلوا من الحشو مملوءاً من العبر
إنى لأنتزع المعنى الصحيح على | عرى فأكسوه لفظا قد من درر
وأجود الشعر مايكسوه قائله | بوشى ذا العصر لا الخالى من العصر

ويقول الأديب العراقى هلال ناجى : إن الرصافى والزهاوى كانا من شعراء المعانى لا الألفاظ ، يقول الدكتور طه حسين(٢) : « من شعرائنا من تكره طبيعتهم هذا الكسل ، وتميل إلى القراءة والتفكير وتحب أن تظهر آثار هذا كله فى شعرهم ، وأذكر منهم فى مصر مطران والعقاد ، وفى العراق الرصافى والزهاوى . . بل إن الرصافى ليصرح بذلك فى شعره غير مرة ، وكذلك فعل الزهاوى فقال(٣) : « ومايؤسفنى شىء كعناية الشعراء باللفظ أكثر من عنايتهم بالمعنى الذى صيغ اللفظ لأجله ، فالمعنى هو الجسد واللفظ لباسه »(٤) .

ومن ذلك كله نقف على العوامل الفعالة التى أثرت فى التجديد الشعرى عند الرصافى ، أما حقيقة هذا التجديد فسوف نقف عندها طويلا لنتأمل مدى التجديد الشعرى عند شاعرنا الكبير .

---

(١) ص ١٩ ذكرى الرصافى الرشودى .

(٢) السياسة الأسبوعية ١٩٢٧ .

(٣) شعراء العصر ج ٢ ـ محمد صبرى ـ طبع ١٩١٢ .

(٤) ص ٧٥٧ و ٧٥٨ مجلة العرفان مجلد ٥٠ جزء ثامن شوال ١٣٨٢ هـ من مقال لهلال ناجى عنوانه « الأدب المعاصر فى العراق » .

- ٣ -

الصياغة الشعرية عند الرصافي :

الصياغة الشعرية نريد بها هنا مايشمل الاسلوب والأخيلة وغيرها مما يتصل بالأسلوب ، وهى قريبة مما يقوله بعض الدارسين : « السبك العام للقصيدة(١) » الذى يشمل الصياغة والموسيقى ، ويجعله يوسف عز الدين كذلك شاملا لوحدة الموضوع(١).

وكان الرصافى ثائرا على قيود الشعر وإن كان ملتزما لها ، ينحو منحى الجاهليين فى النظم والوزن والقافية(٢) ، وقلد كثيرا من الشعراء فى القالب الشعرى وفى البديعيات(٣) .

ويقول رئيف خورى إن سبك الرصافى يجرى على السن القديم(٤) ، ويقول صلاح خالص : إن الرصافى لم يستطع قلب القوالب الشعرية القديمة(٥) ، ويقول محمد شرارة : ظهر الرصافى فى وقت كان الشعر العربى لايزال يجتر الخيال القديم(٦) ، ويقول إبراهيم السامرانى : الرصافى حين يغرب فى لفظة وحين يعرض عليك صورا قديمة وفيها المنهج التقليدى لنظم القصيدة العربية إنما يقابل هذا سهولة عجيبةفى القصيدة نفسها حتى كأنك تقرأ مقالة فى صحيفة يومية من صحف هذا الزمان(٧)

---

(١) ٤٣ مجلة الثقافة الجديدة عدد آذار ١٩٥٩ - من مقال بعنوان (ثورة الرصافى) .

(٢) ص ١٥ عبقرية الرصافى .

(٣) ص ١٠ المرجع .

(٤) ٦٧ ذكرى الرصافى الرشودى .

(٥) ص ٥ من مجلة الثقافة الجديدة عدد آذار ١٩٥٩ .

(٦) ص ٣٢ المرجع السابق من مقال عنوانه «الرصافى والإبداع الفنى» .

(٧) ٢٦ مجلة الثقافة الجديدة من مقال عن الرصافى والتجديد اللغوى .

ويقول أيضا : المحافظة فى لغة الرصافى تظهر فى عرضه للصور القديمة كأن يقف على الأطلال أو يبكى الديار(١) ، وقصيدته « أم اليتيم » على نسج معلقة عنترة(٢) ، وقصيدته « العالم شعر » صورها الشعرية قديمة(٣) ، أما الدكتور يوسف عز الدين فيقول:كان الرصافى من أوائل الطليعة الواعية المتحررة التى تفاعلت مع الآراء الجديدة فترك قديم الألفاظ(٤) وهو بذلك يقف على طرفى نقيض مع الآراء السابقة ، وسوف أعلل لصحة كل من هذين الرأيين ، ويقول رفائيل بطى : إن مما امتاز به شعر الرصافى نصوع الديباجة(٥) ، ويقول جمال الدين الألوسى : تقرأ فى شعر الرصافى ديباجة أولئك الفحول وبلاغتهم العباسية(٦) .

إن الصورة الشعرية عند الرصافى مرت بمرحلتين :

الأولى طور التقليد وهو الطور الأول من حياته حتى قدومه إلى بغداد عائدا من الآستانة عام ١٩٢٣،وفى هذا الطور ، كانت صوره الشعرية قديمة ، وكان يحاول دائما احتذاء الشعراء القدماء وتقليدهم ومعارضتهم .

والطور الثانى أو المرحلة الثانية هى مرحلة التجديد فى صوره الشعرية ، ويمتاز أسلوب الشاعر فى هذه المرحلة بالاستقلال الفنى والسهولة والوضوح وقلة الإغراب :

فإذا أخذنا قصيدته « ذكرى لبنان »(٧) مثلا نجدها مثالا للأسلوب القديم السهل أسلوب البحترى ، وهى من القصائد التى نظمها قبل ظهور الجزء الأول من ديوانه عام ١٩١٠ لأنه وردت فى هذا الجزء ، ومطلعها :

برزت تميس كخطرة النشوان   هيفاء مخجلة غصون البان

---

(١) ٢٦ مجلة الثقافة الجديدة من مقال عن الرصافى والتجديد اللغوى .

(٢) ٢٧ المرجع .   (٣) ٣٨ المرجع .

(٤) ص ٤٢ المرجع .   (٥) ص ٢٩ ذكرى الرصافى للبدرى .

(٦) ٤٧ المرجع .   (٧) ص ٢٢٦ الديوان

وكذلك قصيدته (بعد الدستور)(١) ، وقد نظمها بعد صدور الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ ومطلعها :

سقتنا المعالى من سلافتها صرفا   وغنت لنا الدنيا تهنئنا عزفا

أما قصيدته (الجرائد)(٢) فتمثل جزالة الجاهليين وإغرابهم(٣) ومطلعها :

إذا شئت أن تسرى بكافرة الصوى   يدوى بقطريها هزيم الرواعد

إلى آخر هذه القصيدة ، التى نظمها قبل عام ١٩١٠ .

وفى عام ١٩١٠ أسس الشبان العرب فى الآستانة ، جمعية أدبية سموها (المنتدى الأدبى) وافتتحوه فى ٨ فبراير عام ١٩١٠ ، وأنشد الرصافى فى افتتاحه قصيدة عنوانها (إلى الشبان) (٤) ومطلعها :

أدب العلم وعلم الأدب   شرف النفس ونفس الشرف

وأسلوبها يميل إلى السهولة ولكن ليس عليه طابع الشخصية الفنية أو (ملكية العبارة) ، وقد استمر المنتدى الأدبى حتى عام ١٩١٢(٥) .وكان فى الآستانة العديد من مثل هذه الجمعية(٦) .

وبعد ذلك تقوم الحرب الطرابلسية الإيطالية ومن قصائد الرصافى فيها قصيدته (فى طرابلس) ص ٤٨٢ الديوان ، ومطلعها :

---

(١) ص ١١٣ المرجع   (٢) ص ٢٢٥ المرجع

(٣) يجعل خلوصى جزالة الرصافى شبيهة بجزالة دعبل « ص ١٢ عبقرية الرصافى »   (٤) ص ٦٥ الديوان   (٥) مجلة العرفان عدد ربيع الثانى ١٢٨٢ هـ   (٦) راجع ص ١٣٩ الشعر العراقى الحديث ليوسف عز الدين، والعدد ٣٠ السنة الأولى ١٩٢٣ من جريدة النهضة العراقية ص ٨٥ و ٨٦ ، وكتاب نهضة العرب الفصل ٥ و ٦ لجورج أنطونيس ، وثورة العرب مطبعة المقطم ١٩١٦ و ١ : ٥ الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد .

هو النصر معقود برايتنا الحمرا على أنه فى الحرب آيتنا الكبرى

والأسلوب أسلوب تقليدى كذلك ؛ وظل أسلوبه كذلك تنقصه الأصالة والموهبة الفنية ، فلما عاد إلى وطنه عام ١٩٢٣ وقد أحكمته التجارب وصقلت مواهبه الحياة أنشد قصيدته (إلى أبناء الوطن)(١) فى حفلة أقيمت له بعد رجوعه إلى بغداد عام ١٩٢٣ ، ويقول فى مطلعها :

سر فى حياتك سير نابه ولم الزمان ولا تحابه
وإذا حللت بموطن فاجعل محلك فى هضابه

وفيها يقول كذلك :

آب المسافر للديا ر على اضطرار فى إيابه
لو كان يجنح للإيا ب لما تعجل فى ذهابه
قد كان يمدح فى التغر ب بالحفاوة من صحابه
لا تعجبن لخامل ليس النباهة فى اغترابه
فالسيف أحسن مايكو ن إذا تجرد من قرابه
أما العراق فإن لى كل الرجاء بأسد غابه
ينجاب يأسى بالرجا ء إذا نظرت إلى شبابه

إلى آخر هذه القصيدة التى تدل على استقلال فى غريب وعلى ملكية كاملة للعبارة(٢) .

---

(١) ص ٧١ الديوان .

(٢) فى هذه الحفلة التكريمية أنشد الزهاوى قصيدته :

أرى فلقا يمحو الدجى ثم لا أدرى أمطلع فجر ذاك أم مطلع الشعر
أم اليوم قد هبت ترحب دجلة ببلبلها الغريد ، بالشاعر الحر
بمن أنجبته مفردا فى ذكائه فكان له اسم شاع فى البر والبحر =

وفى عام ١٩٢٥ يحتفل بالزعيم التونسى عبد العزيز الثعالبى فى بغداد ، فينشد الرصافى قصيدة فى الحفلة عنوانها (بين تونس وبغداد) ومطلعها :

أتونس إن فى بغداد قوما ترف قلوبهم لك بالوداد

والاستقلال الفنى فى الصور والأسلوب واضح لاشك فيها كذلك ، وكان الرصافى من أوسع الأدباء معرفة فى اللغة العربية . ولم يكن يقتنى سوى معجم « أقرب الموارد » (ص ٩ و ١٠ ذكرى الرصافى للرشودى من مقال لرفائيل بطى) . . على أن لغة الشاعر ليست قديمة(١) كما يقول إبراهيم السامرائى على الإطلاق ، ويخطىء السامرائى المغربى فى كلامه عن لغة الرصافى (فى مقدمة الديوان) بأنه كان فى مزيتى السهولة ونمنمة الديباجة شبيها بالبحترى(٢) ، ويقول السامرائى : إن الرصافى حين يغرب فى لفظه وحين يعرض عليك صوراً قديمة فيها كثير من الطبيعة العربية البدوية وفيها المنهج التقليدى لنظم القصيدة العربية إنما يقابل هذا سهولة فى القصيدة نفسها حتى كأنك تقرأ مقالة فى صحيفة يومية من صحف هـــذا الزمان ، ولا نستطيع أن نقارن بين منهج الرصافى هذا ومنهج البحترى(٣) ، وكلام السامرائى الأخير مصيب . . والذى نريد أن نقوله إن الرصافى أخذ يستقل بلغة شعرية خاصة به بعد أن مضت به الأيام ، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر منذ عودته من الآستانة ولا شك أن التقليد ثم الأصالة فى حياة الشعراء الفنية نتيجة طبيعية لحياة الشعراء ، ففى أول حياتهم الفنية يقلدون . وبعد ذلك يأخذون فى الاستقلال الفنى ، لأنهم فى المرحلة الاولى يحاولون الظهور

= بنور الهدى بالعبقرية بالعلى برب المعالى الغر بالأدب النضر

(ديوان الزهاوى — ، وص ٩٨ ذكرى الرصافى للرشودى) .

(١) ص ٢٥ مجلة الثقافة الجديدة — آذار ١٩٥٩

(٢) ص ٢٥ المرجع السابق ، و (هـ) ديوان الرصافى .

(٣) ص ٢٦ الثقافة الجديدة .

بمظهر القدماء فى البلاغة ، فيتعبون ويجهدون ، وفى المرحلة الثانية يحاولون إيصال فلسفتهم إلى الناس بأوضح عبارة وأيسر أسلوب ، وكذلك كان الرصافى ، وكان أناتول فرانس يقول : « إننى فى أول نشأتى كنت أنضح عرقا حتى أبلغ الأسلوب العالى الفخم ، وأما الآن فإنى أفر منه فراراً » ، وهـــذا الفرار نتيجة طبيعية لتطور ملكات الشاعر وتجاربه وأهدافه فى الحياة ، وكما يقول الرصافى :

إذا أنا قصدت القصيد فليس لى ... به غير تبيان الحقيقة مقصد

وقد لاحظنا أن استقلال الرصافى بعبارة فنية شعرية صحبه ترك الجزالة والإغراب وبداوة الأسلوب إلى لغة شعرية سهلة واضحة حتى لتصير إلى لغة خاصة بالشاعر ، وقد لاحظ ذلك الشيخ عبد القادر المغربى فى تقديمه لديوان الرصافى ، فذكر أن للرصافى تعابير خاصة به ونقده فى بعضها(١) ، وقد يكون ذلك هو ما يعنيه يوسف عز الدين حين يقول: إن الرصافى ترك قديم الألفاظ وعنى عناية خاصة بالمعنى وبالفكرة(٢) .

ويأخذ هذا الاستقلال الفنى فى الوضوح والتميز عند شاعرنا ، ففى قصيدته فى (رثاء شوقى(٣)) عام ١٩٣٢ م يقول :

الشعر بعد مصابه بكبيره(٤) ... فى مصر ، جل مصابه بأميره

نلحظ ذلك واضحا جليا .

---

(١) راجع ديوان الرصافى صفحة (ص ، ق ، ش) .
(٢) ص ٤٢ الثقافة الجديدة — آذار ١٩٥٩ م .
(٣) ص ٣٣٩ الديوان .
(٤) كبير الشعر فى مصر هو حافظ وكان قد توفى قبل شوقى بشهور ، إذ توفى فى يوليو ١٩٣٢ م ، وتوفى شوقى فى أكتوبر من العام نفسه .

وفى عام ١٩٢٦ م ينظم قصيدته (أبو الطيب المتنبى(١)) بمناسبة الذكرى الألفية للمتنبى ومطلعها :

كان (أبو الطيب) امرأ قوله   يبتكر الشعر مذكيا شعله

فنجد التميز الفنى والموهبة الخاصة واضحين تمام الوضوح وعلى هذا النهج قصيدته (ذكرى الكاظمى(٢)) التى نظمها عام ١٩٣٥ م .

وقبيل الحرب العالمية الثانية ينظم الرصافى قصيدته (نحن والحالة العالمية(٣)) وهى كذلك صورة لمرحلة الأصالة فى الصور الشعرية عند الرصافى ، وقصيدته (عصاى الفتية(٤)) من أواخر شعره ، وفيها أسلوب الرصافى المتميز بشخصيته الفنية .. وهذا التطور الفنى لم يلاحظه أو يشر إليه أحد من النقاد ، وقد لاحظ طبانة على عبارة الرصافى أنه لم يتحرز فيها من آثار العامية ، وأورد مثلا كثيرة لذلك(٥) ، ثم قال : إنه قد ينحدر إلى مادون لغة العامة(٦) ، وهذه لاتعيب الرصافى لأنه كثيراً ماكان يستعمل مثل هذه الألفاظ فى مقام السخرية أو التهكم أو الفكاهة أو المبالغة فى تصوير المعنى ، ومن مثل هذه العامية مما لم يشر إليه الدارسون للرصافى قوله من قصيدته (فى حفلة الميلاد النبوى) .

والدعاوى فى الحق منا كبار   طال فيها التزمير والتطبيل(٧)

---

(١) ص ٢٧٤ الديوان .
(٢) ص ٣٢٧ الديوان .
(٣) ص ٤٧٤ الديوان .
(٤) ص ٥٥٢ الديوان .
(٥) ٢٥١ و ٢٥٢ الرصافى لطبانة — الطبعة الثانية .
(٦) ص ٢٥٢ المرجع السابق   (٧) ١٧٧ الديوان .

وقوله من قصيدته (بعد براح الشام) :

وحوادث الأيام مثل نسائها في الحكم تطهر تارة وتحيض(١)

على أن في لغة الرصافي مايشير إلى صنعته الأولى كمعلم ؛ ومن مثل ذلك قوله :

قد بكته مدارس عامرات هو فيها المدرس المسئول

إنما قد ذكرت بعض مزايا وإلا فشرحهن يطول(٢)

ويشير طبانة إلى عدم احتفال الرصافي بالصنعة وإن لم يخل منها بعض شعره(٣) ، والرصافي هو القائل من قصيدته (ذكرى الخالصي(٤)) :

لست بالشاعر الذي يرسل اللفظ جزافا لكي يصيب جناسه

أنا لاأبتغي من اللفظ إلا ماجرى في سهولة وسلاسه

إنما غايتي من الشعر معنى واضح يأمن اللبيب التباسه

ويقول السامرائي : إن المحافظة في لغة الرصافي تظهر في عرضه للصور القديمة كأن يقف على الأطلال أو يبكي الديار ، أو أن ينصرف إلى همومه يستعين عليها بالشعر ؛ وفي كل ذلك يلتزم اللفظ العربي الأصيل الذي لا يأنف من الغريب . ويبدو التجديد في سهولته ويسر تناوله للموضوعات بلفظ هو ألصق بلغة الأخبار اليومية في الصحف المحلية(٥) ، ويذكر أن في شعر الرصافي مايمت بصلة إلى شعر الشواهد ، وأن عنده كلمات واستعمالات قديمة ، ويأخذ عليه عدة مآخذ لغوية(٦) .

---

(١) ص ٤٢٢ الديوان . (٢) ص ٢١٢ و ٣١٢ الديوان .

(٣) ص ٢٥٣ الرصافي لطبانة - الطبعة الثانية ، وهو كلام المغربي في تقديم ديوان الرصافي ص « ل » . (٤) ص ٣١٠ الديوان .

(٥) ص ٢٦ مجلة الثقافة الجديدة - آذار ١٩٥٩ م .

(٦) ص ٢٧ و ٢٨ المرجع السابق ، وكذلك ص ٢٩ .

— ٤ —

البناء الفنى للقصيدة عند الرصافى :

من الجدير بالذكر أن القصيدة عند الرصافى تسير على النمط الموروث فى بنائها الفنى :

١ — فهى عمودية لاتترك الوزن ولا القافية ولاروح القصيدة القديمة ، يقول طبانة « الرصافى مع ولوعه بالتجديد ومسايرة رأيه فى ضرورة مجاراة الشعر لروح العصر يرى أن مجال التجديد لا يتجاوز ناحية الأغراض والمعانى، أما شكل الشعر فهو من أنصار المحافظة عليه ، ولا يستطيع الخروج على الأوزان المأثورة أو التحلل من نظام القافية(١) » وقد سبق أن ذكرنا رأيه فى أن الشعر الحر ليس بشعر وكذلك الشعر المنثور والمرسل ؛ وقد نظم الرصافى من البحور الطويلة ومجزوءاتها ،أما البحور القصار فنادرة فى شعره :

٢ — والرصافى يلتزم فى قصيدته غالبا الوحدة الموضوعية وإن كانت قصيدته لاتمثل الوحدة العضوية للقصيدة كثيرا ، ويستشهد طبانة(٢) على وحدة القصيدة الموضوعية عند الرصافى بقصائده : « أم اليتيم - السجن فى بغداد - المطلقة - اليتيم فى العيد » من حيث تجده أحيانا يبدأ قصائده بالفخر كقصيدته (فى المعهد العلمى(٣)) ، وقصيدته (فى القطار(٤)) ، أو ببكاء الديار والأطلال كقصيدته (إلى القزوينى(٥)) .

٣ — أما معانى القصيدة عند الرصافى فهى تختلف باختلاف حياة الشاعر بين مرحلتى (التقليد ، والأصالة) فى شعره ، فى مرحلة التقليد

---

(١) ص ٢٥٥ الرصافى لطبانة .   (٢) ص ٢٣٦ المرجع السابق .
(٣) ص ٧٤ الديوان .   (٤) ٢٠٤ الديوان .
(٥) ص ٢٦٦ الديوان .

حاكى القدماء فى معانيهم ، وفى المرحلة الثانية - مرحلة الأصالة - ابتكر كثيرا من المعانى والأخيلة .

فمن مثل تأثره بالقدماء فى معانيه قوله :

وهل أنا إلا من أولئك إن مشوا   مشيت وإن يقعد أولئك أقعد

فهو من قول دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقول الرصافى :

أنا ابن دجلة معروفا بها أدبى   وإن يك الماء منها ليس يروينى

فهو من قول الشاعر القديم :

أنا ابن دارة معروفا بها حسبى

وقد يحاكى(١) عمر بن أبى ربيعة وامرأ القيس فى بعض شعرهما القصصى فى الغزل كما يقول فى قصيدته (الملم شعر) :

وبيضة خدر إن دعت نازح الهوى
أجاب : ألا لبيك يابيضة الخـــدر

إلى آخر أبياته فى هذا الغزل القصصى .

وقد مضى ذكر معان أخذها الرصافى من المعرى والمتنبى ، ويذكر طبانة (٢) بعض معان أخذها من المعرى فى قصيدته (نحن على منطاد)(٣)

---

(١) ص ٢٤٢ طبانة - الرصافى .
(٢) ص ٢٤٣ المرجع السابق .
(٣) ص ١٧ الديوان .

وقد سبق أن قلنا إن هذه القصيدة معارضة شعرية لدالية المعرى المشهورة في الرثاء :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ، ولا ترنم شاد

ويذكر طبانة أن قول الرصافي :

قد يحسب الإنسان آماله والموت مصغ نحوه يسمع

من قول المعرى :

ورب ظمآن إلى مورد والموت - لو يعلم - في ورده(١)

وأن قوله :

كل وجه الأرض للخلق قبور خفف الوطء على تلك الصدور

من قول المعرى :

خفف الوطء ماأظن أديم الأرض إلامن هذه الأجساد(٢)

ويذكر بعض المعاني الأخرى التي أخذها من القدماء (٣) ، كما يذكر معاني كررها الرصافي في شعره (٤) ، وبعض معانيه البكر(٥) ، وقد ذكر المغربي في تقديمه لديوان الرصافي الكثير من هذه المعاني(٦) ، ويقول المغربي ومعظم معانيه المبتكرة تجدها في وصفه الحياة الكونية ، وفي وصفه العوالم العلوية (٧) .

---

(١) ص ٢٤٤ طبانة .

(٢) راجع ص٢٤٥طبانة .

(٣)ص ٢٤٦و٢٤٧ طبانة .

(٤)ص٢٤٨ المرجع السابق .

(٥) ص ٢٣٩ المرجع السابع .

(٦) صفحة «ن، س» ديوان الرصافي . (٧) ص «ن» الديوان .

وقد ذكر طبانة بعض أخيلته الغريبة(١) أو استعاراته القبيحة كما سماها مجاريا للقدماء في هذه التسمية .

هذا وقد كان الرصافي من الشعراء الذين يرجحون جانب المعنى على جانب اللفظ كما سبق أن ذكرنا ، ويقول في ذلك يوسف عز الدين : عني الرصافي عناية خاصة بالمعنى وبالفكرة والرأي(٢) ، ويقول: كان يقرأ الآراء الجديدة في العلم والمعرفة.. في المقتطف والهلال والمقتبس وغيرها ؛ فازدادت ثقافته وتوسع أفق خياله(٣) .

ويرجع ثورته على اللفظ وعنايته بالمعنى إلى تأثره بجمعية الاتحاد والترقي المتأثرة بالثورة الفرنسية(٤)، وامتاز شعر الرصافي بنزعة التمرد على الظلم(٥) ويرى رئيف الخوري أن معانيه تستمد من الموارد العربية القديمة في الصورة والفكرة ، ولعل أبرز نقص في الرصافي عبارة ومعنى أنه كانت تعوزه صفة الناقد لنفسه ، وصفة الصابر على التوليـــد الفني ، وما يستغرق من وقت وتخمير(٦) . .

---

(١) ص ٢٤٠ طبانة .

(٢) ص ٤٢ مجلة الثقافة الجديدة ـ آذار ١٩٥٩م .

(٣) ص ٤٤ المرجع السابق .

(٤) ٤٥ المرجع السابق .

(٥) ص ٢٩ ذكرى الرصافي للبدري من كلمة لرفائيل بطي .

(٦) ص ٦٧ ذكرى الرصافي للرشودي .

— ٥ —

المحتوى الشعرى عند الرصافى :

١ — يقول شرارة : إن الرصافى ظهر فى وقت كان الشعر العربى لا يزال يجتر الخيال القديم ولم يكن لقضايا المجتمع وشئونه شىء يذكر . فلما ظهر الرصافى سمع الناس أنغاما جديدة عن « أم اليتيم » ، و « السجن فى بغداد » وما أشبه ذلك من الموضوعات التى لم تكن تخطر ببال الشعراء ، وكل هذه القصائد خطيرة المحتوى ، وقد تكون قصيدته « إيقاظ الرقود » التى تهكم فيها بالسلطان عبد الحميد أشدها خطراً(١) .

ويقول صلاح خالص : استطاع الرصافى أن يخطو خطوات واسعة فى تجديد موضوعات القصيدة وأفكارها ، فقد وضع فى هذه القوالب التقليدية تفكير الجيل الجديد ومثله العليا(٢) .

ويرى أن الرصافى وضع قاعدة الالتزام الحديث فى الأدب ، إذ جعل له رسالة نبيلة سامية هى رسالة الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب ، وحتم على الأديب أن يضع نفسه فى خدمة المجتمع ويستوعب آلامه وآماله وأهدافه ، يقول الرصافى :

إذا أنا قصدت القصيد فليس لى ‏ ‏ ‏ به غير تبيان الحقيقة مقصد

وقد وقف الرصافى فى الصراع الاجتماعى بجانب الشعب ؛ جانب أكثريته الساحقة ، جانب التقدم والعدالة الاجتماعية ، جانب الحرية والمساواة ،

---

(١) ص٣٢ مجلة الثقافة الجديدة آذار ١٩٥٩ م - محمد شرارة فى مقالته « الرصافى والإبداع الفنى » .

(٢) ص ٥ المرجع نفسه .

جانب القومية(١) ؛ ويقول يوسف عز الدين(٢) : كان الرصافى شاعراً ثائراً مجددا ، مهد لثورة شعرية رائعة لا تزال بعض آثارها قائمة ، وجعل الشعر للشعب وتحول من اللفظ للمعنى ، ويقول : إنه كان شاعراً مصلحا ثائرا على تقاليد المجتمع(٣) ، فشعره مزاج من فيض الشعور ومن ثقافة عميقة(٤) .

ويقول داود سلوم : لم يكن الرصافى شاعرا مجيدا فقط ؛ بل كان مفكراً اجتماعيا مجيداً ، له أفكاره الخاصة فى الشعر والمسرح والتمثيل والتصوير والغناء والتعليم(٥) ، ويقول الشيخ محمد رضا الشبيبى : إن الرصافى والزهاوى أسلوبا خاصا يظهران بموجبه الشعر فى موضوعات العلوم الكونية وبعض المسائل الطبيعية أو الرياضية(٦) ؛ ويعرض داود سلوم للقصة عند الرصافى باعتبارها محتوى جديداً(٥) ويعرض لها كذلك طبانة(٧) .

ويقول رؤوف الواعظ : إن مجال التجديد عند الرصافى لم يشمل إلا الأغراض والمعانى فحسب ، أما شكل القصيدة العام فقد كان حريصا أن يحافظ عليه(٨) .

---

(١) ص ٧ المرجع نفسه .
(٢) ص ٤٣ و ٤٤ المرجع نفسه .
(٣) ص ٤٥ المرجع السابق .
(٤) من مقالة بقلم جمال الدين الألوسى عن الرصافى ص ٤٩ ذكرى الرصافى للبدرى . (٥) ص ٩٢ تطور الفكرة والأسلوب فى الأدب العراقى الحديث لداود سلوم . (٦) ص ١٦ الرصافى لطبانة .
(٧) ٢٤١ المرجع السابق .
(٨) ٢٣١ الرصافى للواعظ ـ ولقد خاصم الرصافى مذهب الفن للفن وكرس جهوده لخدمة الشعب العراقى وهاجم نظرية الفن للفن فى كتابه « دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ـ ٢٩ ـ ١ : بغداد ١٩٢٨ م » ـ راجع ١٥ عبقرية الرصافى .

٢ — هذه آراء الدارسين فى المحتوى الشعرى أو المضمون عند الرصافى، ويكفى أن نحصى هذا المحتوى الجديد عند الرصافى ؛ وهو :

١ — القصة الشعرية .

٢ — الشعر الفلسفى والعلمى .

٣ — شعر الثورة والتمرد على الظلم والمناداة بالعدالة الاجتماعية .

٤ — الدعوة إلى تحرر المرأة .

أما ماعدا ذلك من محتويات شعره : كالوصف والرثاء ،والفخر والغزل والمدح والسياسة والاجتماعيات ، والحماسة والحرب ، وغيرها ، فهو قديم النزعة والعرض .

القصة الشعرية عند الرصافى :

يقول المغربى فى تقديمة لديوان الرصافى : إن للرصافى طائفة من القصائد ضمنها قصصا يخيل إلى سامعها أنها واقعية لاخيالية ، كقصيدة « الفقر والسقام » ، والمطلقة ، واليتيم فى العيد ، وغيرها ، وأدباؤنا المولعون بالتجديد يترقبون إحداث القصة فى النثر ، وهذا الرصافى قد سبق ، فأحدثها فى الشعر منذ أكثر من عشرين عاما(١) ، وبعد ذلك يشير المغربى إلى أن هذه القصص الشعرية التى نظمها الرصافى ليست من باب الملاحم ، ويتمنى ، أن ينظم الرصافى فى الملاحم كما نظم شوقى المسرحيات الشعرية ، ويشير المغربى إلى قصة الرصافى « أبو دلامة والمستقبل(٢) » .

ويقول داود سلوم : إن القصة فى شعر الرصافى أهم باب من أبواب

---

(١) ص « ع » ديوان الرصافى .

(٢) ص ٣٦٨ الديوان .

شعره ، فقد ترك لنا أوصافا عامة لجوانب عديدة فى المجتمع العراقى ، وأول قصة له « أم اليتيم » فى أم أرمينية مسيحية قتل زوجها فى عصيان المسيحيين ضد الترك ، أما « السجن فى بغداد » فهى صورة للحياة وأحوال السجن فى بغداد وقد نجح فى تصوير شعور السجناء الذين سجنوا فى سراديب السجن حيث لا أمل فى الخروج ، وقصيدة « المطلقة » عبارة عن وصف عواطف امرأة مطلقة أقسم زوجها على « طلاقها » .

أما « الفقر والسقام » فيحدثنا الرصافى فيها عن عامل يدعى « بشيراً » كان يعمل ويعول أخته « فاطمة » ولكنه أصيب بمرض القلب والمفاصل فاضطر إلى ترك العمل وكانت أخته تربح شيئا ضئيلا مما تغزل ولكن ذلك لم يساعدها كثيرا ، وساقهما الفقر إلى أن يشربا الماء فقط عوضا عن الطعام الذى لم يكن فى دارهما منه شىء ، وقد وضع الموت نهاية لشقاء « بشير » وبعد شهور وضع الموت نهاية أخرى لحياة «فاطمة» . وقصته الوحيدة ذات الأهمية الخاصة قصيدة « أبو دلامة والمستقبل » وهى كوميديا تصف شعراً حياة محب السلام الشاعر العباسى أبادلامة . والقصائد التى ذكرناها هنا هى نقطة انطلاق للتهجم على الحكومة التركية أو الطبقة الغنية ، كما فى قصيدة « المطلقة »(١) .

---

(١) ص ٩٢ و ٩٣ تطور الفكرة والأسلوب فى الأدب العراقى لداود سلوم .

الشعر الفلسفي والعلمي :

١ — في ديوان الرصافي باب كامل من الشعر أطلق عليه الشاعر اسم الفلسفيات ، وقصائده هي : خواطر شاعر - وجه ابن آدم - ما وراء القبر - لو - حقيقتي السلبية - حياة الورى - حبذا النوم - بين الروح والجسد - وهي قصائد تتسم بالنظرات العميقة ، والحكم العالية ، والروح الواعية ، على أنها ليست هي وحدها كل ما في الديوان من شعر فلسفي ، فطابع الفلسفة عام في كثير من شعره ، فأغلبه في الحديث عن النفس وما وراء الحياة ، وقد كان الرصافي في شعره يستمد شعره الفلسفي هو والزهاوي من المعري ، وإن فاقاه أحيانا في التصور والتفكير ، وهو في شعره التصويري يلجأ إلى الإمعان في الخواطر الفلسفية وتأمل الطبيعة ، ويشبه الرصافي المتنبي ، فهو شاعر معان ، وحكيم حجة وبرهان كما يقول المغربي في مقدمته لديوان الرصافي ، فهو في كثير من شعره ومواقفه يستخرج المعاني الدقيقة، ويضمن شعره الأمثال والحكم والتلميح إلى قضايا الفلسفة ، وحجج المنطق ومبالغاته والتهويل والغلو في الوصف ، مما هو أثر لأستاذيه: المتنبي، والمعري في شعره.

٢ — والرصافي شعر ضمنه إشارات إلى ما تقرر في العلوم الاجتماعية والعصرية والاختراعات الحديثة والفلك ، ومنه قصائده : تجاه اللانهاية - من أين وإلى أين - نحن على منطاد - الأرض - ألكني يا ضياء - معترك الحياة - في مشهد الكائنات - العالم شعر - كلمة معتبر ، وأغلب هذا الشعر يشمله باب « الكونيات » في ديوانه ، وقد تضمن كثيرا من النظريات الحديثة في العلوم والفلك والجغرافية ، وقد تأثر فيه بالزهاوي ؛ ويقول المغربي في مقدمته للديوان : إن هذا الشعر لو حول إلى نثر لكان من خير المقالات التي وصفت بها الكائنات وصفا منطبقا على آخر نظريات العلم الحديث ، ففيها بيان لوحـــدة المادة ، والجاذبة - والأثير والكهربية ، وأشعة رنتجن ، وفيها آراء دارون في النشوء والارتقاء ،

ومذهب ديكارت فى الشك ومبادىء الاشتراكيين .

وقد أثرت هذه الروح الفلسفية والعلمية على شعره وفنه الشعرى فصارت لغته أقرب إلى النثر ، حيث يسيطر عليها الفكر ، ويضيق فيها مجال العاطفة ، وينضبط معها الخيال عن الشرود ، ويقول شرارة ما قال المغربى من قبل من أنك تستطيع أن تنثر ما يقوله الرصافى شعراً بلغة أجمل وأوجز وأوضح(١) ، ويقول خلوصى(٢) : إن شعره خال من كل فلسفة عسيرة ، فهو(٢) يعبر بإخلاص عن سـريرة حكيمة فيها قوة الملاحظة والتأمل وحكمة التجارب (٣) .

الجانب الإنسانى فى شعره :

كانت حياة الرصافى الحافلة بالأحداث ، ومعيشته المملوءة بألوان البؤس والشقاء ، وبيئته التى عاش فيها وهى متقلة بالكثير من مظاهر الفقر والحرمان وبالعديد من المشكلات ، والعصر الذى عاش فيه وهو يموج بالتيارات الخفية وبأيادى الاستعمار وبالكثير من المؤامرات .

كان ذلك كله وغيره من العوامل والمؤثرات سببا فى دقة حس الشاعر ، ورهافة مشاعره ، وشدة تأثره بكل الجوانب الإنسانية فى الحياة ؛ وكان من نتيجته يقظة الشاعر وانتباهه لكل ما هو دقيق وجليل من المثل والغايات الشريفة ، ولكل إحساس إنسانى يربط الشاعر بالإنسانية وبالناس .

ويقول بعض الكتاب : إن النزعة الإنسانية فى أدب الرصافى لاتظهر

---

(١) ص ٥٢ الرصافى لشرارة .

(٢) ص ١٣ عبقرية الرصافى .

(٣) راجع وصف المخترعات الحديثة فى شعر الرصافى فى «ص ٢٠٠ طبانة» ، والحديث عن فلسفيات الرصافى «٢٠٥ - ٢١١ طبانة» .

فى كونياته وفلسفياته ، ولا فى سياسياته وتاريخياته ، بمقدار ما تظهر فى اجتماعياته . فأنت تلاقى فى هذا الباب من ديوانه ، وهو الذى تتوزعه هذه الموضوعات بالإضافة إلى غيرها روحا هى السمو والصفاء والرفق ، فى حدبها على البائسين المستضعفين ، وثورتها على الظلم والظالمين ، وتعلقها بالحرية ودفاعها عن الاستقلال ، ونقمتها العـــارمة على الذل والجمود والتخاذل ، ومناداتها بالوئام والاتحاد ، وتشوفها إلى انتشار المعرفة وسيادة العدالة على الأرض . وقصائده فى هذا الباب تمثل إلى حد بعيد حياة جيله ، وتصور المثل العليا التى كان يهدف إليها كإنسان وكشاعر وكمفكر ؛ وهى التى رفعت اسمه إلى القمة ، وأثارت إعجاب قرائه فى مختلف أنحاء العالم العربى(١)

وعندما نقف عند قصيدة الرصافى « السجن فى بغداد(٢)، نجده يندد بالظلم تنديدا شديداً ، ويصف السجن وصفاً دقيقاً ، ويتحدث عن المسجونين وقيودهم حديثا باكيا حزينا ، ويثور على الجور فى بغداد ، ويدعو الشعب إلى التقدم والنهوض والتحرر . وهنا نلاحظ أن الرصافى لا يقف عند الجانب السلبى فى إنسانيته ، بل يتعدى ذلك إلى الجانب الإيجابى ، فيقاوم الظلم ويدعو إلى مقاومته :

وما صاحب البيت الحقير بناؤه ... بأفزع من رب البلاط الممرد
وما ذاك إلا أنهم قد تخاذلوا ... ولم ينهضوا للخصم نهضة ملبد
فناموا عن الجلى ونمت كنومهم ... سوى نوحة منى بشعر مغرد
وهل أنا إلا من أولئك إن مشوا ... مشيت وإن يقعد أولئك أقعد
وكم رمت إيقاظا فأعيا هبوبهم ... وكيف وعزم القوم شارب مرقد

---

(١) صـ ٢٧ و ٢٨ الرصافى لشرارة .

(٢) صـ ٤٢ الديوان .

وبين التنديد والاستثارة وتنادم الشعب ، تجاوبت دعوة الرصافى بنزعاتها الإنسانية تجلجل بصوت الحرية والتقـــدم ، منادية بالتحرر واليقظة والإحياء .

وكم فى حياة الرصافى من جوانب إنسانية عالية ، لقد كان فى قمة مجده ومع ذلك فلم ينس أمه وفضلها عليه، يقص طه الراوى فيما يقص من ذكرياته مع الرصافى فيقول : رأيته مرة يبكى ، فسألته عن السر ، فقال : سمعت قينة إلى جوار منزلى تغنى غناء شجيا وذكرنى البيت الذى كنت أعيش فيه وعلى الأخص أمى التى كانت تحنو علىّ حنوا ما عليه من مزيد ، وقد كانت تتعهدنى بالعناية جسما وروحا ، فتعنى بنظافة ثيابى وجسمى ، وتسألنى عما كنت أقرأ فى الكتاب والمدرسة ، وكانت لا يقر لها قرار حتى ترانى بجوارها : ولما رجعت إلى بغداد بعد طول الغيبة ، وقد انتقلت إلى جوار ربها ، لم أقو على رؤية البيت الذى كنا نعيش فيه(١).

وليس بعد ذلك نزعة إنسانية أكرم من هذه النزعة وأرفع منها . . وهى صورة للنزعات الإنسانية العالية التى ترددت فى نفس الرصافى وفى جوانب شعره . .

وهذه قصيدة إنسانية للرصافى عن الإسلام عنوانها « يقولون »(٢) ومطلعها :

يقولون فى الإسلام ظلماً بأنه	يصد ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقا فكيف تقدمت	أوائله فى عهـــدها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله	فماذا على الإسلام من جهل مسلم؟
هل العلم فى الإسلام إلا فريضة	وهل أمة سادت بغير التعلم؟
لقد أيقظ الإسلام المجد والعلا	بصائر أقوام عن المجد نوم

(١) طه الراوى ـ ص ٥ ذكرى الرصافى للرشودي .
(٢) ص ١٢٨ ديوان الرصافى .

وحلت له الأيام عند قيامه   جباها وأبدت منظر المتبسم
فأشرق نور العلم من حجراته   على وجه عصر بالجهالة مظلم
ودك حصون الجاهلية بالهدى   وقوض أطناب الضلال المخيم
وأنشط بالعلم العزائم وابتنى   لأهليه مجـــدا ليس بالمتهدم
وأطلق أذهان الورى من قيودها   فطارت بأفكار على المجـــد حوم
وفك إسار القوم حتى تحفزوا   نهوضا إلى العلياء من كل مجثم
نخـــلوا طريقا للبداوة مجهلا   وساروا بنهج للحضارة معلم
فدوت بمستن العـــلا نهضاتهم   كزعزع ريح أو كتيار عيلم
وعما قليل طبق الأرض حكمهم   بأسرع من رفع اليدين إلى الفم
وقدحاكت الأفكار عنداصطدامها   تلألؤ برق العارض المتهوم
ولاحت تباشير الحقائق فانجلت   بها عن بنى الدنيا شكوك التوهم
وما ترك الإسلام للمرء ميزة   على مثله من لآدم ينتمى
فليس لمثر نقصه حق معدم   ولا عربى بخسه فضل أعجم
ولا فخر للإنسان إلا بسعيه   ولا فضل إلا بالتقى والتكرم
وليس التقى فى الدين مقصورة على   صلاة مصل أو على صوم صيم
ولكنها ترك القبيح وفعل ما   يؤدى من الحسنى إلى نيل مغنم
فتقوى الفتى مسعاه فى طلب العلا   وما خصت التقوى بترك المحرم
فهل مثل هذا الأمر ياأولى النهى   يكون عثارا فى طريق التقدم ؟
وإن لم يكن هـــذا إلى المجد سلما   فأى ارتقاء بعد أم أى سلم ؟!
ألا قل لمن جاروا علينا بحكمهم   رويدا فقد فارقتم كل مأثم
فلا تنكروا شمس الحقيقة إنها   لأظهر من هـــذا الحديث المرجم
علونا وكنتم سافلين فلم نكن   لنبدى إليكم جفوة المتهكم
ولم نترك الحسنى أوان جدالكم   وتلك لعمرى شيمة المتحلم

ففى هذه القصيدة نجد عناصر إنسانية عالية: من إيضاح للظلم الذى يرتكبه من يشوه حقائق الإسلام وينكر مبادئه ورسالته وأهميتها فى الحياة؛ ومن إيضاح لموقف الإسلام من العلم أولا ومن أهله ثانيا، ومن بيان لأثر هذه المبادىء الإنسانية عندما ذاعت فى الأرض، وطبقت فى العالم، وحكمت نظرياتها الشعوب.. ثم يذكر عنصر المساواة فى الإسلام، ويشرح معنى التقوى فيه، ويجعلها هى السعى فى طلب العلا.. ثم يحتكم مع الغرب إلى شريعة الإنصاف والحق والعدل محذرا لهم من مصارع الأيام، ونوب الزمان.

ومثل ذلك قصيدة الرصافى فى حفلة عيد الميلاد النبوى(١)، ويشرح فيها عناصر الرسالة المحمدية من وجهة نظر إنسانية... والعناصر الإنسانية الأساسية فى شعر الرصافى يمكن أن تحدد فى: العلم ـ الحرية ـ المساواة ـ الإخاء ـ التقدم ومحاربة الجمود والاستبداد ـ الدعوة إلى التكافل الاجتماعى ومحاربة الفقر.

ويطول بنا الحديث فى شرح رأى الرصافى فى كل ذلك.. على أنها كلها تكون فلسفة الرصافى الإنسانية التى تجعل شعره حافلا بالتيارات الفكرية الجديدة، وتجعله شاعرا تقدميا فى الطليعة من شعراء عصره.

أما المحتوى القديم للقصيدة عند الرصافى فيشمل ما يلى:

١ ـ الوصف وأكثره فى تصوير المشاهد والأبنية والحالات النفسية التى عرفها الشاعر. والوصف باب كبير فى ديوان الرصافى(٢) وهناك

---

(١) ص ١٧٦ الديوان.

(٢) ١٩٦ - ٢٨٦ الديوان.

أوصاف موزعة فى أبواب الديوان الأخرى(١) ، وقد أجاد فى هذا الباب (صـ ٢٤ و ٢٥ عبقرية الرصافى) .

٢ — الشعر الاجتماعى(٢) . . وهو فن انفرد به « حافظ » فى مصر ، والرصافى فى العراق . . ويشمل شعر المجتمع فى وصف للسجون ، واليتامى ، والتعليم فى بغداد ، ودعوته للإحسان وافتتاح المدارس وتحرير المرأة ، وإنشاء دور اليتامى ، وفى تكريمه للعاملين ولرجالات العرب ، وللساسة الوطنيين ، وغير ذلك من شتى موضوعات الشعر الاجتماعى عند الرصافى ، وفى الديوان باب كبير عنوانه « الاجتماعيات » .

٣ — الشعر التاريخى ويتميز بأسلوبه القصصى وموضوعاته الجديدة ، ومن قصائده فى هذا الباب : الرازى ، هولاكو والمعتصم ، أبو دلامة والمستقبل ، المدرسة النظامية فى بغداد ، وغيرها ، ويمكن إدخال قصيدته فى عبد المحسن السعدون الزعيم العراقى الوطنى وعنوانها « ميتة البطل الأكبر(٣) » فى هذا الباب ؛ ويمكن كذلك عد قصيدته فى « قصر الحمراء » على قصرها من هذا الباب .

٤ — الشعر السياسى ، وهو كثير ومنوع وخصب فى ديوان الرصافى ، وفى الديوان باب كامل فى « السياسيات » .

٥ — أما شعره فى الغزل فقليل(٤) ، ويندر أن تقع على قصيدة غزلية

---

(١) راجع الكلام على الوصف عند الرصافى فى كتاب الرصافى لطبانة (١٩٥ - ٢٠٤) .

(٢) راجع شعر الرصافى فى سبيل المجتمع (ص ١٥٥ - ١٧٧ الرصافى لطبانة) .

(٣) ص ٣٢٠ - ٣٢٣ الديوان .

(٤) راجع ص ٨٤ عبقرية الرصافى .

مؤثرة ، يهتز لها خيالك(١) ، وأشهر قصائده فى الغزل قصيدته (إلى جميع الغوانى)(٢) .

وهى قصيدة عادية لاتدل على قلب متيم ، ولا على وجدان شاعر غزلى موهوب ، ومقطوعته « لقيتها فى الطريق(٣) » أروع غزل الشاعر على قصرها ، وله غزل بالمذكر قلد فيه أبا نواس ومنه مقطوعته « وجه نعيم(٤) » ، ومقطوعته عند « لعبة البيليارد » (٥) ، وله غزل مشكوك منه قصائده : وصف راقصة ، امرأة فى غلالة ، التياترو ، القصيدة التى وصف فيها ماشاهده فى بيك أوغلو ، بداعة لاخلاعة .

وكانت هذه القصائد وأوصافه فى مجالس الأنس(٦) مما أطال الألسنة فيه ؛ ويقول الريحانى عن الرصافى : إنه شاعر عاطفى مشغوف بالجمال على ألوانه (٧) .

وقد وصف الرصافى جمال امرأة فقال : سمعت جمالها يغنى ورأيته يزهو ويرقص أمامى(٨) ، ويصف الرصافى كيف رأى سيدة انكليزية جميلة لأول مرة فى حياته ، وكيف راعه منظرها وأعجبه جمالها ، ويتحدث عن ذلك كله بلغة راقصة شعرية(٩) .

---

(١) ٥٢ الرصافى لشرارة .
(٢) ٢٥٧ الديوان .
(٣) ٥٠٧ الديوان .
(٤) ٥٠٢ الديوان .
(٥) ٥٠٩ الديوان .
(٦) راجع ٢٠٢ طبانة .
(٧) ١٦ ذكرى الرصافى للرشودى .
(٨) ص ١٨ المرجع نفسه .
(٩) ص ١٧ - ١٩ ذكرى الرصافى الرشودى نقلا عن كتاب أمين الريحانى « قلب العراق » .

٦ — شعره فى الطبيعة(١) وهو كثير ، ومنوع وفيه أصالة وشاعرية ، وإن كان الرصافى ليس من مشهورى شعراء الطبيعة فى الشعر العربى الحديث .

٧ — أما مدائحه فقليلة فى الديوان ، وهى وليدة المناسبة(٢) ، وله فخر(٣) بنفسه وأدبه وشعره ، ومراثيه أكثر صدقا وواقعية من مدائحه(٤) ، ومنها مرثية للشيخ محيى الدين الخياط الذى قدم ديوانه عام ١٩١٠ ، ومرثية لمحمود شوكت باشا أحد زعماء حزب شباب الترك الذى أصبح رئيسا للوزارة عام ١٩٠٨ ، ومرثيته للسعدون الزعيم العراقى الذى مات منتحرا فى ١٩٢٩/١١/١٣ ، ومرثيته فى أستاذه الآلوسى ، ومرثيته للكاظمى واشوقى وغير هؤلاء ، وللرصافى كذلك شعر فى الشكوى(٥) ، وفى الهجاء(٦) ، وله باب كامل فى الديوان قصره على شعر الحماسة والحرب وسماه « الحربيات » ، وباب آخر فى وصف بعض الحرائق الكبيرة فى الآستانة سماه « باب الحريقيات » : وليس فى هذه الأبواب كلها ميزة للشاعر الرصافى على غيره من شعراء العربية الآخرين سواء فى الشكل أو المضمون(٧) .

٨ — إن عبقرية الرصافى انصرفت إلى السياسة والاجتماع والوصف

---

(١) راجع ص ١٩٥ الرصافى لطبانة .
(٢) راجع ص ٢١١ طبانة .
(٣) « ص ٢٢٧ طبانة .
(٤) « ص ٢١٤ المرجع نفسه ، وكتاب عبقرية الرصافى للخلوصى .
(٥) « ص ٢٢٥ الرصافى لطبانة .
(٦) « ص ٢٣١ المرجع نفسه .
(٧) « ص ٥٠ ومابعدها من كتاب الرصافى لشرارة .

والتاريخ والفلسفة(١) ، وما خواطره في الغالب إلا تعبير عن شعور بني وطنه(٢).

وقد خلق الرصافي هو والزهاوي وعبد الحميد الشاوي الحميري أدبا ثوريا حماسيا وطنيا في العراق ، وما زال الرصافي علما في هذا الباب(٣)، والرصافي والزهاوي وشوقي وولي الدين يكن كانوا يرون بقاء البلاد العربية في ظل الحكم العثماني مع اللامركزية . وكان الرصافي يدعو إلى تحرير المرأة وإلى الإصلاح في قصائد سجل فيها آراءه وخواطره الاجتماعية والثقافية ، وشأنه في ذلك شأن الزهاوي وحافظ ، وقد يكون الرصافي أكثر حماسة ونضجا وأصالة في رأيي وإن كان خلوصي في كتابه «عبقرية الرصافي» يجعل للزهاوي المكان الأول في ذلك كله .

— ٦ —

منزلة الرصافي في الشعر الحديث :

١ — كان الرصافي شاعر العراق في الصدارة من شعراء الجيل(٤)

---

(١) ص ٨٤ عبقرية الرصافي .

(٢) ص ١٣ المرجع .

(٣) ص ١٣ عبقرية الرصافي الخلوصي ـ وعبد الحميد الشاوي قريب مظهر الشاوي الذي رعى الرصافي في أواخر حياته وقد كان مظهر معتقلا عام ١٩٤٤ في العمارة فقرأ مقالا للسيد مهدي القزاز (نشر في مجلة الأديب جزء ٩ سنة ٣ أيلول ١٩٤٤ ، بعنوان « الرصافي والجواهري » مساجلة شعرية ، وكان في هذا المقال تصوير لبؤس الرصافي ، فقرر مرتبا شهريا من ماله (راجع كتاب صفحات من حياة الرصافي لهلال ناجي) .

(٤) ص ٢٧٨ الرصافي لبطانة .

وكان يلقب شاعر العراق الأكبر(١)، ولقب شاعر العرب الأكبر(٢) في هذا العصر الذي لا يوازن به شاعر آخر لا في مصر ولا في غير مصر(٣).

وكان العراقيون الأحرار يرفعون من منزلة الرصافي على كل شاعر عربي آخر، أما المفكرون من أدباء العراق فكانوا في جانب الزهاوي. ولكن النقاد المنصفين اعترفوا بصدارة شوقي للشعر في عصر الرصافي، وليس من غايتنا تفضيل شاعر على آخر، فلكل شاعر منهم قيمته الفكرية والإنسانية والأدبية، وإن كان مطران وحافظ وشوقي في مصر والرصافي والزهاوي في العراق قد تزعموا حركة الشعر في هذا العصر.. ولجرأة الرصافي وشعره الحر الذي كان ينشره له في صدر شبابه كان بعض الأدباء يظن أن اسم الرصافي وهمي لا وجود له، ومنهم بشارة الخوري(٤)، وكذلك نعوم لبكي الصحفي اللبناني صاحب جريدة «المناظر» التي كانت تصدر في أمريكا(٥). وكان ذلك كما قلنا لجرأته وحريته الفكرية وبلاغة شعره.

ولقد جمع بعض الأدباء الرصافي بين اللقبين ومنهم منير القاضي رئيس المجمع العلمي العراقي، قال من كلمة له(٦): «مكانة شاعر العراق الأوحد في عصره، بل شاعر العروبة الأوحد في وقته، في الذروة، فهو المجلي بين

---

(١) عبد الجبار جومرد - ص ٣٣ ذكرى الرصافي للبدري.

(٢) ص ٣١ و ٥٤ المرجع من مقال لنور الدين داود ومقال لبطي وص ٩ ذكرى الرصافي الرشودي من مقال لطه الراوي المتوفى عام ١٩٤٦ نقلا عن أديب مصري كبير لم يسمه ولعله طه حسين.

(٣) طه الراوي - ص ٩ ذكرى الرصافي للرشودي.

(٤) راجع ص ١٣٧ الشعر العراقي الحديث ليوسف عز الدين، وص ٨٦ الرصافي للواعظ.

(٥) ص ٢٢ ذكرى الرصافي الرشودي، و ٨٥ الرصافي للواعظ.

(٦) ص ١٠ مجلة الوادي العراقية عدد ١٤ / ٣ / ١٩٥٩.

جميع شعراء عصره ، ومكانته بينهم مكانة المتنبي من شعراء عصره .

٢ — ومهما كان فإن الرصافى يعتبر حامل لواء التجديد فى الشعر على ضفاف دجلة غير منازع(١) ، وقد أثرت العربية بما أفاض عليها من المعانى البكر ، ومن طرائف أشعاره وجدتها(٢). وقريحة الشاعر الرصافى ، المعروفة بالإبداع والابتكار ، خليقة أن تهمل لإنتاجها جلالا يحتل المقام الأول فى أدب العصر الحديث(٣) .

وقد عاش الرصافى ومات وشعره وذكره واسمه ملء الأفواه والقلوب، ونشرت قصائده فى مختلف الصحف والمجلات فى العالم العربي وتركيا(٤)، وكانت عبقريته مبكرة فنظم شعراً وسنه دون السادسة عشرة(٥)؛ وطالما نشرت روائع قصائده فى أمهات الصحف العثمانية أيام إقامته فى تركيا(٦)، بل لقد ترجم بعض الأشعار التركية إلى العربية(٧)، وثقافاته الواسعة ، ورحلاته الكثيرة ، وتربيته الأدبية العالية ، وصلاته بزعماء العالم العربى ، وبأدبائه وشعرائه ومفكريه ، وغير ذلك من الأسباب ، كان هذا كله

---

(١) طه الراوى - ص ١٠ ذكر الرصافى للرشودى .

(٢) خلوصى - ص ١٠ عبقرية الرصافى .

(٣) ص ١١ المرجع السابق .

(٤) راجع ص ٢٢ ومابعدها من مقال لرفائيل بطى عن الرصافى منشور فى كتاب ذكرى الرصافى للرشودى .

(٥) ص ٦ ذكرى الرصافى للرشودى .

(٦) فى مجلة العالم الإسلامى ص ٣١ - ٩ أكتوبر ١٩١٦ قصيدة للرصافى فى السياسة العثمانية ومدح السلطان محمد رشاد .

(٧) فى العدد التالى من نفس المجلة السابقة مقطوعة نظمها الخليفة محمد رشاد الخامس وترجمها الرصافى شعراً إلى العربية .

من أسباب عبقريته اللماحة ، ونبوغه الموهوب ، ومنزلته العالية فى الأدب والشعر فى العصر الحديث .

٣ — وتحرر الرصافى وروحه الثورية الساخطة المتمردة ، ووقوفه فى وجه الاستبداد ، وآراؤه الجديدة فى العدالة وحقوق العمال وتحرير المرأة وفى بعض الشكوك العقلية . وعداوته للاستعمار والملكية . كل ذلك وغيره كان من الأسباب الفعالة فى غضب الرأى العام فى العراق عليه ، مما أشار إلى بعضه الشيخ عبد القادر المغربى فى تقديمه للديوان(١)، ومما جعله يعيش فقيراً مشرداً فى حياته ، مضطهداً من الحاكمين ، على الرغم من عضويته فى مجلس النواب العراقى عام ١٩٣٠ وما بعده ، ومع هذه المنزلة الرفيعة فإنه لم يسكت ولم يجامل . فلما عرضت الحكومة القائمة فى بغداد عام ١٩٣٠ مشروعا لتقييد حرية الصحافة عارضه الرصافى وألقى خطبة فى مجلس النواب العراقى دافع فيها عن حرية الصحافة دفاعا قويا .

وبتأثير السياسة كان الرصافى ينحى فى حياته عن تصدر الحركة الثقافية والأدبية فى بلاده ، ومع ذلك فقد عاش وشهرته ملء كل مكان ، واسمه على كل فم . وشعره يقرأ ويروى وينشر فى كل صحيفة ومجلة وكتاب .

٤ — وكان للرصافى أصدقاء كثيرون فى العالم العربى . ففى لبنان كان من أصدقائه فوزى باشا العظم والريحانى وجبران وعادل أرسلان وعبدالقادر المغربى وفخرى البارودى وندرة مطران ومحيى الدين الخياط ونور الدين بيهم وجبر ضومط وسليم سركيس ومحمد الباقر وفليكس فارس وصلاح اللبابيدى وقيصر المعلوف وسامى الشوا وعفيفة صعب ونجلاء أبو اللمع ونظيرة زين الدين ومصطفى الغلايينى وغيرهم .

---

(١) ص (ى) من ديوان الرصافى .

وفى فلسطين كان من أصدقائه إسعاف النشاشيبى وخليل السكاكينى(١) ، « المتوفى فى ١٣ أغسطس ١٩٥٣ » .

وفى سوريا كان من أصدقائه الأمير شكيب أرسلان الذى طارت شهرته فى العالمين : العربى ، والإسلامى(٢) ، ومحمد كرد على صاحب مجلة المقتبس(٣) :

وفى مصر الشيخ عبد العزيز جاويش(٤) ، والشيخ محمد رشيد رضا(٥) ، وطه حسين وغيرهم .

وفى تونس الشيخ عبد العزيز الثعـــالبى(٦) ، والشيخ صالح الشريف

---

(١) كان عضوا فى المجمع اللغوى بالقاهرة ، وقد طبعت له يوميات عام ١٩٥٥ بعنوان « كذا أنا يادنيا » وفيه يقول الرصافى :

ولم أر سيـــداً كأب سرى ... ولا مثل ابنه ولدا سريا
إلى الشهم السكاكينى أهدى ... ثناء لايزال به حريا
فتى غرس المكارم ، ثم منها ... جنى ثمر العلا غضاً طريا
يعاف معاشـــه إلا شريفاً ... ويأبى الجد إلا جوهريا

وللسكاكينى شعر كثير ، ومن مؤلفاته كتابه « الجديد » وكذلك كتاب « وعليه قس » ، وله كتاب فى التربية سماه « سرى » ، ومن مؤلفاته : قواعد اللغة العربية ـ لذكراك ـ مانيسر ـ مطالعات فى اللغة والأدب .

(٢) ترجم له الرصافى فى كتابه « نفح الطيب فى الخطابة والخطيب » الذى نشر فى الآستانة عام ١٩١٧ « راجع ص٢٧ الرشودى ـ ذكرى الرصافى » .

(٣) راجع ٢٨ الرشودى ، ١٠٤ الرصافى لمصطفى على .

(٤) تحدث عنه فى كتابه « نفح الطيب » راجع ص١٠٢ الرصافى لمصطفى على

(٥) تحدث عنه فى كتابه « نفح الطيب » راجع ص١٠٤ المرجع السابق .

(٦) ص ١٠٢ نفح الطيب .

ألتونسى(١)، وسوى هؤلاء وهؤلاء كثيرون لايحصون، ولاشك أن صداقاته كانت من أسباب شهرة الشاعر وذيوع اسمه فى كل مكان .

٥ — ويجعل عبد القادر المغربى فى تقديمه لديوان الرصافى شعر شاعرنا الرصافى مدرسة ممتازة بطابعها ، يتخرج عليه الطلاب فى صناعة الشعر والأدب وتحصيل ملكاتها(٢) .

ومن أنصاره شعراء العراق اليوم من الطبقة الأولى : العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبى ، عبد الرزاق محي الدين ، محمود الملاح ، حافظ جميل ، على الشرقى ، هادى كمال الدين الحلى ، خاشع الراوى ، محمد على اليعقوبى ، محمد بهجة الأثرى ، مهدى مقلد ، على الخطيب ، كمال عثمان ، أنور شاؤل :

ومن مدرسة الرصافى مايزال اليوم أعلام شوامخ، لكل شخصيته الكاملة ، وإن دار فى فلك مدرسته ، وما : نعمان ماهر وحافظ جميل ، وأكرم أحمد ، ببعيدين عن الخاطر(٣) .

ويجعل داود سلوم فى صدر مدرسة الرصافى والزهاوى فى العراق : شعراء أسرة الشبيبى ، والكاظمى « ١٨٧٠ — ١٩٣٥ » ، والجواهرى ، وعلى الشرقى ، ومحمد مهدى البصير ، ونعمان ثابت عبد اللطيف ، والشيخ كاظم آل نوح ، والسيد بحر العلوم ، ومحمود الحبوبى ، وعبدالرحمن البناء(٤) .

ولعل ذكر الكاظمى هنا خطأ ، وكذلك الشبيبى ، فهما يصح جعلهما

---

(١) ص ١٠٣ الرصافى .

(٢) صفحة «هـ» ديوان الرصافى .

(٣) ص ٧٥٧ مجلة العرفان المجلد ٥٠ جزء ثامن — شوال ١٣٨٢هـ — من مقال لهلال ناجى بعنوان «الأدب المعاصر فى العراق» .

(٤) ٩٧ - ١٠٣ تطور الفكرة والأسلوب فى الأدب العراقى لداود سلوم ط ١٩٦٠ بمطبعة البرهان ببغداد .

زملاء للرصافى فى المدرسة التى يمثلها ، ومعهما أحمد الصافى النجفى كذلك .

ولا ننسى أن للرصافى تلاميذ كثيرين من شعراء العالم العربى ، هم اليوم الطليعة المتحررة الواعية العاملة على التقدم والتحرر والوحدة .

وشعر الرصافى فى مجموعه يمثل التيار الكلاسيكى المجدد ، وفيه ألوان من الواقعية ، فهو مزيج منهما ؛ فقصائده فى النضال الوطنى والقومى والاجتماعى فى بلاده صورة للواقعية بظلالها وألوانها ، وقصائده فى الحرب الإيطالية الطرابلسية مثلا وفى الدستور العثمانى وفى غير ذلك من الأغراض والموضوعات تمثل تيار الكلاسيكية الجديدة التى مثلها الزهاوى وشوقى وحافظ وغيرهم من شعراء العروبة الخالدين .

وبعد فهذا هو الرصافى ابن السبعين(١)، فى شعره وشاعريته ، وفى منزلته الشعرية ، وفى تجديده ونزعاته الإنسانية ، وفى روحه القومى المتوثب ، ونضاله الوطنى الخالد .

---

(١) (١٨٧٥ م = ١٢٩٢ هـ — ١٦ مارس ١٩٤٥ = ١٣٦٥ هـ) ، ويخطىء سلوم فيجعل ميلاده عام ١٨٦٧ بدلا من عام ١٨٧٥ م (راجع ص ٨٩ تطور الفكرة والأسلوب فى الأدب العراقى لداود سلوم) ، وكذلك يخطىء مزيد الطاهر فى جعل تاريخ ميلاده ١٨٧٣ م (ص ٤٧ مجلة الثقافة الجديدة العراقية عدد آذار ١٩٥٩ من مقال لمزيد الطاهر) وقد نقل ذلك عن كتاب الرصافى لطبانة (ص ٣٥) إذ أن سنة ١٢٩٢ هـ لا تعادل سنة ١٨٧٣ بل سنة ١٨٧٥ ، وقد ذكر بطى عن الرصافى أن مولده عام ١٢٩٢ هـ ، والذى ذكره عبد المسيح وزير من أن مولده عام ١٢٩١ هـ ، ماهو عليه ما دام رفائيل بطى قد ذكر نقلا عن الرصافى أنه كان عام ١٢٩٢ هـ .

الكاظمي شاعر العراق

— ١ —

أربعون عاماً مضت على وفاة الشاعر العربي الكبير الشيخ عبد المحسن الكاظمي (١٩٣٥ — ١٩٦٥) أحد الشعراء العرب الكبار ، الذين هزوا الجيل العربي المعاصر كله ، بأشعارهم القومية والوطنية الرائعة وبدعواتهم التحررية والفكرية التي أحدثت أثرها في العالم العربي كافة ، وانطلقت في إثر أفكارهم الجريئة حركات التحرر ، وثورات الحرية والاستقلال في كل مكان من بلاد العرب ، وكانت آراؤهم هي النبراس الذي أضاء الطريق لمشاعل النهضة والتقدم ، وعلى خطاهم سار الشباب العربي الثائر المنادي بكلمة الحق والشرف والعزة للشعوب العربية قاطبة .

— ٢ —

وقد ولد الكاظمي في الكاظمية ببغداد في الخامس عشر من شعبان عام ١٢٨٧ هـ : التاسع والعشرين من تشرين الأول من عام ١٨٧٠ م من أبوين كريمين ، فوالده محمد بن علي الكاظمي عربي ينتمي إلى أسرة كبيرة لها فروع في إقليم أذربيجان الإيراني ، وأمه هي السيدة الفضلى كريمة السيد مهدي الزركشي الملقب بالبير ، نسبة إلى بيت البير التجار البغاددة ، وكانت دار آل الكاظمي بمحلة التل على بعد عشرات الخطوات من مسجد الكاظمية . وكانت هذه المحلة محلة العلم والعلماء .

وكان له أخ أكبر منه هو السيد محمد حسين الكاظمي وكان أديبا شاعراً ممتازاً ، وكان هو الأستاذ الأول لشقيقه عبد المحسن الكاظمي في الأدب والشعر(١) . كما تتلمذ على السيد إبراهيم الطباطبائي ومحمد جابر الكاظمي ،

(١) هاجر الشيخ محمد حسين الكاظمي إلى القاهرة نحو عام ١٩١٠ وأقام =

وأقبل على كتب الأدب والشعر يتذوقهما بفطرة سليمة ، ويحفظ الكثير من ذخائرهما الأصيلة ، حتى شهر بسعة الحفظ والرواية ونظم الشعر صغيراً ونبغ فيه ، حتى كانت قصائده تقرن بقصائد الشعراء المشهورين ، وتنسب أحيانا إلى أخيه ، وأحيانا إلى أستاذه الطباطبائي لجودتها ، واشتهر بالبديهة وارتجال الشعر شهرة واسعة .

كان العراق إبان ذلك العهد في ظل الحكم العثماني ، والحريات مكبوتة ، والألسنة مكممة ، والإرهاب شديد .

وفي حلقات الكاظمية والنجف استكمل الشاعر كل ثقافته ومقومات أدبه ، وفجأة هبط الكاظمية السيد جمال الدين الأفغاني هارباً من البطش والاستبداد الذي كان يقاومه في إيران ، وأقام الأفغاني بدار قرب دار الكاظمي وتعرف إليه شاعرنا الشاب ،وتلقى عنه دروساً في الدين والوطنية ومعنى الحرية ، وانضم إلى المجمع السري الذي أنشأه الأفغاني من بعض الوطنيين المتحررين في بغداد ، وفجأة طرد الأفغاني من العراق ، وأصبح تلاميذه ومريدوه موضع المراقبة الشديدة ، ولقي الكاظمي الكثير من العنت وهو أحدهم ، ففر إلى إيران ثم الهند ثم عاد إلى بغداد ، فوجدها كما هي ، مقاومة شديدة لدعوات الحرية وأنصارها ، فهاجر إلى مصر وحط بها رحاله عام ١٨٩٩ م ؛ حيث نزل في القاهرة .

كان مجتمع القاهرة الفكري إبان ذلك حافلا بالأحرار والمفكرين والأدباء والشعراء ، فمنهم محمد عبده وسعد زغلول وعلي يوسف وعبد العزيز

= فيها مع شقيقه الشيخ عبد المحسن الكاظمي ، وتوفي بمصر عام ١٩٣٦ ، بعد وفاة شقيقه الشاعر الكبير بسنة واحدة ، وكان له أخ آخر أصغر منه هو الشيخ أحمد الكاظمي وكان شاعراً أيضاً ، وقد هاجر إلى مصر عام ١٩١٣ وأقام فيها سنة واحدة ثم عاد إلى بغداد .

جاويش وفيهم البارودى بعد عودته من المنفى ، وأحمد شوقى ، وحافظ ومطران والمنفلوطى والرافعى ، ثم العقاد والمازنى وشكرى وغيرهم .

وكان الكاظمى موضع الاهتمام والعناية من كل حر وكل مفكر وكل أديب ، وبخاصة الإمام محمد عبده تلميذ الأفغانى ، ورائد الحركة الدينية الوطنية فى مصر .

ورتب الإمام محمد عبده للكاظمى مرتباً شهرياً يصله منه ، ويعيش عليه ؛ وأصبح الكاظمى واسطة عقد الأدباء والشعراء ، بيت محمد عبده فى عين شمس دائماً وجهته ومقهى اللواء أمام جريدة الأهرام حيث رجال الأدب والصحافة يجلسون عليها هى منتداه ، ومقهى (متاتيا) بجوار حديقة الأزبكية حيث رجال الفكر والوطنية فيها هى مجلسه المفضل .

وفى القاهرة تلاقى مع أقطاب العرب من سياسيين ومفكرين وأدباء ، وصار حبيباً إليهم ، أثيراً عندهم ، ومن بينهم : أعضاء حزب الاتحاد السورى ، ثم أعضاء جمعية الرابطة الشرقية بعد ذلك وكان من أشهرهم وأذيعهم صيتا المغفور له الشيخ محمـــد الغنيمى التفتازانى (ت ١٩٣٦) وسواه .

وكتب الشاعر أحمد شوقى فى جريدة المؤيد (عدد ٣٠ من نوفمبر ١٩٠٢) يرحب بالكاظمى فى مصر موطن الأحرار والأدباء والشعراء .

واختير الكاظمى حكماً فى كثير من مواسم الشعر وحلقاته ، ومن بينها مباراة شعرية أقيمت عام ١٩٠١ بمناسبة عيد جلوس الخديوى عباس كان الكاظمى حكميا ، ونال حافظ فيها المدالية الذهبية ، وكذلك نال مثلها السيد توفيق البكرى .

وتوفى الإمام محمد عبده عام ١٩٠٥ فانقطع اطمئنان الشاعر إلى حياته ؛

ورفض الخديوى عباس أن يأمر بصرف مرتب شهرى له من وزارة الأوقاف لصلته بالإمام الراحل.

وفى القاهرة تزوج بالسيدة الفضلى عائشة بنت محمود التونسى، ومنها أعقب ابنته (رباب) وآخرون توفاهم الله وقد ماتت عام ١٩٢٧ قبل وفاته بثمان سنوات.

وقد شمل الزعيم المصرى سعد زغلول الشاعر بكرمه ورعايته وأمر بصرف مرتب شهرى له من وزارة الأوقاف المصريه كما كانت صلته ببيت (لطف الله) وبآل (عبد الرازق) وبخاصة الشيخ مصطفى عبد الرازق (شيخ الأزهر فيما بعد) ذات أثر كبير فى حياته.

وكانت قصائد الكاظمى تحلى بها الصحف جيدها فى مختلف المناسبات.

وظل يعيش فى مصر، أثيرة عنده، وهو أثير عليها حتى توفاه الله عام ١٩٣٥، فى أول شهر أيار: ١٣٥٤ هـ.

— ٣ —

كان شعر الكاظمى تأييداً للحركة القومية الوطنية فى العالم العربى، ونضالا ضد الاستعمار والمستعمرين وتقدير لزعماء الفكر والنضال الوطنى، ومن بينهم سعد زغلول والإمام محمد عبده والبارودى وغيرهم.

وقد عاش على ضفاف النيل يرنو ببصره إلى بلاده، ويترقب مطلع فجر الحرية فيها، ويعمل من أجلها ومن أجل استقلالها.

يقول من قصيدة يتشوق فيها إلى وطنه، ويحث على النهوض:

يا أحبــــاى والتعطف دين   أين فى (الكرخ) عهدنا المعهود؟
لو علمتم ما حل بى لعلمتم   أن خطبى من بعدكم لشديد
وطنى أنت كل ما أتمنى   من حياة وأبتغى وأريد

أيها القوم ثابروا لاتهلكم ‍ ـــدة هولوا بها ، أو عديد
أزرام الصعاب إلا بصعب ويفل الحديد إلا الحديد
وإذا لم يكن سوى الموت ورد دون نيل المنى ، فنعم الورود

ويقول فى المجد العربى الذى خلفه لنا آباؤنا :

تركوا المـــنزل معموراً لنا ثم جئنا فتركناه خـــلاء
لو تبعنا فى العلى آثارهم لزحمنا الشرق والغرب عـــلاء
ضربوا العز لنـــا أخبية فنقضناها خبـــاء فخباء
وبقينا صـــوراً جامدة لم يجد فيها أخو الرشد ذماء
كلنـــا يلهج بالعـــلم ولا أحـــد منـــا يبارى العلماء

ويصور إيمانه بوحدة العرب ومجدهم فيقول :

أفاخر من ألقى بمجدى وسؤددى
وليس سواكم أيها العرب لى فخر
إذا لم يكن عمرى إلى المجد سلما
فلا طاب لى عيش ولاطال لى عمر
وإن لم تـكن نفسى لأوطانى الفـــدا
فليس لنفس مثلها أبداً ذكـر

ويقول كذلك :

أحن إذا قيل : العراق وأنحنى وأشهق إن قيل : الشآم وأزفر
وأطرق إن قيل : الحجاز على جوى
وأعجب إما قيل مصر وأبهر
جميع بلاد العرب فى القدر واحد إذا وزنوا البلدان يوما وقدروا

ويقول كذلك :

إنما الشام والعراق ومصر أخوات وإن تفرقن حينا

حبـــذا يوم يصبح العرب طرا

من جميع البـــلاد متحدينا

وكان الكاظمى والرصافى والزهاوى والشبيبى خير صورة للعراق الأبى المكافح ، وامتاز الكاظمى بطابعه البدوى الشعرى ، الذى مثل فيه غنائية الشريف الرضى وأسلوبه تمثيلا كاملا ، كما امتاز الرصافى بشعره الاجتماعى والوطنى والزهاوى بشعره الفلسفى ، ومن نظرائهم : أحمد الصافى النجفى . . ويكاد يكون الجواهرى فى طوره الأول صورة للكاظمى والرصافى . .

وقد خلفت مدرسة هؤلاء الشعراء مدرسة الأزرى الأكبر ، والسيد حيدر الحلى والحبوبى ، والعمرى ، والأخرس وسواهم .

والكاظمى يقرن بمدرسة البارودى وبشوقى وحافظ ومحرم ، وعلى نهجه كان الشاعر البدوى المصرى الشيخ محمد عبد المطلب .. وامتدادا لهذه المدرسة كان شعر الجارم والأسمر والجندى وغنيم ومحمد عبد الغنى حسن وأحمد الزين وسواهم .

— ٤ —

ولقد كان الأديب العراقى النجفى عبد الرحيم محمد على أول من عنى بدراسة الكاظمى وشعره ، فأخرج عام ١٩٥٥ كتابه الأول عن الكاظمى بعنوان « الكاظمى شاعر العرب » ، وفى عام ١٩٥٨ أخرج كتابه الثانى بعنوان « ذكرى شاعر العرب » ، وفى عام ١٩٦١ أخرج حلقة ثالثة بعنوان « الكاظمى شاعر الكفاح » ، وفى عام ١٩٦٥ أخرج الحلقة الرابعة من دراساته عن شاعرنا بعنوان « الـــكاظمى فى ذكراه الثلاثين » ،

وأسدى بذلك لتراث الكاظمى يدا مشكورة(١) .

وقد صدرت مجموعتان من ديوان الكاظمى : الأولى فى دمشق عام ١٩٣٩ والثانية فى القاهرة ١٩٤٨ ، ولازال بعض ديوان الكاظمى حتى اليوم لم ير النور .

وأخرج الدكتور حسين على محفوظ كتاباً بعنوان « عراقيات الكاظمى » ، كما أخرج الأديب مهدى البير كتابا بعنوان « الكاظمى » أيضاً .

ومنذ عامين نال الأديب الأستاذ محسن غياض درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة برسالته التى قدمها عن الشاعر الكاظمى(١) ،

وقد خلد الأستاذ عبد الرحيم محمد على فى حلقاته الأربع آراء كل النقاد

---

(١) الحلقة الرابعة التى بين أيدينا « الكاظمى فى ذكراه الثلاثين » فيها كثير من الدراسات التى كتبها الأدباء العرب عن الكاظمى وشعره فى مختلف المناسبات كذلك ، ومن بينها مقالة أحمد شوقى التى كتبها عنه ونشرتها جريدة المؤيد المصرية فى عددها الصادر فى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٠٢ م .

وهذه المقالات التى تحتوى عليها هذه الحلقة الرابعة وإن كان من بينها المدرسية المحضة العديمة القيمة إلا أن من بينها دراسات قيمة تعد مفتاحا لفهم شاعرية الكاظمى وشعره ، ومنها مقـــالة « اللغة وشعر الكاظمى » للدكتور إبراهيم السامرائى نشرت فى مجلة الفكر التونسية عدد شباط ١٩٦٢ ، ومقالات أخرى ، ولاشك أن الحلقة الرابعة بكل مافيها من دراسات وآراء وبحوث عن الكاظمى ، وبما احتوت عليه من نصوص مختلفة من شعره وشعر غيره ، وبما تشتمل عليه من آراء أصدقائه وخصومه من معاصريه فيه وفى شعره ، لا شك أنها ثروة نفيسة لها قيمتها ووزنها عند الدارسين .

والأدباء والكتاب والصحفيين والمفكرين العرب فى الكاظمى وشعره ، وجمع بذلك ثروة أدبية لكل من يحاول الكتابة عن الكاظمى وشاعريته(١).

---

(١) لقد اختلفت التواريخ التى ذكرت فى هذه الدراسات فيما يتصل بمراحل حياة الكاظمى ؛ ففى مولده مثلا يذكر البعض أنه ولد عام ١٢٨٢ﻫ ؛ وآخرون يذكرون أنه ولد عام ١٢٨٩ ﻫ ، وغيرهم يذكرون أنه ولد عام ١٢٨٦ ﻫ ، أو عام ١٢٨٨ ﻫ ، أو عام ١٢٨٧ ﻫ ، والأستاذ عبد الرحيم مع أنه أشار فى الهامش إلى تصحيح كثير من الأحداث التاريخية كان يصح أن يلتفت إلى تصحيح مثل هذه التواريخ المتضاربة ، والى أعتقد أن الصحيح منها هو التاريخ الأخير .

إن عبد الرحيم محمد على جدير بأن نذكر فضله على الشعر الحديث بعامة ، وعلى الكاظمى وشعره بخاصة ، بهذه الحلقات الأربع التى تعد مفتاحا لكل من يتصدى لدراسة الكاظمى وشاعريته ، ولا شك أننا سنظل مدينين له بهذا الجهد الصادق ، والأمانة العلمية الموفورة .

أحمد الزين

١٨٩٨ — ١٩٤٣

أحمد الزين الشاعر الراوية المشهور ، من أعرق الشعراء المحدثين شاعرية ، وأجلهم فى عالم الشعر موهبة ، وأصدقهم أصالة وطلاقة فنية وأكثرهم فهما للشعر ، وتذوقا له ، واندماجا فيه ؛ وقصائده المشهورة تمثل غنائية وموسيقية نادرتين ؛ وقد عاش طول حياته رهن المحبسين ، العمى والفقر ، لازمه الحظ السيء ، وندد بالأهواء والمحسوبية فى بلاده ، وهو القائل :

إيه ياعلمى عد جهلا عسى ينهض الجهل بحظ موثق

وقد ولد فى قرية ميت نابت بمركز السنطة بالغربية ، وحفظ القرآن الكريم ، ودخل الأزهر الشريف صغيرا ، ونبهت مواهبـــه الشعرية فى سن مبكرة ، ونشر ديوانه : « القطوف الدانية » وهو باكورة شعر الشاب فى سن قريبة من العشرين (١٩١٧) ثم طبع ديوانه « الأحلاق والأراجين » عام ١٩١٨ ونال شهادة العالمية من الأزهر الشريف عام ١٩٢٤ وعمل فى المحاماة الشرعية ، ثم مصححا بدار الكتب بأجر يومى ضئيل ، وظل كذلك حتى توفى فى التاسعة والأربعين من عمره .

وكان رحمه الله على ذكاء نادر ، وعقل راجح ، وخلق قويم ، ونشر ديوانه « ديوان أحمد الزين » بعد وفاته بقليل

ومن قصائده المشهورة قصيدته فى « العود » التى تمثل أناقته الفنية والموسيقية ، وعذوبته فى الأداء والأسلوب وفيها يقول :

لامست فى النفس أوتار هواها غادة بالسحر تغزو من غزاها
لحنهـــا يبعث فى ميت المنى نضرة العمر ومعسول صباها
خفقات يخفق القلب لهـا هى أنات فؤادى أو صداها

وحنين كاد من رقته ... أن يذيب اللحن فى العود مياها
وشجون طالما أخفيتها ... نفذ العود إليها فحكاها
صورة اللوعة من مكمنها ... كيف تخبو ثم يشتد لظاها
ودبيب الحب فى أوله ... والجوى ملتهبا حين تناهى
وفناء النفس فيمن هويت ... وترى كل وجود فى غناها
وشقاء الحب إلى نعمته ... ونعيم النفس فيه بفناها
ورضا العشاق عن أحبابهم ... بالتفات أو خيال فى كراها
كل هذا نطق العود به ... وتناجى هو والنفس شفاها
لغة الأوتار فى عجمتها ... تقصر الألسن عن درك مداها
تسعد المحزون فى حرقته ... وتواسى داءه إن قال آها
ألهم العود بكاء المشتكى ... ملهم الطير على الأيك بكاها
تحسب الأوتار فاضت أدمعا ... وتباريح الهوى أوهت قواها

وفصوله « النقد والمثال » ، و « من أحسن مايروى » التى كان ينشرها فى مجلة الثقافة المصرية ، ومقالاته فى النقد الأدبى فى الأهرام والرسالة ، ومقالاته عن البارودى فى مجلة الرسالة ، وتحقيقه لبعض أجزاء من « نهاية الأرب » و « ديوان الهذليين » ، و « الإمتاع والمؤانسة للتوحيدى » و « العقد الفريد » لابن عبدربه ، وديوان حافظ وصبرى - كل ذلك يدل على ملكة علمية دقيقة أصيلة .

واجتماعيات الزين ، أو أشعاره فى المجتمع ، أرفع ألوان شعره ، وفيها سجل دقائق نظراته وآرائه وفلسفته الاجتماعية ، من حيث كانت الاجتماعيات فى شعر حافظ صورة ممثلة لواقع الأمة فحسب .

والدارس للزين لابد أن يدرس شعره الاجتماعى - أولا وبالذات لدلالته على نفسية الزين وشاعريته وشخصيته وفلسفته الاجتماعية .

وبخاصة أن الزين لم يدرسه أحد ، ولم يتحدث عنه النقاد والكتاب ،

اللهم إلا ترجمة كتبتها عنه فى كتابى « قصص من التاريخ » ، وترجمة أخرى كتبها عنه أحمد الشرباصى فى كتابه « عالم المكفوفين » ، ودراسة نشرها عنه الشيخ عبد الجواد رمضان فى مجلة الأزهر الشريف . ثم ألف عبد الرحمن خليل إبراهيم كتابا عن المجتمع فى شعر أحمد الزين ، وظهر هذا الكتاب فى ٢٧٦ صفحة من القطع الكبير ، وقد نشره المجلس الأعلى للفنون والآداب فى القاهرة .

وفى هذه الدراسة كشف عن كل العوامل التى أثرت فى حياة الزين وشعره ، وتحليل لأثره العميق فى المجتمع فى عصره ، وبعد عصره .

وفى المقدمة التى قدم بها الشاعر على الجندى الكتاب ، يتحدث عن منزلة الزين فى الشعر الحديث ، ويناقش المؤلف فيما ذهب إليه من أن الغزل فى شعر الزين كان غزلا صناعيا تقليديا ، وقال إن هذا حكم قاس لا أجيزه . إذ ليس فقدان البصر بمانع من الغرام ، كما يقول .

ولاحظ أن الزين لم يشر فى شعره إطلاقا إلى مرضه المبكر ، مرض فقدان البصر ، وعلل ذلك بعدم رغبته فى إثارة الهموم على نفسه ، أو بتساميه على واقعه ، واعتداده ببصيرة قلبه مما يعوضه عن بصره .

ونفى كذلك عن شعر الزين التناقض واضطراب فى الرأى ، ولاسيما فى باب المدح والهجاء ، وقد أنصف الشاعر على الجندى أحمد الزين وشعره ، وجهد المؤلف فى دارسة شعره الاجتماعى .

الشاعر محمد الأسمر

١٩٠٠ — ١٩٥٦

— ١ —

فى معركة العروبة الكبرى ، معركة الحرية والاستقلال ، وبين صوت القنابل ، وأزيز الطائرات ، ودوى المدافع ، وضجيج النضال فى بور سعيد وحيث مصر كلها تقاتل فى هذه المدينة الخالدة أعداء السلام والحرية ، مات الشاعر المصرى المبدع محمد الأسمر ؛ بعد كفاح طويل ونضال ضخم عاش فيه طول حياته . ومن عجب أن يكون ميلاد الشاعر فى اليوم السادس من نوفمبر عام ١٩٠٠ م وأن تكون وفاته فى اليوم السادس من نوفمبر أيضا عام ١٩٥٦ الموافق ٣ ربيع الثانى عام ١٣٧٦ هـ .

كان الشاعر رحمه الله مثال الظرف والأناقة فى زيه وهيئته . وفى أسلوبه وتعبيره ، وفى حديثه وسمره ، وفى كل مايتصل به من شئون الحياة ، وكان رائع الإلقاء إلى حد يستدعى الإعجاب ، سمعته فى حفلة تكريم المراغى لأول مرة عام ١٩٣٥ م ، فى أرض سراى المعرض ، وشاهدت كيف اهتز الجمع الكبير لقصيدته التى ألقاها هزة التقدير والإعجاب ، ثم سمعته بعد ذلك كثيرا وفى كل مرة أسمعه أومن بعبقريته وشخصيته الفذة الرائعة الحبيبة إلى قلوبنا . . والأسمر من مواليد مدينة دمياط ، وقد حمل جثمانه من القاهرة بعد وفاته ودفن فى هذه المدينة ذات الذكريات الخالدة وكان الشاعر يلقب فى الأهرام «شاعر الأهرام» وفى الأزهر «شاعر الأزهر» وفى البلاد العربية «شاعر العروبة» وشعره المطبوع سجل رائع لحياتنا الاجتماعية والقومية ولحياة الشرق العربى خلال ربع قرن .

وكان شعر الأسمر ينشر فى البلاد العربية . ويعكف الناس على قراءته

فمعجبين به . ولا زلت أذكر كيف كان أدباء البلاد العربية فى رسائلهم لى يحملوننى التحية إلى الشاعر الأسمر ، ولا يفكرون أولا إلا فيه ، وفى كل مرة كنت أعتقد أن شهرة الأسمر تغنينى عن أن أبلغه هذه التحية الموصولة المتكررة من أدباء الأمم العربية الشقيقة .

— ٢ —

وقد تلقى الشاعر ثقافته الأولى فى مكتب من (مكاتب) تحفيظ القرآن بدمياط ، ولكنه لم يلبث به إلا قليلا ثم التحق وهو فى الثامنة من عمره تقريبا بإحدى المدارس الأهلية بدمياط وهى مدرسة الحزاوى وكان من العلوم التى يتلقاها فى هذه المدرسة القرآن الكريم ، وقد حفظ نصفه بها ، وبعض المحفوظات الأدبية شعرا ونثرا ، والنحو والإملاء والحساب . . وتخرج الشاعر من المدرسة المذكورة سنة ١٩١٤م تقريبا ، وزاول التدريس بها شهورا ثم تركها ، وقد عافت نفسه التدريس بالمدارس الأهلية .

وكان الشاعر يشعر بميل شديد إلى الشعر والاستزادة من التعلم ، ومما ساعده على ميله إلى الشعر تلك المحفوظات الأدبية والشعرية التى كان يدرسها بالمدارس الأهلية ، وحدث أن قابل بعض طلبة (معهد دمياط الدينى) واطلع على ما بأيديهم من الكتب فشاقه ذلك إلى دراستها فالتحق بالمعهد طالبا فى سنة ١٩١٥

وفى سنة ١٩٢٠ م غادر معهد دمياط ليلتحق بمدرسة القضاء الشرعى بالقاهرة ، وظل بها ثلاث سنوات ، ثم ألغيت هذه المدرسة فالتحق الشاعر طالبا بالأزهر بعد ذلك . وزاول فى أثناء التحاقه طالبا بالأزهر التصحيح بجريدة السياسة التى كان يصدرها حزب الأحرار (الدستوريين) بمصر ، يعمل بها من الساعة السادسة مساء إلى الساعة الثانية صباحا ؛ وفى الصباح يحضر دروسه طالبا بالأزهر من الساعة الثامنة صباحا إلى الساعة الثانية ظهرا ، واستمر على ذلك ثلاث سنوات كان يجمع فيها بين العمل ليلا ونهارا .

ثم تخرج من الأزهر سنه ١٩٣٠ م ونال منه شهادة العالمية النظامية ، وعين بعد ذلك كاتباً بالأزهر ، ثم (معاونا) بمكتبة الأزهر ، ثم (أمينا) لمكتبة المعهد الديني بالاسكندرية مع بقائه بالقاهرة منتدبا للعمل بمكتبة الأزهر ثم (أمينا) عاما لمكتبة الأزهر وانتدب مرتين - وهو أمين مكتبة الأزهر - للعمل بوزارة الداخلية المصرية ، فى قسم مراجعة الكتب لإبداء رايه فيها من الناحية الدينية والاجتماعية قبل التصريح بنشرها ، وكان يؤخذ رأيه فى بعض الأفلام السينمائية قبل عرضها على الجمهور . واختير مرتين عضوا فى لجنة النصوص بالإذاعة اللاسلكية المصرية ، وكان عمل هذه اللجنة بحث الأغانى من الناحية الدينية والأدبية والاجتماعية لإقرار أواختيار الصالح للإذاعة أوتعديله أواستبعاده ، واختير الأسمر قبل وفاته بشهور عضوا فى لجنة الشعر بمجلس الفنون والآداب بالقاهرة .

— ٣ —

وكان حفظه للقرآن الكريم صبيا ولكثير من المحفوظات الأدبية أول شيء نبه الموهبة الشعرية الكامنة فيه إلى التفتح والازدهار فأقبل على قراءة الشعر فى كثير من التشوق خصوصاً بعد أن الحق بمعهد دمياط الدينى وقرأ به (شواهد النحو) الشعرية واطلع على شرح هذه الشواهد التى كانت تذكر الشاهد ثم نذكر قصيدة الشاهد كلها . أوجانبا كبيراً منها .

وفى خلال هذه الفترة استهوت الشاعر قصة (أبى زيد الهلالى) التى كان يسمعها على (الربابة) بمقاهى دمياط ، واقفاً على أبواب هذه المقاهى حيث كان لايجرؤ على دخولها . ولا تسمح له تربيته المنزلية بذلك ، فلما شب قليلا ونهاه أهلوه عن القرب من هذه المقاهى استغنى عن الوقوف بها بشراء قصة (أبى زيد) وغيرها من القصص المعروفة فى ذلك العصرمثل قصص (عنترة) و (سيف بن ذى يزن) و (ألف ليلة وليلة) وغيرها ، كان يقرأ فى هذه الفترة كل ذلك وهو معجب به كل الإعجاب ، كما كان فى ذلك الحين سعيدا كل

السعادة بقراءة القصص البوليسية المترجمة مثل (شرلوك هولمز) و(روكامبول) و(اللص الشريف) وغيرها .

وبلغ من شدة شغفه بقراءة هذه الكتب وأمثالها أنها كانت تلهيه عن الطعام والشراب ، وربما عكف على الكتاب يوما كاملا إلا ساعات قليلة ينامها ثم يصحو ليعاود قراءة هذه الكتب ، وحينما غادر الشاعر بلده دمياط وجاء إلى القاهرة طالباً بمدرسة القضاء الشرعى رأى آفاقا للأدب أوسع مما كان يراه بدمياط واتصل بكبار الكتاب والشعراء يسمع منهم ، ويسمعون منه ، ويناقشهم ويناقشونه واطلع حينذاك على دواوين الكثير من الشعر العربى قديمه وحديثه ، وعلى إلياذة هوميروس ترجمة البستانى وعلى غيرها من الشعر الأجنبي المترجم إلى اللغة العربية ، كما اطلع على الكثير من موسوعات الكتب الأدبية فى اللغة العربية .

ونشرت له الصحف شعره ، وكان أول نظمه للشعر وهو طالب بالسنة الثانية بمعهد دمياط قبل أن يدرس علمى العروض والقوافى ، فشجعه ذلك وزاده أقبالا على الشعر قراءة ونظما .. وقد عرف الشاعر شخصيتين كان لهما الأثر المحمود فى حياته الأدبية :

أما الشخصية الأولى فهو الشيخ (مصطفى عبد الرازق) شيخ الأزهر اتصل به الشاعر وهو طالب بالأزهر وكان الشيخ مصطفى فى ذلك الحين مفتشاً بالمحاكم الشرعية ، أعجب بالشاعر الأزهرى الناشىء ، وشجعه أكرم تشجيع ، وسعى لإيجاد عمل له وهو طالب فعينه مصححا بجريدة (السياسة اليومية) ونشرت له فى ذلك الحين جريدة (السياسة الأسبوعية) الكثير من شعره ، وكانت هذه الجريدة غزيرة المادة واسعة الانتشار فى مصر والبلاد العربية ، فأخذ الشاعر - وهو طالب بالأزهر طريقه إلى الشهرة بما ينشره من الشعر فى هذه الجريدة بين رعاية الشيخ مصطفى عبد الرازق وتشجيعه .

وأما الشخصية الثانية فهو (أنطون الجميل) رئيس تحرير جريدة الأهرام

عرفه الشاعر بعد أن تخرج من الأزهر ، وقد انعقدت بينه وبين الشاعر صداقة ومودة ، وكان أنطون الجميل يعجب بشعره كثيرا ، ويفسح له صدر جريدة (الأهرام) لنشر شعره ، وكان لهذا الأعجاب ولجريدة الأهرام الأثر الجميل فى نفس الشاعر وشعره . .

— ٤ —

ويقول الشاعر عن نفسه فى مقدمة ديوانه الضخم « ديوان الأسمر » :
إن نظم الشعر لا يستقيم أمره للشاعر إلا إذا كملت أدواته لديه ، ومن أهم هذه الأدوات الاطلاع على اللغة وآدابها ، والشعور الصادق ، والقدرة على صياغة هذا الشعور فى الألفاظ المتخيرة ، وحال الشاعر فى معاناته لنظم الشعر أشبه الأشياء بحال التى تلد ، فمعانى الشاعر وصياغته اللفظية التى تتمخض عنها انفعالاته النفسية أبياتا من الشعر ليست فى الحقيقة إلا ميلادا لبنات أفكار الشاعر ، ولعل هذا هو السبب الأكبر لتعصب الشاعر لشعره وحبه إياه ، أيا كان هذا الشعر ، كما هو شأن الأم مع أبنائها ، والوالد مع أولاده . وقد يظن بعض الناس أن الشعراء لا يعانون فى صياغة الشعر ما يرهقهم ، وقد أخبرنى بعض إخوانى أنهم لا يجدون فى صياغتهم لما ينظمون كثيرا من العناء ، أما أنا فأجد من ذلك الشىء الكثير ، حتى لأحاول أحيانا اقتضاب القصيدة والخلاص منها لشدة ما أعانيه من الانفعالات بسببها ، فأجدها ممسكة بتلابيبى ، متشبثة بى كأنها أمواج قوية تجذبنى إلى داخل بحر أود الخروج منه فلا أستطيع ، ولا تزال هذه الأمواج تتلاعب بى حتى تقذف بى إلى الساحل ، ومعنى ذلك أنى فرغت من القصيدة ، أو بعبارة أقرب إلى الحقيقة أن القصيدة فرغت منى وأنى فى أول نظمى للقصيدة أجدنى مسوقا إلى نظمها بشعور خفى ليس فيه ما يرهق أعصابى ، ثم يأخذنى التيار الجارف فيربد وجهى ، وأظل ذابل البصر ، غائبا بعض الغياب عما حولى ، وفى هذه الحالة إذا نمت كان نومى متقطعا أغفو الإغفاءة ، ثم أقوم ناهضا إلى القلم

والقرطاس ، لأن معنى من المعانى تمت صياغته بيتا من الأبيات ، وإنه ليخيل إلى أن مخى فى أول عمل القصيدة إنما هو (ساعة) أملؤها وهو بعد ذلك يؤدى عمله بنفسه ولا سلطان لى عليه كما تؤدى الساعة عملها بعد ملئها . وطالما خيل إلى أثناء عمل القصيدة أن قلبي موقد ملتهب ، وأن رأسى فوقه كالوعاء به أشياء كثيرة تتبخر ثم تتقاطر شعرا ! وإنه ليخيل إلى أحيانا أن المعانى حينما تجول برأسى أنها هى نفسها التى تبحث عن ألفاظها اللائقة لها ! كأنها أسراب طائرة ، كل طائر منها يبحث عن وكره ، فإذا وجده ترك به مستقرا مطمئنا ، وإن لم يجده ظل شاردا حتى يهتدى إليه ، فإن نزل بلفظ غير لفظه الجدير به حل فيه مضطربا قلقا كما ينزل الطائر بغير وكره ، ثم أغادره محلقا برأسى جائلا هنا وهنالك باحثا عن لفظه وأنا فى كل ذلك كأنى شخص غريب يشاهد وينظر ، لا الشاعر الذى يصوغ وينظم ، وليس لنظم الشعر عندى وقت خاص أو مكان خاص . . فإنه حينما تحضر شياطينه أو ملائكته يأخذ على كل وقتى حيثما كنت ، فأقول وأنا فى المنزل وأقول وأنا فى الطريق ، وأقول وأنا وحدى . وأقول وأنا مع الناس ، كل ذلك وأنا فى شبه غيبوبة ، ولقد أفرغ من القصيدة أو تفرغ هى منى ، فأقرؤها بعد ذلك وأعجب لما بها وكيف تمت صياغتها حتى كأنى لست بصاحبها وإن السعادة الكبيرة التى يشعر بها الشاعر بعد فراغه من نظم قصيدته هى وحدها التى تنسيه ما عاناه فى نظمها ، كالسعادة التى تجدها الأم بعد أن تلد ، هذا على أن من الشعر مايوانى فى بعض الاوقات من غير إجهاد نفسى ، فأفرغ منه وكأنما كنت أحلم حلما هادئا جميلا ، ولست فى صياغتى لشعرى من الذين يلزمون أنفسهم مالا يلزم ويضيقون ما ليس بضيق ، فربما خالفت علماء العروض فيما لايتعارض مع النغم الشعرى كما أراه ، كما أنى إذا وجدت للفظة المألوفة الخفيفة على السمع ما يجيزها من النحو أو الصرف أو الاشتقاق أو القيـــاس اللغوى أجزتها وفضلتها على غيرها ، مادام غيرها لايقوم فى النغم الشعرى مقامها . .

وهذه الكلمة تكشف لنا عن كثير من الجوانب الغامضة في شاعرية الأسمر وشعره .

— ٥ —

وقد عاصر الشاعر رجالا كانوا فى الأدب موازين دقيقة اعترفوا له بالفضل والعبقرية فى فنه ، ولو جمعنا ما كتبه الكاتبون عن شعره فى مصر والبلاد العربية شعرا ونثرا لكون ذلك كتابا ضخما . وقد كتبت عنه دراسات فى « مذاهب الأدب » و « الأزهر فى ألف عام » و « مع الشعراء المعاصرين » والشعر والتجديد وقد احتفى الشعراء فى مصر والعالم العربى بالشاعر الأسمر ، وسجلوا آراءهم فيه فى قصائد عديدة طويلة .

ووصف شعره الشاعر الكبير (خليل مطران) فقال : إن شعر الأسمر رائع فاتن ، وهو أشبه الأشياء بقوس قزح فى جماله وتعدد ألوانه وقال عنه الشاعر (عزيز أباظة) : إن شعر الأسمر مزاج من الحس الدقيق فى الشعر الرقيق ، وتلك مرتبة ارتفع لها الشاعر الكبير وأخشى أن تكون قد أعجزت بعده كل شاعر كبير وقال الأستاذ الأكبر الشيخ (محمد مصطفى المراغى) إن الأستاذ الأسمر رفع من شأن الأزهر فى مناسبات مختلفة أمام الهيئات التى لم تتصل بالتعليم الأزهرى عن كثب » .

وقال الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق : « لشعرك تأثير فى نفسى أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أحبها وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا فى أسلوب سهل . فيسرى فى الأرواح ويفجر العواطف خلالها تفجيرا » .

ولأعلام الصحافة وكتابها آراء كثيرة فى شعر الأسمر ، فأنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام يقول عن شعر الأسمر : شعر الأسمر فى معظمه مزيج من الحقيقة والخيال ، يرتفع الشاعر حينا فى جو التصور فيصور

مايجلوه له الخيال ، ويغوص إلى أعماق النفس حينا فيروى مايشعره به حسه ويدرج حينا فى عالم الحقائق المجردة فيصف شئون الحياة كما هى جميلة أو شوهاء ، سعيدة أو مبتئسة ، مفترة الثغر أو مقطبة الجبين . . ولما كان شاعرنا خبيرا بأساليب النظم ، عليما بأسرار القوافى فإن التعبير يجيئه فى هذه المواقف الثلاثة طيعا ، ويلبيه مؤديا لما يريد ، . والأسمر حينما يدرج فى عالم الحقائق المجردة لايتورع عن اقتناص اللفظة الواقعية ، وإن كان الشعراء قد تواضعوا على نبذها من لغة الشعر ، وقد نحا هذا النحو (فيكتور هوجو) الذى ذهب هذا المذهب قبل سواه حين قال : « لقد أثرت عاصفة فى قعر الدواة ، فلم يبق هناك كلمات من طبقة الأشراف ، وكلمات من طبقة السوقة ، فقد سميت الخنزير باسمه ، ولم لا ؟ » ، اسمع الأسمر يحمل على (الامتيازات الأجنبية) ويهيب بنواب الأمة فى أقسى العبارات أن يحطموها فيقول :

حطموا الأغلال عن أمتكم　　　وازأروا بالحق فيمن زأرا

لا تموءوا هـــرة محبوسة　　　بل أسودا غاضبات للشرى

واخلعوا الأرسان لستم حمرا　　　واطرحوا النير فلستم بقرا

وتقول عنه (بنت الشاطىء) لشعر الأستاذ الأسمر طابعه الخاص الذى يتلاقى فيه القديم والجديد ، ففيه مايرضى أصحاب المدرسة التقليدية المولعة بفخامة اللفظ ، وجزالة العبارة ، وإجادة السبك ، وفيه مايرضى أبناء المدرسة المفتونة بحرية التعبير وبساطة الأداء ورقة النغم ، وقد يأتلف المذهبان ويجتمعان عنده فى القصيدة الواحدة ، فتصدر بالغة القوة ، عنيفة الواقع ، رائعة الأسر ، عالية الرنين ! وأناشيد الشاعر وقصائده المعبرة عن وقع الحياة على حسه ووجدانه تتميز بعذوبة النغم وفيها تتجلى من الأسمر شخصية (شاعر العصر) بكل ماتعرف عن عصرنا من حرية وطلاقة وبساطة ، وشعر الأسمر عن الأشخاص الذين عرفهم أو أعجب بهم قد يضيق به ناقد يكره شعر المناسبات ولكنى أبادر فأشيد بأن الأسمر لا يبدو هنا ممن يتصيدون المناسبة ليقولوا الشعر ، وإنما يقوله حين تقوى المناسبة فتهز وجدانه وتثير شاعريته ، ومن

ثم لم تكن قصائده في هذا المجال مجرد نظم متكلف مصنوع وإنما هي من نوع الإخوانيات التي اعترف بها الأدب العربي من قديم وأدخلها في تراثه الفني ، والأسمر مدين اصدقه الفني بسلامة شعره فهو لا يتحدث عن الشخص إلا مخلصا صادقا ، ولا يمدح من يمدح أو يرثي من يرثي إلا عن ود ووفاء

وحينما أسندت الصفحة الأدبية في جريدة الزمان التي كان يصدرها الصحفي المعروف إدجار جلاد إلى الشاعر ، أنشأ الأسمر فيها بابا أسماه « ركن الأدب » وكانت رسالة هذا الركن الأخذ بيد الشعراء الناشئين وكان « ركن الأدب » يفتح صدره لكل ألوان الشعر ، ويعنى بذات الأدب شعرا أو نثرا أكثر من عنايته بالكلام عن المذاهب الأدبية ، ولم يكتف الشاعر بتشجيع الناشئين من الشعراء تشجيعا أدبيا بل عمل على أن يقيم لهم مسابقات شعرية ذات جوائز مالية ، فأقام لهم باسم « ركن الأدب » مسابقتين ، كانت الأولى سنة ١٩٥١ م ومجموع جوائزها خمسون جنيها وكانت الثانية سنة ١٩٥٢ م ومجموع جوائزها مائة جنيه .

واحتجب « ركن الأدب » حينما احتجبت جريدة الزمان ، وقد أثمر هذا الركن في أعوامه القليلة ثمرات محمودة ، ونما في روضه كثير من الشعراء الشعراء الشبان الذين أصبحوا معروفين بعد ذلك .

— ٦ —

وللأسمر مؤلفات عديدة منها :

١ — تغريدات الصباح : وهي أول مجموعة شعرية للأسمر ، وقد كتب مقدمة هذه المجموعة أنطون الجميل رئيس تحرير جريدة الأهرام ، وعدد صفحاتها ٢١٦ ، وطبعتها على نفقتها ونشرتها « دار المعارف » بالقاهرة .

٢ — ديوان الأسمر : وقد ظهر بعد « تغريد الصباح » وجمع الشاعر في هذا الديوان كل شعره حتى سنة ١٩٥٠ م ، وضمنه مجموعة « تغريدات

الصباح ، والذى وضع مقدمته صديقه القائمقام عبد الحميد فهمى مرسى ، وعدد صفحات هذا الديوان ٦٧٨ صفحة وقد نشرته « دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة » .

٣ — مع المجتمع : وهو كتاب نثرى ينقد فيه أحوال المجتمع فى أسلوب أدبى جذاب . قال عنه بعض الأدباء : « إن كتاب (مع المجتمع) يتنقل بك فيما يحيط بنا من شئون الحياة ـ وصف ـ جد ـ دعابة ـ كل ذلك فى أسلوب سهل ممتع . إذا بدأت قراءته لم تتركه حتى تنتهى منه ، وإذا قرأته عدت إلى قراءته » ويقع فى ١٩٢ صفحة ، ويشتمل هذا الكتاب على الأبواب الآتية : من وحى الحياة ، من وحى الحرب ، من وحى الدين ، من وحى النيل ، من وحى الأغانى ، من وحى الدعابة . . وقد نشرت الكتاب « دار إحياء الكتب العربية » .

٤ — بين الأعاصير : وهو ديوان يضم ما نظمه الشاعر بعد سنة ١٩٥٠ م ، وقد كتبت مقدمته وطبعته دار الفكر العربى .

— ٧ —

ولم يكن للشاعر مذهب خاص يدعو له ، أو يلزم نفسه بالسير على منهاجه ولكنه يدعو إلى مذهب عام يشمل الشعر كله ، وذلك المذهب هو الإجادة ، فهو لا يعد الشعر شعرا إلا إذا كان جيدا ، سواء كان الشعر عاطفيا ، وهو ما يسمونه شعرا « غنائيا » أو « مسرحيا » أو غير ذلك وسواء كان الشعر « كلاسيكيا » أو « رومانتيكيا » أو « واقعيا » أو غير ذلك ، مع مراعاة القواعد والأصول الفنية الخاصة بكل نوع من هذه الأنواع ، وكل لون من هذه الألوان .

ويرى الأسمر أن نظم الشعر لا يستقيم أمره للشاعر إلا إذا كملت لديه أدواته ومن أهم هذه الأدوات ما يأتى :

١ ـ الاطلاع على اللغة التى ينظم بها الشاعر شعره .

٢ ـ الاطلاع على آداب هذه اللغة .

٣ ـ الشعور الصادق بالموضوع الذى ينظم فيه الشاعر شعره .

٤ ـ القدرة على صياغة هذا الشعور فى الألفاظ المتخيرة اللائقة بالموسيقى الشعرية هذا إذا كان الشعر من النوع العاطفى « الغنائى » أما إذا كان الشعر « مسرحيا » مثلا فإنه يجب أن ينضم إلى ذلك مراعاة قواعد « المسرحية » وأصولها ، ولا يكفى أن يكون الشعر جيـــدا وإذا كانت المسرحية أو « الملحمة » أو « القصيدة » تاريخية وجب على الشاعر أن يراعى الحقائق التاريخية ، وأن يكون قوى الحجة إذا كان له رأى من الآراء يخالف رأى المؤرخين ، وإلا كان الشاعر مشوها للتاريخ ، وهكذا فلكل لون من ألوان الشعر قواعده وأصوله الفنية مع مراعاة الأساس فى كل ذلك ، وهو أن تكون لدى الشاعر الموهبة والأصالة فى النوع الذى ينظم فيه .

والشاعر لايرى مذاهب الشعر مذاهب متنافرة ولكن يرها أنواعا وألوانا كلها جميل ، إذا تمت لكل منها الأصالة والإجادة..ويرى أنه يجب على كل شاعر أن يدرس نفسه فيغرد التغريد الذى يميل إليه بفطرته ، وأن يبتعد كل الابتعاد عن التقليد وهو يقول : إن الله الذى وهب (البلبل) و (الكروان) و (الحمامة) و (اليمامة) وغيرها من الأطيار تغريداتها الجميلة المختلفة خلق الشعراء كذلك ، ومنحهم ما منحهم من شتى ألوان التغريد، وهو يرى أن الشعراء على اختلاف عصورهم ومذاهبهم ولغاتهم ازاهير روضة، لكل زهرة جمالها الخاص ، وعبيرها الخاص.. ويرى الشاعر أن بعض الذين تعرضوا لنقد الشعر أخطئوا حينما تناولوا بالنقد والتجريح ما أسموه بشعر المناسبات وأن الشعر العاطفى كله إنما تدعو إليه مناسبة من المناسبات العاطفية من عشق ، وحب وإعجاب ، ومن حزن ، وغضب وبغض ، غير ذلك من العواطف التى هى البواعث الحقيقية لشعر القلب .. والشاعر يرى أن الشعر

إنما هو (روح الذى ينظمه والدم) وأنه إذا دعى لمدح من لا يرى مدحه فكأنه (يدعى ليوضع فى القيود) ، وأن من يتكلف الشعر فهو كمن يلعب القرود وأن الشعر (ما أوحى به الشعور). وهو يقرر أنه لا يتاجر بشعره ، ولا يتكسب به ، بل يقول ما يعتقد وإن جر ذلك عليه المتاعب . على أن الشاعر مع ذلك كله يرى أنه إذا كلف الشاعر بعمل شعر ، أو تكسب به ، أو جامل ، وصادف ذلك منه انبعاثا نفسيا فيما قاله مكلفا بقوله ، فهو حينئذ شاعر يصدر عن عاطفة شعرية . ولا يضيره أنه كلف أو تكسب أو جامل .

وللشاعر آراؤه فى الشعر والشعراء المعاصرين ، وكان ينشر هذه الآراء منذ ثلاثين عاما فى السياسة الأسبوعية ثم والى نشرها بعد ذلك فى الأهرام ثم فى الزمان وفى الصحف والمجلات الأدبية المختلفة ، ويمثل فهم الأسمر للشعر تمثيلا واضحا مقال كتبه عن شوقى وشعره وشاعريته ونشره فى السياسة الأسبوعية .

والأسمر ليس من الذين يتعصبون للشعر القديم أو الشعر الحديث ولكنه يميل إلى الجيد منه فى شتى عصوره ؛ فهو لا يتعصب لأى لون من ألوان الشعر ، بل يرى أن من الحق الطبيعى لكل شاعر أن يفرد بما يتفق مع ميوله وفطرته ، ولكنه يرى أن الشعر لا بد له من أمرين : أولهما وضوح المعنى وثانيهما البراعة الفنية فى صياغة التعبير . . وهو يعد هذين الأمرين جناحى الشاعر الذين يحلق بهما فى سماء الشعر ، مثله فى ذلك مثل الطائر . . لا يستطيع التحليق بغير جناحين ، لا بجناح واحد . . ومن شعر الأسمر قصيدته « يامصر » :

هل بات يغنى أن يقال لها : اسلمى
إن صح ذلك فاسلمى ثم اسلمى

يامصر إن الله جل جلاله   لا يستجيب إلى دعاء النوم
اليوم ألسنة المدافع وحدها   مقبولة الدعوات طاهرة الفم

فالأرض للأقوى على جنباتها ليست لأتقاها ، ولا للأعـــلم
الجـــو لم تملكه غير نسوره والغاب لم يملكه غير الضيغم
والحق ليس ببالغ « جوديه » حتى يخوض إليه طوفان الدم

ومن قصيدة له عنوانها « التشريع الإسلامى » :

أيها المسلمون ليس بكاف أننا المسلمون بالأسماء
نحن إن لم نعمل بما أنزل الله فدعوى الإسلام محض ادعاء
إنما المسلمون بالعمـــل الصا لح لا بالمظاهر الجـــوفاء
فانشروا راية (الكتاب) يرفرف
منه فوق الأنام خـــير لواء
واستعيدوا أمجادكم وأعيدوا عهد حـــكم النبى والخلفاء
وخذوا بالكتاب فى كل شىء إن فيه حقائق الأشياء

الشاعر محمود غنيم

١٩٠٢ – ١٩٧٢ م

تمهيـــد :

فى الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٧٢ ودع الشاعر العربى الكبير محمود غنيم الحياة عن سبعين عاما قضاها فى كفاح طويل ، وعاشها أليفاً للمحن وخطوب الأيام ، كما يقول :

وقائل : كيف أنت فى المحن ؟ ... فقلت : إلفان نحن من زمن
قد خلقت لى وقد خلقت لها ... من قبل أن لم تكن ولم أكن
إذا بدت بسمة على شفتى ... تشكو إلى الله غربة الوطن
من طول إلف الأسى أنست به ... فإن أطال الجفاء أوحشنى
أكاد ألا أعد من عمرى ... يومى إذا ماخلا من الحزن
من كان حر الهموم يصهره ... فإن حر الهموم يصقلنى(١)

وإن كان ـ مع المحن التى لقيها طول عمره ـ قد عاش حياته مزاجا متعادلا من الألم والأمل ، ومن البكاء والضحك ، ومن الحزن والفرح ، يقول(٢) :

دعونى أقضى الحياة مزاحا ... وأقطعها بهجة وانشراحا
لقد قرحت جفنى العبرات ... وأثخن قلبى الأنين جراحا
أأقطع عمرى أنينا وشكوى ... وألبس فيه الحداد وشاحا ؟
وما أنا والهم مادمت ألق ... بدنياى خبزا وماء قراحا
ومن ضاق ذرعا بدنياه ضاقت ... عليه وإن هى كانت براحا

---

(١) ص ١٥٦ فى ظلال الثورة .
(٢) ص ١٥٧ المرجع نفسه .

فما عاش حى أطال الهموم ولا مات حى أطال المراحا
لقد جهل الغر فن الحياة وأدركته فابتسمت وناحا

ولم يودع الشاعر الحياة إلا بعد أن فرغ من آمالها الخادعة ، فلم يعد هناك مكان فى صدره للتعلل بالأمانى والأحلام(١) :

خليلى حتام التعلل بالمنى دعانى فإنى قد عرفت مكانيا
عرفت حياتى بؤسها ونعيمها فياليت شعرى بعدها ماورائيا

وبعد أن شعر بالغربة ، وتمنى الراحة الأبدية(٢) :

إذا ماعشت فى جيل جديد فإنك فيه أشبه باليتيم
ولم أر مثل طيف الموت ضيفاً يلم بساحة الحر المضيم

حيث كان قد شيع أصحابه ، واحداً إثر واحد ، ومضوا قبله إلى ساحة الخلود ، وأصبح قريبا من النزول بالدار التى نزلوا بها(٣) ، بل أصبح يدعو نفسه أن تتبعه إلى الحياة الأخرى(٤) :

دعينى أنج من دنيا الهموم وفى ملكوت عرش الله هيمى
دعى خدع المنى يانفس إنى أريد البحث عن عيش كريم
لقد منيتينى دهرا طويلا فعدت وماحصدت سوى الهشيم
فأعطينى مقادك واتبعينى أقدك إلى الصراط المستقيم

ولم يلبث إلا قليلا حتى لبت نفسه داعى الله ، وفارق الدنيا إلى ملكوت

(١) من قصيدته « حنين إلى الماضى » ـ بديوانه المخطوط .
(٢) من قصيدته « المشيب » بديوانه المخطوط .
(٣) راجع قصيدة « أشيع أصحابى » بديوانه المخطوط .
(٤) من قصيدة « صفاء النفس » بديوانه المخطوط .

عرش الله ، بين دموع الأحباب ، وذكرى الأصحاب ، وتكريم المكرمين يقول الشاعر العوضى الوكيل فى تأبينه(١) :

أنت حى وإن نعاك النعاة   كيف تنعى إلى الحياة الحياة
أيها الشاعر العظيم سلاما   ما أظلت ضحى وجاءت غداة

ويقول الشاعر حسن كامل الصيرفى(٢) :

عاش يطوى الزمان قرنا فقرنا   وهو تسعى إلى الخلود خطاه
نحن نمشى والنعش يحمل دنيا   سوف تدرى فراغها دنياه

ويشتد الهلع بالشاعر محمد عبد الغنى حسن فيقول(٣) :

الشعر بعد غنيم   باك حزين المشاعر
جيل الأوائل يمضى   فأين جيل الأواخر ؟
وهل لتلك العهود الـ   ـوضاء ياقوم ذاكر ؟

ويحسده الشاعر كامل أمين على الموت الذى أراحه من كل عجائب الحياة(٤) :

وما مات إنسان محا الموت ظله   وطالعنا تاريخه بالروائع
وإن كنت لم أحسدك إلا على ردى
أراحك مما فى الورى من فظائع

ومضى بموت « غنيم » جيل من الشاعرية والإبداع والرصانة والعربية

---

(١) موع على الشاعر محمو غنيم ص ٥٤ .
(٢) المرجع ص ٤٠ .
(٣) المرجع ص ٣٥ .
(٤) دموع ص ٨٣ .

الفصحى ، فقد « كان الشاعر الراحل فى طليعة من أنجبتهم مصر من شعراء العربية وأدبائها فحولة وأصالة وصدقا والتزاما »(١) ؛ وكان « محمود غنيم يمثل الشاعر الحق بشوامخ شعره »(٢) ، وكان « من ذلك الرعيل الذى أشرب حب الشعر العربى الجزل الأصيل ، بديباجته الرائعة ، وصوره الدافئة ، ومعانيه المتألقة وأخيلته المجنحة ؛ وهو إلى ذلك شاعر مصرى أصيل ، عذب البيان ، سلس العبارة ، موسيقى اللفظ ، عميق النظرة ، صافى التأمل ، هادىء النفس ، مولع بالريف المصرى ، ومتفان فى حب أهله »(٣) ، وكان غنيم ظاهرة منفردة فى أدبنا الحديث ، كان متين البناء الشعرى ، إلى جانب براعة الصور ونضارة التعبير ، وعذوبة الألفاظ ، وعصرية الموضوعات(٤) ، ويقول عنه الدكتور نجيب الكيلانى(٥) : « انطوى بموت غنيم علم من أعلام النهضة العربية المعاصرة » ، ويقول عنه الشاعر الكبير صالح جودت : « علم من أعلام الشعر الكلاسى الرصين ، خدم قضية الشعر والأدب عامة ، زهاء نصف قرن من الزمان ، وعاصر رواد عصره شوقى وحافظ ومطران »(٦) .

لقد مضى غنيم وترك وراءه ذكرا خالداً ، وشعرا تالدا ، ومجدا باقيا ، ما بقى الزمان . .

---

(١) دموع ص ٢٥ من كلمة الأستاذ الكبير يوسف السباعى وزير الثقافة .

(٢) دموع ص ٢٧ من كلمة الشاعر الكبير عزيز أباظة .

(٣) دموع ص ٤٥ من كلمة الدكتور مختار الوكيل .

(٤) دموع ص ٥٧ من كلمة الأستاذ عبد العزيز الدسوقى .

(٥) دموع ص ٩٢ من كلمة الدكتور نجيب الكيلانى .

(٦) دموع ص ١٠٢ نقلا عن مجلة الهلال عدد نوفمبر ١٩٧٢ .

حياة الشاعر

حياته الأولى :

ولد الشاعر محمود محمد غنيم فى الريف المصرى ، فى قرية صغيرة من قرى المنوفية اسمها « المليج » ، فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٠٢ ، من أبوين كريمين صالحين ، وكان أوسط أخويه : أحمد وعبد الواحد ؛ وكان أبوه محمد وعمه السيد يعملان فى الزراعة والتجارة(١) .

ودخل مع أخويه المدرسة الأولية بالقرية ، ثم كتاب الشيخ على عيسى وحفظ محمود القرآن الكريم ، وألم بعض الإلمام ببعض قواعد الحساب والإملاء ؛ وفى سن الثالثة عشرة من عمره التحق بالمعهد الأحمدى بطنطا عام ١٩١٥ ، ومكث فيه أربع سنوات (١٩١٥ - ١٩١٩) ، حيث توفى والده فى هذا العام الذى نشبت فيه الثورة المصرية ضد الاحتلال الانجليزى ؛ والتحق محمود إثر ذلك بمدرسة القضاء الشرعى ، حيث مكث فيها ثلاث سنوات (١٩١٩ - ١٩٢٣)(٢) ، وألغيت هذه المدرسة فى ذلك العام ، فالتحق بالمعاهد الدينية (١٩٢٣ - ١٩٢٤) ونال منها الشهادة الثانوية .

وعين مدرسا فى المدارس الأولية فى بعض القرى ، وفى عام ١٩٢٥ التحق

---

(١) راجع المقدمة التى كتبها الأستاذ محمد أحمد سلامة لكتاب « دموع على الشاعر محمود غنيم » (٣ - ١٤) ، وكتابى « من تاريخنا المعاصر » ص ١٧٥ - ٢٢٠ طبعة عام ١٩٥٨ بالقاهرة .

(٢) يلاحظ أن هذه المدة أربع سنوات لا ثلاث ، وذلك أن سنة الثورة المصرية ألغيت الدراسة والامتحانات فيها .

بدار العلوم ، وظل فيها أربع سنوات (١٩٢٥ - ١٩٢٩) حيث تخرج منها مدرسا للغة العربية والأدب العربى . .

وإثر تخرجه عين مدرسا فى كوم حمادة من أعمال مديرية البحيرة ، ويشير الشاعر إلى حياته الأولى هذه فى قصيدته « حنين إلى الماضى » ، وهى إحدى قصائد ديوانه المخطوط فيقول :

سلام عليها فى « مليج » مثابة
حفظت بها السبع القصار المثانيا
سلام على طنطا ومعهدها الذى
نظمت به قبل البلوغ القوافيا
سلام على دار القضاء وأهـــلها   وربع من العرفان أصبح خاويا
سلام على دار العلوم وعهدها   وهيهات هذا المعهد يرجع ثانيا
مغان غرفت العلم من غرفاتها
وأودعت فيها بضعة من شبابيا

حياته فى الوظيفة :

١ — عاش الشاعر فى كوم حمادة تسع سنين مدرسا فى مدرستها الابتدائية ، ويصف لنا حياته فيها ، فيقول من قصيدته : « كأس تفيض »(١) :

أيذوى شبابى بين جدران قرية   يباب كأن الصمت فيها مخيم ؟
أكاد من الصمت الذى هو شاملى   إذا حسب الأحياء لم أك منهمو

---

(١) ٢٤٤ ديوان « صرخة فى واد » لغنيم - الطبعة الأولى .

وعـــاشرت أهليها سنين وإننى ... غريب بإحساسى وروحى عنهمو
سئمت بها لونا من العيش واحدا ... فدارى بها دارى ، وصحبى همو همو
حياة كسطح الماء والماء راكد ... فلا أنا مسرور ولا متألم
وما أبتغى إلا حياة عميقة ... تسر فأرضى أو تسوء فأنعم
فمن مبلغ (بنت المعز) بأن لى ... فؤادا عليها كالطيور يحوم
لعمرى إنى قـــد برمت بصبية ... أروح وأغدو كل يوم إليهمو
صغار نربيهم بمثل عقولهم ... فنبنيهمو لكننا نتهدم
لأوشك أن أرتد طفلا لطول ما ... أمثل دور الطفل بين يديهمو

وتزوج الشاعر وهو فى كوم حمادة من أسرة كريمة فى بلدته أوائل عهده بالوظيفة ، ويستقبل أول مولود له بقصيدته « تحية مولود » التى يقول منها(١) :

أيها الطارق الجديد سلاما ... أسأل الصفح إن أسأت لقاءك
عـــلم الله ما كرهتك ضيفاً ... لا ، ولكننى كرهت شقاءك
بت أخشى عليك جور الليالى ... فالليالى ما أنصفت آباءك
غير أنى أمسيت رغم شعورى ... أتمنى عـــلى الزمان بقاءك
ليتنى عشت مثلما عشت غراً ... تغمض المقلتين عما وراءك
إننى يابنى أسكن أرضا ... دائماً همها ، فصف لى سماءك
فقد توارت طفولتى فى ظلام الـ ... غيب فانشر على دجاها ضياءك
لكأنى نشأت خلقاً جديداً ... يوم ناديت فاستمعت نداءك
عل من وكل البلى بردائى ... يجعل الخز يابنى رداءك

---

(١) ٢٤٧ المرجع نفسه ، وقد نشرت فى مجلة الرسالة عام ١٩٣٥

وفى هذه الفترة نظم أحلى قصائده :

- لاتخدعونى بالمنى(١) .

- الأمل الطائح(٢) .

- لجيعة فى ساعة(٣) .

- العيد والأزمة(٤) .

- راتبى(٥) .

- الأسد السجين(٦) ،التى يرمز فيها لنفسه ولحياته فى هذه القرية الريفية المتواضعة .

- العلاوة(٧) التى تحمل روح الثورة على النظام السائد آنذاك ، وفيها يقول :

مالى أرى أموال مصر كأنها بعض الحبوب تكال بالمكيال
حتى إذا طلب الصغير حقوقه شكت الخزانة قلة الأموال

- قصيدة الكادر(٨) ، التى يؤجج فيها نار الثورة على العهد البائد فيقول :

---

(١) ٢٥١ صرخة فى واد
(٢) ٢٥٦ » » »
(٣) ٢٦٢ » » » والرسالة عام ١٩٢٧
(٤) ٢٦٦ » » » والأهرام عام ١٩٣٣
(٥) ٢٥٢ » » » والرسالة عام ١٩٣٥
(٦) ٢٥٧ » » » والرسالة عام ١٩٣٤
(٧) ٢٥٤ » » »
(٨) ٢٥٥ » » » والأهرام عام ١٩٣٧

أيها القوم حسبكم إرهاقا كم علينا تضيقون الخناقا
ويحكم لا منابع النيل غاضت لا ، ولا سطح مصر بالناس ضاقا

- في سكون الليل(١) .
- الريف(٢) .
- أنا وابناى(٣) .

إلى غير ذلك من حلو شعره وأعذبه وألذعه ، وأحفله بنار الثورة المكتومة .

٢ — وفي عام ١٩٣٨ يصدر قرار بنقل الشاعر إلى القاهرة مدرساً للغة العربية بمساع كريمة من بعض محبى الأدب والشعر ، ومن بينهم أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام آنذاك ، وله في شكره قصيدة نونية جميلة ، استقبل فيها القاهرة ، وشكر الرجل على مأثرته عنده(٤) ، واختير لمدرسة الأورمان المشهورة وهى من المدارس الممتازة(٥) .

وفي القاهرة عاش غنيم مع الشعراء والأدباء ودور النشر والصحف والمجلات الأدبية ، وفي مقدمتها : مجلة الرسالة التى كانت تنشر له آنذاك شعره باحتفاء كبير . وله في تحية « الرسالة » قصيدة(٦) ، يقول فيها :

---

(١) ١٤٢ صرخة في واد
(٢) ١١٤ » » »
(٣) ١١٨ » » »
(٤) ١٦٦ في ظلال الثورة - قصيدة « عودة إلى مصر » .
(٥) راجع هامش صفحة ١٥٢ من كتاب « خمسة من شعراء الوطنية » .
(٦) ٢٢٨ ديوان صرخة .

وقالوا : الرسالة ، قلت : وهل ثم أجدر منها بهـذا اللقب
تطل عـلى العالم العربي وترقب أحـداثه عن كثب

وفى ندوات الأدب — التى فتن بها — يقول من قصيدة له(١) :

من هؤلاء المعشر السمار بحديثهم تتعطر الأسمار ؟
رقـد الورى وحمى عيونهم الكرى
جـدل تردد بينهم وحوار

ورقى غنيم إلى منصب مفتش للغة العربية عام ١٩٤٣ ، وفى هذا المنصب يقول(٢) :

لقد خلته يغنى عيالى من الطوى فـكان كمضروب من النقد زائف

وحين رقى غنيم مفتشا أول للغة العربية ذهب إلى وزارة التربية فلم يجد له مكتباً ، فكتب إلى وكيل الوزارة :

ولقد نقلت فلم أجد لى مكتبا ياضيعة الأوراق والأقلام
طالت بأبواب المكاتب وقفتى فتورمت من وقفتى أقدامى
كم مكتب خال جلست وراءه فإذا بصاحبه يلوح أمامى
فأقوم أسترق الخطى وكأننى لص تسلل تحت جنح ظلام(٣)

وأخيراً وصلت بالشاعر خطاه إلى منصب عميد اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم : وكان ذلك آخر عهد الشاعر بالمناصب .

واختير غنيم عضواً فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ،

---

(١) ١٢٩ ديوان صرخة .
(٢) ٢٨٨ صرخة فى واد .
(٣) ٢٧٤ فى ظلال الثورة .

ونال جائزة الشعر التشجيعية من الدولة على ديوانه «فى ظلال الثورة»، وقال فى ذلك قصيدة فى ديوانه المخطوط .

وذهب غنيم إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، وقال فى ذلك قصيدتيه : فى أرض النبوة وحمائم الحرم ، وهما بديوانه المخطوط .

ووهنت صحة الشاعر ، وثقلت فى المشى خطاه ، بما صوره فى قصيدته «حنين إلى الماضى» ، وهى إحدى قصائد ديوانه المخطوط . وفى قصيدته «المشيب» أيضا ، وهى إحدى القصائد التى يحتوى عليها الديوان المخطوط يقول :

ألم ترنى أخا ظلع إذا ما ... مشيت ، وكنت أعدى من ظليم
كأنى من أساى على شبابى ... أمثل مشية الطفل الفطيم
حملت عصاى متكأ وكانت ... لمحض الزهو فى الزمن القديم
وما كانت لتجبر ضعف ساقى ... ولو كانت عصا موسى الكليم

وأخيرا لقى الشاعر أجله ، وشيعه أحبابه وتلاميذه بدموع غزار ، ومات الشاعر الذى :

غنت بأشعاره الدنيا بأجمعها ... وعطر السهل بالألحان والبيدا(١)
هذا التراب يضم اليوم لؤلؤة ... كان البيان بها والله - منضودا
وأخرس الموت - جل الموت - حنجرة
وأسكت الموت - جل الموت — غريدا

وطوى الموت خليفة حافظ ، بعد أن سجل فى التاريخ صفحات جليلة فى خدمة أمته ووطنه وعروبته وإسلامه ولغة القرآن الكريم وآدابها وتراثها الخالد(٢) .

---

(١) من قصيدة الشاعر الكبير محمد عبد الغنى حسن ص ١١٤ دموع .
(٢) من كلمة للدكتور كامل السوافيرى - ٣٠ دموع .

ثقافة الشاعر وتراثه الشعرى

— ١ —

ثقافته :

كان « غنيم » من جيل الأعلام الكبار ، الذين شبوا على حب العربية وبلاغتها وشعرها وتراثها ، وقد نشأ منذ صغره مفطورا على الفصاحة ، مستهاماً بالشعر ، كثير القراءة له ؛ يحضه أبوه على حفظه ، ويقول له : اقرأ الشعر تتعلم الفصاحة(١) ، ويمنحه جائزة كلما حفظ شيئــا من الشعر من حماسيات عنترة وحكم الإمام على كرم الله وجهه(١) . وكثرت قراءاته فى دواوين الشعراء القدماء والمحدثين والمعاصرين ، وكان للصحافة الأدبية ، ولندوات الأدب والشعر فى القاهرة أثرها الكبير فى نفسه ، وقال الشعر وهو فى سن السابعة عشرة من عمره ، وأول مانظمه كان فى رثاء محمد فريد زعيم الحزب الوطنى . ولاشك أن دراسته فى الأزهر ودار العلوم ، ثم حياته وعمله وبيئته قد مكنت للثقافة العربية الأصيلة ، فى نفسه . ومن أجل ذلك جاءت عبارته عالية المنزلة فى البلاغة . ويعد من أنق المعاصرين لهجة ، وأعذبهم بيانا ، وهو من هذه الناحية شاعر بليغ يتخطى بأسلوبه القرون ، ليصل بعبارته إلى منازل المحدثين فى الجلالة والرصانة والطبع وقوة النسج .

---

(١) ٦ صرخة فى واد .

— ٢ —

تراثه الشعرى :

ترك غنيم وراءه تراثا شعريا خالدا جليلا يفخر به جيلنا ، وتعتز به الأجيال من بعدنا .

ولأ تحدث عن هذا التراث فى إيجاز شديد .

دواوين ومسرحيات شعرية

١ — ديوان « صرخة فى واد » :

نال جائزة الشعر الأولى فى مسابقة مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٧ ، وطبع على نفقة لجنة البيان العربى فى مطابع الاعتماد بمصر فى ٢٥٨ صفحة . وقد صدر الديوان بمقدمة للأديب الأباظى الشهير المرحوم إبراهيم دسوقى أباظة قال فيها : « إن العقاد رأى فى الديوان أن طابع الأسلوب والصياغة فيه أبرز من طابع التجديد والابتكار ، ويناقش الأباظى ذلك ، ويقول : إن غنيما نسيج وحده فى وضوح اللفظ المعبر عن المعنى الجميل ، وسلامة العبارة مع إشراق الصورة ، واتساق الكلمة مع المعنى . ويقول : إن الشاعر لم يفرط فى شىء من شئون الحياة أو الاجتماع أوالسياسة أو الفن إلا استوعبها خياله وقريحته وأحالاها إلى شعر عال ، ونسج فريد (١) .

وتلى هذه المقدمة كلمة كتبها توفيق ضعون الأديب المهجرى ونشرها فى مجلة العصبة الأندلسية عام ١٩٤٠ ، ثم نشرت فى مجلة الرسالة فى العدد ٣٤٧ . والديوان مقسم إلى تسعة أبواب :

الأول : فى الحرب ، ومنه قصيدتان مشهورتان : جنازة السلام ، وعصبة الأمم .

---

(١) ٧ - ١٥ صرخة فى واد .

الثانى : فى الاجتماع ، ويحتوى على أشهر قصائده : ثورة على الحضارة ـ وقفة على طلل - قومى بين الشرق والغرب .

الثالث : فى الوصف ، ومنه قصيدتاه : الريف ـ المحراث .

الرابع : فى المرأة .

الخامس : فى الرثاء وهو بعنوان « عبرات » .

السادس : فى المناسبات ، وسماه « تحيات » .

والسابع : فى هموم حياته ، وسماه زفرات » .

الثامن : فى « الدعابة » .

التاسع : متفرقات ، وسماه « أشتات » .

وهذا الديوان هو سر شهرة غنيم ويمتاز بالأصالة والطلاوة والموهبة .

٢ — فى ظلال الثورة :

طبع فى دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٦١ فى ٣٠٥ صفحة ، ويضم القصائد التى نظمها الشاعر من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٦٠ ؛ وهو مصدر بتقديم بقلم الوزير الأباظى إبراهيم دسوقى أباظه أيضا ، ويقول الأباظى فى التقديم :

صاحب هذا الديوان صاحب مدرسة شعرية تزودت من معينها الصافى عقول المثقفين قرابة ربع قرن أو يزيد . ويتحدث عن شعر غنيم وميزانه : من طلاوة البيان وشفافية الإبداع وأريج الموهبة الخلاقة(١) .

وفى تقديم غنيم لديوانه الذى يلى كلمة الأباظى يدافع عن شعر المناسبات ويقول : إن مذهبي فى الشعر أن يكون هادفا يضرب فى صميم الحياة .

---

(١) ٧ فى ظلال الثورة .

ويقول: إن المتنبي قال شعره كله تقريبا في مناسبات خاصة وفي أتفه أبواب الشعر وهو المدح(١). والمدح لا يمكن أن نعده من أتفه أبواب الشعر كما يقول غنيم، فهو نافذة كان يطل منها الشاعر العربي على السياسة والمجتمع وعلى كل دقيق وعظيم من شئون الحياة وشئون نفسه.

ويقول غنيم: إن مذهبه في الشعر أن يجمع بين القوة والسلاسة، ومقياس جودته هو سيرورته وخفته على ألسنة الرواة.

والديوان مقسم إلى تسعة أبواب أيضاً:

الأول: في ظلال الثورة، ويحتوي على قصائد عديدة مشهورة: في إعلان الجمهورية (صدى الجمهورية) وفي الجلاء (صدى الجلاء) وفي تأميم القناة، وفي الوحدة (مصر وسوريا)، وفي السد. ومنه قصيدته «عرش هوى».

والثاني: من وحي العروبة. ومنه قصائده: الكواكبي — أغادير — طرابلس — غزة.

والثالث: إسلاميات — ومنه قصائد في مولد الرسول وفي الإسراء، وفي خالد بن الوليد، ومنه قصيدتاه: تسبيح وابتهال، وصحا الشرق.

والرابع: وطنيات، ومنه قصيدتاه في كفر أحمد عبده الذي هدمه الإنجليز في حربهم مع الفدائيين الوطنيين عام ١٩٥١

والخامس: زفرات وأشجان.

والسادس: عبرات وهو في رثاء أعلام من أعلام النهضة. ومنهم: مصطفى عبد الرازق — عبد العزيز فهمي — إبراهيم دسوقي أباظة — حلمي بهجت بدوي الشاعر على الجارم، والشاعر إبراهيم ناجي.

والسابع: تحيات.

---

(١) ص ١٠ و١١ المرجع..

والثامن : دعابات :

والتاسع : متفرقات ، ومنه قصائده : النيل والسودان ـ عيد العلم ـ إلى أرى الرحمن البحتري ـ وسواها .

٣ ـ الأغنية الأخيرة :

وهو ديوان مخطوط ، يحتوى على ثلاث وتسعين قصيدة ومقطوعة ، من أشهرها : غزو الفضاء ـ على سطح القمر ـ الوحدة الكبرى ـ راهب الحقل ـ الركب المقدس ـ معجزة السد ـ دنشواى ـ بغداد ـ أعياد النصر ـ نيسان ـ فى أرض النبوة ـ حمائم الحرم ـ حنين إلى الماضى ـ مهرجان الجزائر ـ إلى مجلس الأمن ـ على شاطىء البحر .

والديوان ثروة شعرية فريدة ، ويجمع شعره من عام ١٩٦١ إلى قريب من أواخر حياته ـ ومن الجدير بالذكر أنى الذى وضعت له هذا العنوان إذ لم يكن الشاعر قد سماه باسم خاص .

٤ ـ النصر لمصر أو هزيمة لويس التاسع :

مسرحية شعرية تاريخية ذات أربعة فصول فازت بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وهى منشورة فى دارالقلم وأسهمت فى نشرها وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، وكتب مقدمتها الشاعر عزيز أباظة . والمسرحية تتميز ببساطة لغة الحوار حيث برزت سلسة منطلقة لا تعقيد فيها ولا تكلف ، والمشاهد متسقة فى ترتيب منطقى تهدى المقدمات فيه إلى النتائج كما يقول عزيز أباظة ومن روائعها :

ـ نشيد وطنى صفحة ٤٨

ـ قصة المفاوضات بين توران شاه ولويس التاسع

- شعر للسلطان حين بلغ بموت بيبرس فى معاركه مع الصليبيين .

٥ — يومان للنعمان :

رواية شعرية فى ثلاثة فصول طبع دار الكتاب العربى بالقاهرة تدور حول أقصوصة مشهورة تروى عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة فى العصر الجاهلى ، وأنه كان له يومان : يوم نعيم يغدق فيه على كل من يدخل عليه ، ويوم بؤس يقتل فيه كل من يفد عليه ، وفى رحلة صيد للنعمان فى الصحراء آواه طائى اسمه حنظلة لا يعرف أن ضيفه هو الملك المنذرى ، فعرفه النعمان بنفسه ، وطلب إليه أن يفد عليه فى الحيرة ليكافئه ، فقدم على النعمان فى يوم بؤسه ، فأمر بقتله ، واستمهله عاما على أن يأتى له بكفيل ففعل حنظلة . وكان هذا الكفيل هو قراد بن أجدع ، ولما مضى العام أخرج الكفيل للقتل ، فإذا حنظلة قادم ، فعفا عنهما النعمان ، وقال : والله لا أكون ألأم الثلاثة .

٦ — غرام يزيد :

مسرحية شعرية تاريخية ، ذات خمسة فصول نشرتها لجنة البيان العربى ، وطبعت فى مطابع اللجنة ، وقد فازت فى مسابقة وزارة الشئون الاجتماعية عام ١٩٤٩ لتأليف روايات مسرحية للفرقة المصرية ، وفى صدر المسرحية يؤكد غنيم أن الشعر هو لغة المسرح والتمثيل(١) .

وتدور حول غرام يزيد بزوجة أحد ولاة أبيه ، وتحايله على طلاقها منه ، وعزم يزيد على الزواج منها ، وحينئذ نهض الحسين بن على لإنقاذ الزوجين فتزوج مطلقة الوالى حتى لا تقع فى شراك يزيد ، ثم طلقها وردها إلى زوجها المسكين المحروم ، وهى قصة مثيرة من مواقفها الدرامية :

---

(١) ص ٧ غرام يزيد

- موقف أرينب وقد بلغها الطلاق ص ٦٣
- موقف ابن سلام زوجها بعد الطلاق ص ٦٧
- موقف رملة بنت معاوية من حبها لابن سلام ص ٧٤
- « أرينب من زواجها بالحسين ص ٩١
- « الحسين مع ابن سلام - ص ١٠٨

٧ — المروءة المقنعة : وهى مسرحية شعرية .

مؤلفات أخرى للشاعر :

١ — حفنى ناصف : وهو دراسة لحياة حفنى ناصف (١٨٥٥ - ١٩١٩) وعبقريته ، وقد نشر فى سلسلة أعلام العرب - العدد ٤٧ فى ٢٠٤ صفحة .

٢ — تحقيق الجزء الحادى والعشرين من الأغانى بالاشتراك مع أستاذين آخرين

٣ — الجاه المستعار .

٤ — دراسة عن أحمد الكاشف ظهرت فى كتاب عن « خمسة من شعراء الوطنية » بقلم غنيم ولفيف من الأدباء من أعضاء لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، وقد نشرت هذا الكتاب(١) ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب فى ٣٣٦ صفحة(١) ، وصدر فى أوائل عام ١٩٧٤ ، وتتسم دراسة غنيم للكاشف بالأصالة والدقة والعمق والشمول .

---

(١) يحتوى هذا الكتاب على دراسات أدبية عن خمسة من شعراء الوطنية فى مصر بأقلام خمسة من الأدباء المشهورين ، وهؤلاء الشعراء هم :

١ — الشاعر أحمد محرم (١٢٩٤ - ١٣٦٤ هـ : ١٨٧٧ - ١٩٤٥م) وقد كتب عنه الدكتور بدوى طبانة دراسة فى خمس وستين صفحة (١٠ - ٧٥)=

٥ — أغانى الريف لم يطبع بعد . وقد اشترت وزارة التربية والتعليم حق نشره فى حياة الشاعر ، ولازال لدى الوزارة .

٦ — كتاب حديقة التلاميذ - وهو مطبوع ولم أطلع عليه .

٧ — رواية المصاهرة - وترجع بعض فصولها إلى قصة مصرية قبل الميلاد بنحو خمسة قرون وقد نشرت فى « الرسالة » - وهى رواية شعرية صغيرة فى صفحات قلائل كتبت بمناسبة المصاهرة بين مصر وإيران قبل الثورة .

نثر غنيم :

ونثر الشاعر الأدبى مشرق - كشعره - بالبلاغة والجمال ، يؤدى فيه المعنى بوضوح من أقصر سبيل ؛ لا يحب التكلف ولا الافتعال ولا الصنعة .

= ٢ - الشاعر أحمد نسيم (١٢٩٥ - ١٣٥٦هـ : ١٨٧٨ - ١٩٤٨م) وكتب عنه الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن دراسة فى سبعين صفحة (٧٧-١٤٧)

٣ — الشاعر أحمد الكاشف (١٢٩٥ - ١٣٥٧ هـ : ١٨٧٨ - ١٩٤٨) وكتب عنه الشاعر الأستاذ محمود غنيم دراسة فى ستين صفحة (ص ١٤٩ - ٢٠٩) .

٤ — الشاعر عبد الحليم حلمى المصرى (١٣٠٤ - ١٣٤١ هـ : ١٨٨٧ - ١٩٢٢ م) ، وكتب عنه الشاعر محمد مصطفى الماحى دراسة فى إحدى وستين صفحة (ص ٢١١ - ٢٧٢) .

٥ — الشاعر على الغاياتى (١٨٨٥ - ١٩٥٦ م) وكتب عنه الشاعران : الأستاذ محمد طاهر الجبلاوى والدكتور مختار الوكيل دراسة فى سبع وخمسين صفحة (٢٧٣ - ٣٢٠) وقدم للكتاب الشاعر المرحوم عبد الرحمن صدقى .

وبين يدى إحدى مقالاته ، وهى منشورة فى مجلة قافلة الزيت - عدد شعبان ١٣٩٣ هـ - أغسطس ١٩٧٣ ص ٣٠ و ٣١ بعدوفاته- وعنوانها : الشعر العربى وافتنان الشعراء فى أساليبه » . يقول الشاعر فيها : « لعل مما يلفت أنظارنا إلى سعة الأفق فى لغة الشعر العربى بناء القصيدة - التى قد يناهز عدد أبياتها المائة على حرف روى واحد ، وعلى حين تتعدد القافية فى سائر اللغات بتعدد الأبيات ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل نرى منهم من لا يقنع بذلك ، فيبنى القصيدة على حرفين ، كما نرى فى لزوميات أبى العلاء . . . » .

وفى آخر المقالة يقول : « وإنما سقت هذا الحديث لغرض واحد ، هو أن أبين لهؤلاء الذين يضيقون ذرعا بقوافى الشعر وأوزانه أن الشعر مجنى عليه ، فمن ضاق ذرعا بقيود الشعر فليلتمس العيب فى موهبته هو ، وفى مقدرته الفنية . . » .

ومقدمات دواوينه ومسرحياته حافلة بمثل هذا الأسلوب المطبوع البليغ الذى يعبر به الشاعر عن معناه بأسهل وأيسر الطرق وأوضحها .

وكم أتمنى أن تجمع مقالات الشاعر ومحاضراته وأحاديثه فى كتاب ليتسنى دراستها ، والحكم عليها ، والإفادة منها . .

أشهر مقالات الشاعر :

١ - بين الدين والأدب

نشرت فى مجلة الوعى الإسلامى السنة الخامسة العدد ٥٥ رجب ١٣٨٩ هـ سبتمبر ١٩٦٩ .

٢ - الشعر العربى وافتنان الشعراء فى أساليبه نشرت فى مجلة قافلة الزيت - شعبان ١٣٩٣ هـ - أغسطس ١٩٧٣ .

٣ — من رياض الأدب :

نشرت فى مجلة الوعى الإسلامى السنة الخامسة العدد ٥٧ - رمضان ١٣٨٩ هـ - نوفمبر ١٩٦٩ .

٤ — نصيحة من شاعر شيخ إلى شعراء الشباب :

نشرت فى مجلة الهلال العدد الخاص بالشباب ص ٤٤ .

٥ — ذكريات عن أحمد حسن الزيات :

الوعى الإسلامى العدد ٥٠ - صفر ١٣٨٩ هـ - إبريل ١٩٦٩ .

٦ — وله مقال منشور فى العدد التاسع عشر من مجلة المجمع اللغوى بالقاهرة .

٧ — ومقال منشور فى العدد ٢٨ من المجلة نفسها .

٨ — الشعر المنحل لا الشعر الحر :

مقال فى مجلة الهلال عدد يونيو ١٩٧٢ - يدافع فيها عن الشعر العمودى ويهاجم الشعر الحر .

٩ — مقالات فى كلمات - وقد نشرت فى مجلة الرسالة العدد ٢٧٩ ص ١٨١٠ وما بعدها .

١٠ — محمد الزوج - وقد نشرت فى مجلة الرسالة العدد ٢٤٦ من السنة السادسة صفحة ٤٦٥ وما يليها .

١١ — ديمقراطية الموت - وقد نشرت فى مجلة الرسالة بالعدد ١٤٩ من السنة الرابعة - صفحة ٧٨٢ وما بعدها .

١٢ — أتاتورك - وقد نشرت فى الرسالة بالسنة السادسة - العدد ٢٨١ - صفحة ١٨٨٣ - وهى فى رثاء أتاتورك .

١٣ - حمامتان تتناجيان ، وهى منشورة فى الرسالة بالسنة الخامسة - العدد ١٩٦ صفحة ٥٨٧ - وهى فى تصوير حدث الهجرة العظيم ، وقد اختيرت نصاً فى جميع كتب المطالعة المدارس الثانوية فى مصر والعالم العربى.

أشهر الدراسات عن الشاعر :

١ — مقدمات ديوانى : صرخة فى واد ، وفى ظلال الثورة .

٢ — من تاريخنا المعاصر ص ١٧٥ - ٢٢٠ تأليف الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى - ففيه فصل واسع عن الشاعر وشاعريته وشعره .

٣ — دراسة لديوان « صرخة فى واد » للكاتب الكبير عباس العقاد - مجلة مجمع اللغة العربية - الجزء السابع .

٤ — كتاب دموع على الشاعر محمود غنيم ، وهو الكتاب الذى جمع فيه كل ماقيل فى تأبينه ، وقام بجمعه الأستاذ محمد أحمد سلامة المدرس الأول بوزارة التربية .

٥ — مقال للشاعر محمد عبد الغنى حسن بعنوان : الفكاهة فى شعر محمود غنيم .

٦ — مقال توفيق ضعون عن الشاعر ، وهو منشور فى ديوان « صرخة فى واد » - عن مجلة العصبة الأندلسية عام ١٩٤٠ ، ومجلة الرسالة أيضا - وعنوانه : « خليفة حافظ » .

٧ — مقال للشاعر أحمد عبد المجيد الغزالى بعنوان : شعراء موظفون - مجلة الموظفين عدد سبتمبر ١٩٥٦ .

٨ — مقال للشاعر عبد المنعم عواد بعنوان : من شعرائنا الثائرين - مجلة العالم العربى - العددان ١٩٣ و ١٩٤ - مايو ويونيو ١٩٦١ .

شاعرية الشاعر وخصائصها

ملهمات الشعر عند الشاعر :

كانت هناك ملهمات للشعر فى نفس الشاعر ، تعمل عملها فى إلهامه روائع القصيدة وهذه الملهمات كثيرة منها :

- الريف بجماله وجلاله وهدوئه وصفائه .
- ندوات الأدب الشعبى فى الريف .
- أشعار عنترة الحماسية التى كان يقرؤها ويسمعها .
- قراءاته لشعر الإمام على ، وكله فى الحكمة .
- ثقافته العربية الواسعة التى تلقاها فى : الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ، ودار العلوم .
- الصحف والمجلات الأدبية التى شارك وأسهم فيها كالأهرام والسياسة الأسبوعية والرسالة وغيرها .
- ندوات الأدب فى القاهرة .
- المنافسات الأدبية بينه وبين الأدباء والشعراء .
- عمله وبيئته وهما متصلان بالأدب والشعر اتصالا وثيقا .

كل ذلك مما ألهمه الشعر ، وجعله ينبغ فيه ، وأضيف إلى ذلك حبه ، والحب يفجر الشاعرية ، وفى ديوان « صرخة » قصيدة نظمها فى صورة حبيبة له ، وفيه صورة لعذارى الريف وهن يحملن الجرار فى دلال وجمال ص ١٤٢ صرخة فى واد ـ ويعلن فيها حبه لهذا الجمال الفطرى الساحر .

الشعر فى رأى الشاعر :

١ — وكان غنيم يمجد الشعر ، ويرى أنه هو الحياة ، يقول من قصيدته فى البحترى(١) :

أنت ياشعر ساوئى إن قسا الدهـ ـر ، وكادت بى الشدائد تودى
أيها الشعر ماعهدناك إلا ساحرا تبعث اللظى فى الجليد

ويقول من قصيدته « حى البيان » التى ألقاها فى حفل تكريمه فى رابطة الأدب الحديث بمناسبة ظهور ديوانه « فى ظلال الثورة »(٢) :

ليت الحياة جميعها شعر ، إذن لم يشك هذا الكون طول عذابه
إن رمت للشعب الحياة فغذه بالفن قبل طعامه وشرابه

٢ — وكان الشاعر يعتز بشعره ، ويرفعه إلى منزلة عالية . يقول حينا :

شعراء مصر رعيـــة وأنا لدولتهم أمـــير
أقسمت مابلـــغ الفرز دق مابلغت ولا جرير(٣)

ويقول لصديقه الشاعر العوضى الوكيل فى مقام الفكاهة :

إنى جعلتك فى (بلاطى) شاعرا
كم فى (بلاطى) شاعر وندامى(٤)

---

(١) ٢٩١ فى ظلال الثورة .
(٢) الديوان المخطوط .
(٣) ٢٧٩ صرخة فى واد .
(٤) من قصيدته (فيم احتفالكم ؟) وهى إحدى قصائد الديوان المخطوط .

٣ - وكان الشاعر غنيم متأثرا بالبحترى ، معجبا بشعره ، يقول فيه :

روضة البحـــترى منبت ريشى
وبها قد نشأت واشتد عودى(١)

وكان معجبا بالمتنبي وشوقى يحفظ شعرهما ، ويردده ، معلنا أنهما (الأحمدين : أحمد شوقى - وأحمد المتنبي) هما عمود الشعر، ومنارة الشاطىء وما بعدهما لمعات وإشعاعات لاتصل إلى قوة المنارة(٢) .

ولقبه الكثيرون : خليفة حافظ ، وشهر بهذا اللقب ، وصار ملازما له طيلة حياته(٣) .

الشعراء ينوهون بشعر الشاعر :

كان الشعراء يرفعون من منزلة غنيم وشعره ويجهرون بذلك .

فهذا الوزير الأباظى إبراهيم دسوقى أباظة يقول له :

ملكت بحق عنان القريض وأعجزت صفوة أهل البيان
لك الله من شاعر مبدع إذا قال أصغى إليه الزمان
تعال نفاخر بك الناظمين ونزه بأشعارك المشرقان(٤)

---

(١) ٢٩١ فى ظلال الثورة .

(٢) من تاريخنا المعاصر صـ ١٧٥ وما بعدها .

(٣) مقال (خليفة حافظ لضعون (١٦-٢٨ صرخة فى واد) - وراجع مقدمات ديوانه (صرخة . . .) ، ومقالا لأحمد عبد المجيد الغزالى فى مجلة الموظفين عدد سبتمبر ١٩٥٦ بعنوان (شعراء موظفين) ٢٩٨ فى ظلال الثورة - وراجع كتاب (من تاريخنا المعاصر) لخفاجي .

(٤) ٢٦٧ فى ظلال الثورة .

وهذا العقاد يقول :

الشعر من وحى الغنيم غنيمة(١)

وهذا الصيرفى يقول فيه(٢) :

كان ملء الأسماع من نصف قرن

حينما كان للقصائد جاه

ملء كفيه ثروة من ثرى القو ل تغنى عن جاهه وغناه

ويقول الشاعر محمد عبد الغنى حسن فى شعره :

غنت بأشعاره الدنيا بأجمعها وعطر السهل بالألحان والبيدا(٣)

خصائص شعر غنيم :

١ — عاش غنيم محافظا على عمود الشعر العربى، معتزا فى شعره بالأصالة الشعرية، يرى الشعر شعورا وطبعا فهو الذى يقول(٤) :

ليس شعرا مالم يكن عن شعور وله من قرارة النفس واحى
ليس شعرا ما احتاج قراؤه فى فهم أهدانه إلى شراح
ليس شعرا ماجاء عن غير طبع بعد طول اللجاج والإلحاح
إن من ينشىء القريض بلا طب ع يغوص الوغى بغير سلاح
كل شعر أتى بغير عمود عد فى الشعر من قبيل المزاح

---

(١) الديوان المخطوط ، وص ١٠ دموع على الشاعر .
(٢) ٢٩ دموع على الشاعر .
(٣) ١١٤ » » » .
(٤) من ديوانه المخطوط .

ويقول من قصيدته « حديث خرافة » :

وما الشعر سـوى وحى على ألسنـة يجرى

٢ — وشعر غنيم يتميز بالبلاغة وفصاحة الأسلوب ونقاء العبارة ، وجمال الصور ؛ وتقل فيه الصنعة ، ويكثر فيه الاحتفال بالمعنى والخيال والتوليد فيهما .

٣ — ويبلغ غنيم الغاية فى : نقد المجتمع . والثورة على فاسد الأوضاع وفى وصف آلامه وآماله ؛ وفى الجانب الإسلامى والعربى والوطنى ، وفى الرثاء ، وفى فن السخرية الذى يكاد يبلغ فيه مبلغ ابن الرومى شاعر السخرية والألم فى العصر العباسى الأول .

٤ — ومن خصائص شعر غنيم مصرية الروح والتعبير والصور ، مما نلمسه فى كل شعره ، وفى الفكاهة والدعابة على الخصوص . . يقول فى آخر حياته :

إلى من أشتكى يارب ضيمى أرى نفسى غريبا بين قومى
لقد هتفوا لمحمود شكوكو وما هتفوا لمحمود غنيم

ولا يحتاج هذا البيان إلى توضيح فكل شعره تلمس فيه روح الشاعر المعبرة عن إيمان عميق بمصر ، وعن (مصرية) عميقة الجذور فى نفسه . . حتى ليقف على شاطىء البحر الأبيض ، فيقول : إن غدير قريتى فى الريف والفتيات يملأن الجرار منه أجمل منظرا من البحر وذلك فى قصيدته على ضفاف الغدير - ديوان صرخة فى واد - ص ١٥٢) .

٥ — وقد كان من الشعراء الذين نقدوا الشعر الحر ، ورأوه إهدارا لطبيعة الروح الشعرى ، وللأصالة الشعرية ، وله فى ذلك قصائد كثيرة : كقصيدته (حرروا النثر أيضا) ، وهى إحدى قصائد ديوانه المخطوط . وفي قصيدته عن البحترى يقول :

زعموه حرا ورق الجوارى بعض أوصافه وذل العبيد
عصبة تحسب القوافى غلا وتعد الأوزان بعض القيود
لهم الله كل عى لديهم مظهر من مظاهر التجديد
إن يكن طابع الأصالة فى الشعـ ـر جمودا ، فرحبا بالجمود(١)

وكذلك قصيدته « حديث خرافة » ، وهى إحدى قصائد الديوان المخطوط . . ويقول فى بعض قصائد هذا الديوان :

من نظم الشعر بلا مستفعل فإنمـــا أصابه فى المقتل

٦ — والشاعر يحافظ فى قصائده على الوحدة الموضوعية والعضوية ، فقصائده بناء فنى متكامل ، وكل قصيدة تلتزم وحدة الموضوع ووحدة الفن جميعا .

وتجارب الشاعر فى قصائده ، وبخاصة التى يتحدث فيها عن نفسه أو عن الإسلام أو عن الوطن ، تجارب عميقة حتى انرى موضوع القصيدة ينبع من أعماق نفسه ، ويعبر عن انفعاله الذاتى المباشر بالموضوع ، أو بالحدث الذى يهيج شاعريته . . وذلك موضوع دراسة خاصة .

٧ — وموسيقى الشاعر الخارجية والداخلية فى قصائده ، هى إحدى خصائص شعره ؛ وكان لهذه الموسيقى تأثير كبير على قراء شعره وسامعيه . وغنيم من أجمل الشعراء حلاوة موسيقى وجمال نغم وحسن غنائية .

٨ — وتتعدد صور الخيال فى شعر غنيم ، فيأتى الخيال فى مجمل قصائده مقبولا جميلا ، معبرا عن المعنى والتجربة الشعرية أحسن تعبير .. انظر مثلا إلى قوله فى الفلاح :

---

(١) ٢٩٠ فى ظلال الثورة .

شاهدت لؤلؤه كالبرق تألق   على جبين أمـــير سار مختالا
فقلت : ما أنت ؟ قالت : إنى عرق
من جبهة الزارع المسكين قد سالا
الناس تنعم والفلاح محترق   وليس يحـــرز جاها ولا مالا
امتصه الناس حتى ما به رمق   كأنما صب للإيثار تمثالا(١)

ونلاحظ هنا أن الشاعر صنع قافية للأسطر الأولى فى أبياته ، وذلك شىء غير ملتزم ، ولكن فن الشاعر أبى عليه إلا أن يلتزم بقيود فنية كثيرة . . .

٨ — ومن خصائص شعر غنيم كذلك هذا الشعر المسرحى التمثيلى الذى كتبه فى رواياته ومسرحياته العديدة ، والذى يحتاج إلى دراسة خاصة ، والذى كتب فيه الشاعر حواره بلغة عالية جميلة بسيطة مؤثرة .

٩ — وعلى الجملة فإن شعر غنيم معروف بالطلاقة الفنية ، وبالصدق فى التصوير والتعبير ، وهو ذو خيال خصب وموهبة عميقة ، وأداء جميل ، وتوفيق كامل فى رسم الصور والألوان والمشاعر .

وفى قصيدته « أنا وابناى »(٢) ، أو « الريف »(٣)، نجد غنيما يبلغ منزلة الإجادة فى رسم صورته وأدائها فى براعة ، وخفة روح ، ومصرية تعبير ، وعذوبة أسلوب . وكذلك فى قصيدته « كأس تفيض » . .

وهو طاقة قوية ومنزلة عالية للكلاسيكية الجديدة بعموديتها وتجديدها

---

(١) ٢٩٣ صرخة فى واد .
(٢) ١١٨ صرخة فى واد .
(٣) ١١٤ المرجع .

وبملامحها التعبيرية الواضحة . وشعره يأخذ من القديم والجديد ، ومن البحترى والمتنبى وشوقى ، وغيرهم من أعلام الشعر العربى .

الأغراض الشعرية الكبرى فى شعر غنيم :

نظم غنيم الشعر فى موضوعات كثيرة :

ـ قاله فى الإسلام وحضارته ومجده(١).

ـ وفى العروبة وانتصاراتها .

ـ وفى الجوانب والأحداث الوطنية .

ـ وفى الموضوعات الاجتماعية المختلفة ومن بينها المدح والرثاء .

ـ وفى الهجاء والتهكم والسخرية .

ـ وفى الإخوانيات .

وفى الطبيعة والوصف وتصوير حياة الريف

وفى الحب والمرأة .

وفى آلام نفسه وآمالها ، وأحزانها وأفراحها ، أوسمه إن شئت شعر الترجمة الذاتية للشاعر .

ـ وفى الثورة على حاضر أمته قبل عام ١٩٥٢ .

ـ وفى شتى الأغراض التى توحى للشاعر الشعر ، ونظم غنيم فى باب واسع قل من نظم فيه إلا الشعراء الكبار ، وهو الشعر المسرحى ؛ وتابع فيه خطوات شوقى وعزيز أباظة وأبا شادى وما أحوجه شعره المسرحى إلى دراسة خاصة .

---

(٣) ٢٤٤ المرجع .

وأجل أغراضه الشعرية هو شعر الثورة والشعر الإسلامى والوطنى وشعره الذاتى .

التيار الإسلامى فى شعر غنيم :

كان غنيم عامر القلب بالإيمان بحضارة بلاده وتراثها وعقيدتها السماوية الخالدة .

أعلن ثورته على الحضارة الغربية فى قصيدته « ثورة على الحضارة »(١) التى يقول فيها :

ذرعتم الجو أشباراً وأميالا   وجبتم البحر أعماقا وأطوالا
فهل نقصتم هموم العين خردلة   أو زدتم فى نعيم العين مثقالا

ثم يقول:

رسالة الغرب لا كانت رسالته   كم سامنا باسمها خسفا وإذلالا
وصورته لعين الشرق أمثلة   عليا ، وصورنا الرحمن أشالا
تغزو الحضارة أقواما لتسعدهم   والزنج أسعد من أربابها حالا

وكتب يمجد حضارة الإسلام ، ويأسى لغزو الحضارة الغربيـــة لها ، ولاحتلال حضارة الغرب مكانة حضارتنا الخالدة ، وذلك فى قصيدته المشهورة « وقفة على طلل »(٢) التى يقول فيها :

مالى وللنجم يرعانى وأرعاه   أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
لا تحسبنى محبا يشتكى وصبا   أهون بما فى سبيل الحب ألقاه
إنى تذكرت والذكرى مؤرقة   مجداً تليدا بأيدينا أضعناه
أنى اتجهت إلى الإسلام فى بلد   تجده كالطير مقصوصا جناحاه

---

(١) ص ٧٢ صرخة فى واد .
(٢) ٧٨ صرخة فى واد .

ثم يقول منها :

إنى لأعتبر الإسلام جامعة للشرق لا محض دين سنه الله

وفى قصيدته « قومى بين الشرق والغرب »(١) يثور على تقليد المسلمين للحضارة الغربية ، ويقول فيها :

دين ابن عبد الله دين باسمه قبض الرشيد ، على الورى بزمام
هو دولة كبرى وملك شامخ لا محض تكبير ومحض صيام

وقصائده فى ميلاد الرسول(٢). وفى هجرته(٣). وفى الاسراء(٤) هى قصائد مشهورة :

وله قصيدة فى محاربة التبشير عنوانها « تجار العقائد »(٥) وقصائده : فى خالد بن الوليد(٦)، وأسطول معاوية(٧) وفى أرض النبوة(٨). وفى الأعياد الإسلامية(٩)، وقصيدته «أذان الفجر»(١٠). وقصيدته الأخرى «نشيد الأنصار فى استقبال الرسول»(١١) . كلها قصائد مشهورة .

وعندما يصف الشاعر الطبيعة يمجد صانعها الأعظم كما يقول فى قصيدته « تمثال فينوس »(١٢).

---

(١) ٩٧ المرجع .
(٢) ٨٧ المرجع ، ٩١ و ٩٥ فى ظلال الثورة .
(٣) ١٠٥ المرجع ، قصيدة الركب المقدس ، بالديوان المخطوط .
(٤) ٩٩ فى ظلال الثورة (٥) ٩٣ صرخة فى واد .
(٦) ١٠٣ فى ظلال الثورة (٧) ١١٤ المرجع .
(٨) عنوانها : مهبط الوحى ١٠٧ فى ظلال الثورة ـ وقصيدة أرض النبوة أيضاً ، وقصيدة حمام الحرم ، وهما إحدى قصائد الديوان المخطوط .
(٩) ١٠٨ فى ظلال الثورة وعنوان القصيدة : ظلمة العيد ،
(١٠) ١١٢ المرجع السابق (١١) ١١٠ المرجع السابق .
(١٢) ٢٨٣ المرجع السابق .

إنى أرى الرحمن فى نبت الحقول رأوره
الله فى الوجه الجميـــل وفى ابتسامة ثغره

لقد كانت الروح الإسلامية عميقة فى نفس الشاعر ووجدانه ومشاعره، وصدر عنها أجل الآيات المعبرة عن روح مؤمن حقيقى ، وفى اعتزازه بالدين وتمجيده له يقول(١) :

ولم أر كالدين سيفا لمن أراد النضال ولا مغفرا
وما خاب شعب بهدى السماء قوى الصلات وثيق العرا
أوائلكم أيهـــا المسلمون بشرعة أحمد ساسوا الورى
وباسم الحنيفة ساروا فـكان سواهم سفوحا وكانوا الذرى
رأى منهم الناس مالم يرو ه من عدل كسرى ولا قيصرا

التيار الوطنى والعربى فى شعر غنيم :

قصائد غنيم فى تمجيد الوطن والعروبة، وفى الدعوة إلى النضال من أجل التحرير ، وإلى تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيونى الغادر . . مشهورة ، ولم تـكن تمر مناسبة وطنية أو قومية إلا تغنى بها الشاعر وكتب شعره فى تخليدها ،ودوا وينه الثلاثة حافلة بالقصائد الجميلة المعبرة حقا عن روح وطنى ثائر عميق الإيمان بالوطن وحريته ومجده ، وبأبطاله وقادته وزعمائه الأحرار الذين رثاهم الشاعر فى قصائد بليغة .

وديوانه ، فى ظلال الثورة ، صور نابضة بالحياة لـكل مكاسب الشعب والثورة منذ عام ١٩٥٢

فإلغاء الملكية ، وإعلان الجمهورية ، وتأميم القناة ، وهزيمة العدوان

---

(١) ١٠٦ المرجع نفسه .

الثلاثى وإعلان الوحدة بين مصر وسوريا ، والسد العالى . . كلها مصورة فى هذا الديوان فى قصائد وطنية جليلة . . وفى الديوان المخطوط قصائد عن : معجزة السد ، دنشواى ، أعياد النصر ، عيد الثورة ، وغير ذلك ، وفيه قصيدتان عن فلسطين ، وقصائد عن : بغداد ـ الكويت ـ الجزائر ـ أغادير ـ غزة ـ لبنان طرابلس الغرب .

وهى كلها تمجيد للوطن وانتصاراته ، وللعروبة ومجدها ، وللشعوب العربية ونضالها الدائب من أجل الحاضر والمستقبل .

وفى جلاء انجلترا عن مصر(١) يقول الشاعر :

منى أرقت مصر سبعين عاما ... ومن رام درك المنى لم ينم
مضى الاحتلال وما الاحتلال ... سوى وصمة العار بين الأمم
بقية إرث قرون خلت ... على الظلم قد طبعت والظلم
حملناه جراحا بكل فؤاد ... وهما على كل صدر جثم
وما كان فى العين إلا القذى ... وما كان فى الجسم إلا السقم
لقد مكن الله للظالمين ... حينا من الزمان ثم انتقم
ألا إن للمستبدين يوما ... يعضون فيه بنان الندم
هو الجيش طهر البلاد ... وجمع شمل الحمى فانتظم

وفى الوحدة بين مصر وسوريا التى عقدت فى فبراير ١٩٥٨ يقول الشاعر :

عرسان فى بيت المعز(٢) وجلقا(٣) ... هزا بلحنهما الشجى المشرقا

(١) ص ٢٤ من ديوان فى ظلال الثورة .
(٢) كناية عن القاهرة ، وتتكرر هذه الكناية فى شعره كثيراً .
(٣) هى دمشق .

تدرى الحضارة أن منبعها هنا   وهناك فاض معينها وترقرقا
الشرق من هـذا المعين قـد ارتوى
والغرب من تلك الحياض فـد استقى
قـل للعروبة : ياعروبة كبرى   مجد المعز(١) بمجد مروان التقى
أخوان بينهما المشاعر ألفت   ما كان للأخرين أن يتفرقا
الضاد أمهما و « يعرب » والد   أرأيت أنجب منهما أو أعرقا(٢)

وفى النشيد الوطنى الذى كتبه غنيم(٣) يقول :

أنا العربى الأبى   بربى وشعبى أدين
شعارى سـلام يرف   ظـلالا عـلى العالمين
وجوى حمى لايباح   وأرضى حصن حصين
بلادى إذا ما انتسبت   إليها رفعت الجبين
حاضر مستبشر يبسم لى   مشرق الوجه بنور الأمل
وبعزمى أبتنى مستقبلى   لست من يعرب إن لم أعمل
هى جمـهورية   تمـلأ الدنيا سناً
هتف الكون بهـا   ولهـا الدهرا انحنى
هـا هنا المجـد حبا   وتربى هـا هنـا
لمن السبق لمن   فضـله إلا أنا
بين ماضينا وبين الشهب   نسب أكرم به نسب
ما سنا العلم ونور الأدب   ماهما لولا سماء العرب

---

(١) المعز الفاطمى أول الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر ، وقد فتحها قائده جوهر عام ٣٥٨ هـ
(٢) ص ٢٠ من ديوان فى ظلال الثورة للشاعر محمود غنيم .
(٣) ١٥ فى ظلال الثورة .

وهذا النشيد صادر عن إيمان الشاعر العميق بمصر ومجدها وحضارتها، وليس فى حاجة إلى أى وصف أو بيان ، ويلاحظ أنه من بحور متعددة ، فهو من « مجمع البحور » .

وفى أعياد النصر (ذكرى العدوان الثلاثى) يقول الشاعر من ديوانه المخطوط :

وقفت أبارك أعيادها … وأتلو على الكون أمجادها
وأمجاد مصر تهز الوجود … ويستعذب الدهر إنشادها
سـل الأرض من بث فيها الحياة
وصـاح فأيقظ رقادهـا
ألا قـل لمن طاف حول الفضاء
ورام الكواكب فارتادها
سل النجم يخبرك أنا قديما … بلغنا الشموس وآرادها
بعثت نشيدى فى عيد مصر … يشارك فى العزف أعوادها
وللنصر أنشودة لاتمل … ولايسأم السمع تردادها
ومصر بلاد العروبة تحمى … حماها ، وترعى لها ضادها
لقد سئم العرب طول الجمام … وقد ملت البيض أغمادها

وهى قصيدة حافلة بالجمال والموسيقى وروح الوطنية الجياشة وبالبيت غنيها كان حيا فى معارك النضال والتحرير الوطنى فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ — السادس من أكتوبر ١٩٧٣ إذن لنظم أجمل الشعر فى تمجيد انتصارات الأبطال المصريين صانعى انتفاضتنا الخالدة ، التى بهرت الدنيا وهزت العالم ، وعدت معجزة من معجزات العبقرية العسكرية .

ومن قصائده الوطنية قصيدته « تأميم القناة(١) » فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦

---

(١) ص ١٦ من ديوان فى ظلال الثورة .

أممت مصر قناة السويس بعد أن ظلت إدارتها فى أيدى الاستعماريين ، ومجالس إدارتها تعقد فى أكثر الأحيان فى باريس ، وإيراداتها تذهب إلى المساهمين الأوربيين ، ويحرم منها أصحاب الحق الشرعى فيها من الملاحين الذين حفروها فى بلادهم بدمائهم وعرقهم وكدهم ، وكانت القناة سببا فى استعمار مصر ، باحتلال الانجليز لها عام ١٨٨٢ .

وكان تأميم القناة حدثا ضخما فى تاريخ وطننا وبلادنا ، اهتز له العالم ، وذهب صداه مدويا فى الشرق والغرب ، وفى هذه المناسبة نظم الشاعر قصيدته .

وحول هذه المعانى كلها دارت فكرة الشاعر فى القصيدة ، فجيش مصر الرابض على شطآن القناة هو الذى أعادها للحمى ، قطعة من أرض الوطن نزعها الاستعمار الأوربى ، بل إنها قلب الوادى وإن تولى أمورها غير أبنائه ، ولقد كان أثرها ضخما فى تاريخ مصر فهى التى ساقت الموت والاستعمار إلى بلادنا ، وإن بعثت الرخاء والحياة فى غيرها من البلدان فى الشرق والغرب .

ومن حفر القناة ؟ من أقام ذلك الطريق الحيوى للمواصلات بين الشرق والغرب ؟ القناة تجيب على السائلين ، هى نفسها ترد عليهم ، إنها تعرف ذلك ، تعرف من حفرها ، كما يعرف الطفل أباه . ومن حفرها غير الملاح المصرى بساعده وفأسه ، بدمائه وعرقه ، ويعبر الشاعر عن فرحة الشعب حين سمع قرار التأميم يتلوه الرئيس ، هذه الفرحة التى تجلت فى شتى مظاهرها ، ابتسامات فى الشفاه ، وأغنيات فى الأفواه ، وهزة فى كل عطف ، لقد كان يوم التأميم عيد الوادى الأكبر ، الذى يتبادل الناس فيه التحيات والتهنئات ، وكان سبب مجد للوطن وجاه له أى جاه ، لقد أعلن على العالم أن مصر حرة فى أرضها ، وأن شعبها حر الإرادة يبرم مايراه ، وأعلن للغرب أن فى مصر ليوثا قامت تحمى حماه . لا تبالى بشىء فى سبيل حماية حقوق الوطن ، حتى لو عدا عليه الدهر لردت عدوانه .

وقد عبر الشاعر عن مشاعره ومشاعر كل مصرى حيال التأميم تعبيرا قويا صادقا مؤثرا ، وهذا من سمات هذه القصيدة الملهمة الرائعة .

وإذا كان الشاعر محمود غنيم من زعماء مدرسة الكلاسيكية الجديدة فى الوطن العربى ، وكان ديوانا « صرخة فى واد » و « فى ظلال الثورة » هما مظهر فنه الشعرى الذى وهبه مجداً أدبياً فى العالم العربى وبين النقاد لا يعادله مجد . فوق العديد من المسرحيات الشعرية التى نظمها فى شتى المناسبات الوطنية ، وقد أثار ديوانه « فى ظلال الثورة » ضجة كبيرة بين النقاد[1] وعده كثير منهم ظاهرة كبيرة فى الشعر المعاصر ، وأصدق ديوان شعرى ظهر فى السنوات الأخيرة فى مصر ، تمثيلا للحياة السياسية والوطنية والاجتماعية فيها . وكان غنيم يعد شاعر مصر القومى وهو خليفة حافظ فى الجانب الوطنى والاجتماعى ، ومن ثم أطلق عليه كثير من النقاد لقب « خليفة حافظ » ، وشعره يدل على أصالة الطبع وقوة الملكة ، وتمكن الموهبة ، ويدل على ذوق رفيع ، وشاعرية خصبة .

وفى القصيدة نلمس خصائص الشاعر الأصلية فى التعبير الشعرى من وحدة القصيدة ، وقوة التجربة وعمقها ، ومن موسيقاها الساحرة ، ورنينها الجميل المعبر . ومن أسلوبها المتمكن ، وطبعها القوى ، وخيالها الصادق ، ومن محافظة على بناء القصيدة الفنى ، ونهج منهج البحترى فى حلاوة الأداء وجمال التعبير وصدق الشعور ، وفى غير ذلك من أصول وسمات شاعرية الشاعر وخصائصها .

---

(١) أقامت رابطة الأدب الحديث ندوة لمناقشة الديوان فى فبراير عام ١٩٦٢ تحدث فيها لفيف من النقاد فى مصر عن الديوان وشاعرية غنيم .

قال الشاعر فى هذه القصيدة(١) :

ربض الجيش على خط القناة   وعلى شطآنها ألقى عصاه
أيها الجيش أعـــدها للحمى   فلذة قد نزعوها من حشاه
هى قلب النيل إلا أنهم   وضعوها بين أضلاع سواه
ساقت المـــوت إلى مصر وإن
بعثت فى الشرق والغرب الحياة
هـــذه الحفرة من عمقها   ذلك الجسر المعـــلى من بناه
سائلوها ينبئكم ســـاحلها   من أبوه ؟ يعرف الطفل أباه
رب فلاح شكت من كفه
فأسه الخرساء إذ خارت قواه
لم يزل يحفرها حتى جرى   ماؤها وهو مشوب بدماه
حينما قال جمـــال « أممت »   رقص الوادى وغنت شفتاه
وسرت فى كل عطف هزة   وتمشت بسمة فوق الشفاه
وأظل النيل عيـــد شامل   فيه حيا كل مصرى أخاه
ما بنى التأميم ســـدا عاليا   بل بنى للنيل جاها أى جاه
أيها الشرق أذعـــه نبأ   يقرع الآذان فى الغرب صداه
إن مصرا حرة فى أرضها   شعبها يبرم فيها مايراه
أيها الغرب اتئد إن هنا   ضيغما قام يحمى عن شراه(٢)
لا يبالى حين يحمى حقه   لو عدا الدهر عليه لرماه

(١) صـ ١٦ ديون فى ظلال الثورة للشاعر محمود غنيم .
(٢) اتئد : ترو وتريث . الشرى : غابة الأسود : الضيغم : الأسد .

غنيم وروح الثورة فى شعره :

يمثل ديوان غنيم ، صرخة فى واد ، ثورة شاعر على الملكية وفسادها فى مصر قبل الثورة :

- فهو ثورة بكل معنى الكلمة على كل فساد وكل ظلم .
- ثورة على الاستعمار ودعواه السيادة على الأرض باسم الحضارة الغربية.
- وثورة على الحكم وأجهزته وآلاته .
- وثورة على النظام الاقتصادى وسوء توزيع الثروة .
- وثورة على الحياة الخاملة التى كانت تحياها مصر فى العهد البائد .
- وثورة على حياة الشاعر نفسه ، هذه الحياة الراكدة حياة الخزل التى كانت شبه مفروضة عليه ، وقصيدته ، ثورة على الحضارة(١) ، مشهورة وقصائده : راتبى - العلاوة - الكادر - من الموظف ؟ - العيد والأزمة - كأس تفيض - تمثل كلها قمة الثورة فى نفس الشاعر .

يقول فى قصيدته ، كأس تفيض(٢) ، :

لعمرك ما أدرى على أى منطق أشاهد فى مصر الحظوظ تقسم
فكم رصد الأفلاك فيها أكمه وزلزل أعواد المنابر أبكم

ويقول من قصيدته ، لا تخدعونى بالمنى(٣) ، :

إن شئت أن تحيا بمصر فلا تكن حر الضمير تعش خالى البال

---

(١) ٧٢ صرخة فى واد .
(٢) ٢٤٤ المرجع .
(٣) ٢٥١ المرجع .

واظفر بذى جاه تعش فى ظله　　أو عش بلا جاه ولا أموال

وفى قصيدته «راتبى(١)» يقول :

ولى راتب كالماء تحويه راحتى　　فيفلت من بين الأصابع هاربا

وفى قصيدته «من الموظف ؟(٢)» يقول :

قل للذين يلون أمر الوادى　　من الموظف ؟ من له بالزاد ؟

وفى سوء توزيع الثروة يقول فى قصيدته «العلاوة(٣)» يقول :

مالى أرى أموال مصر كأنها　　بعض الحبوب تكال بالمكيال
حتى إذا طلب الصغير حقوقه　　شكت الخزانة قلة الأموال
فاز السعيد بعمه وبخاله　　وفقدت عمى فى الحياة وخالى

وفى قصيدته الكادر(٤) يقول :

أيها القوم حسبكم إرهاقا　　كم علينا تضيقون الخناقا
هل تريدون أمة يئد الوا　　لد فيها أولاده إملاقا ؟
ويحكم لا منابع النيل فاضت　　لا ، ولاسطح مصر بالناس ضاقا
ضغطوا الكادر الجديد إلى أن　　لبسته أعناقنا أطواقا
قل لمن ينشد الرقى عزاء　　إن دون الرقى سبعا طباقا

وفى زكاة الفطر يقول(٥) :

---

(١) ٢٥٢ المرجع .
(٢) ٢٥٣ المرجع .
(٣) ٢٥٤ صرخة فى واد .
(٤) ٢٥٢ « « « .
(٥) ٢٥٩ « « « .

قال لى اليوم بائسون عفاة   أعطنا ، قلت إن أصبتم فهاتوا
ثقلت وطأة الغلاء فخلت   لكبار الموظفـين الزكاة
لاترومو الزكاة منا احتسابا   نحن لا أنتم الجياع العراة

وقصائد غنيم : فجيعة فى ساعة(١) العبد والأزمة(٢) ، معترك الشباب(٣) ، تراشق القادة(٤) ، مشهورة ، وفى القصيدة الأخيرة يقول يتنبأ بالثورة على فساد العهد البائد :

الفلك تحت رحمة الأقدار

وفى قصيدة معترك الشباب يثور على الحزبية وفسادها ويقول :

إنى أرى حزبيـة   هو جاء طائشة الصواب
سقت البـلاد بكفها   كأسين من سـم وصاب

ويتهكم بصديقه الشاعر ناجى وهو يلبس الردنجوت فى بعض الحفلات ، وكان الردنجوت صورة لنظام الإقطاع فى مصر(٥) .

وينقد أحوال الموظفين فى الدواوين وتعاليهم على الجماهير(٦) ، كما ينقد كما ينقد مايصنع فى الموالد من تهريج(٧) ، وثورته فى شعره على الاستعمار ثورة معروفة(٨) .

---

(١) ٢٦٢ صرخة فى واد
(٢) ٢٦٦ صرخة فى واد
(٣) ٨٣ صرخة فى واد
(٤) ١٣٢ فى ظلال الثورة
(٥) ٢٧٧ صرخة فى واد
(٦) ٢٨٩ المرجع
(٧) ٢٩٠ المرجع
(٨) راجع قصيدته «شرع الاستعمار» ١٣٨ فى ظلال الثورة .

غنيم ابن ريف مصر :

ولد ونشأ وعاش الشاعر طويلا فى الريف المصرى الذى أحبه من أعماق قلبه ، ونظم فيه أجمل قصائده ، وصور الطبيعة الساحر فيه ، وبساطة أهله الشرفاء ، واقرأ قصيدته «الريف»(١) ، المشهورة التى يقول فى مطلعها :

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا ... وعشقت فيك جمالك الموهوبا
قدست فيك من الطبيعة سرها ... أنعم بشمسك مشرقا وغروبا
ولقد ذكرتك فادكرت طفولتى ... وتمائمى ، طوبى لعهدك طوبى
زعموك مرعى للسوام وليتهم ... زعموك مرعى للعقول خصيبا
حييت فيك الثابتين عقائدا ... والطاهرين سرائرا وقلوبا
أكبرت فى القروى حدة عزمه ... وحسدته فى صبره أيوبا
فى الريف فتيان تسيل جباههم ... عرقا فيصبح لؤلؤا مثقوبا

وفى الفلاح يقول(٢) :

شاهدت لؤلؤة كالبرق تأتلق ... على جبين أمير سار مختالا
فقلت: ماأنت؟ قالت: إننى عرق ... من جبهة الزارع المسكين قد سالا

وفى قصيدته الطويلة «راهب الحقل» فى ديوانه المخطوط يقول :

راهب خط فى القرى محرابه ... بين شط الغـــدير والدلابه
عاش للحقل والنبات فكانا ... دينه فى حيـــاته ، وكتابه
رضيت نفسه فعاش سعيدا ... ولقد يسعد الرضا أصحابه
فى سكون القرى ينام ويصحو ... ماله والمـــدائن الصخابة

---

(١) ١١٤ صرخة فى واد .
(٢) ٢٩٣ المرجع .

أنا من ضاق بالحواضر ذرعا وأواها(١) ، لخطمت أعصابه

وقصائده : فى الحراث(٢) ، وفى غدير القرية والفتيات يملأن منه الجرار(٣) ، مشهورة .

وعلى الجملة : فشعر غنيم فى الريف والطبيعة الجميلة الساحرة فيه ، ثرى بالجمال وبكل صور الفن والإبداع ، وينم عن تجربة شعرية عميقة .

جوانب أخرى من شعر غنيم :

وهنا لا أستطيع الإلمام بكل جوانب شعر وشاعرية غنيم ، من شعره فى الأسرة وهو شعر رائع ، وشعره فى السخرية والهجاء والمكاهة والدعابة والاخوانيات وهو من أقوى شعره ، وفى الاجتماع ، والطبيعة ، والمرأة وغير ذلك .

فلأكتف بما قدمت خوف الإطالة ، وقد صدق الشاعر مصطفى بهجت بدوى فى رثاء غنيم حين قال (٤) :

لم يك الشكل وحده من عطايا ك بل النبض ، بل أصيل المسائل
أنت بالشعر ترجمان لواديـ ـك ، رسول محذر متفائل
كم نظمت القصيد «صرخة واد» ودواوين عبقرى مناضل »

ولولا القافية : لقلت : بل أصيل المشاعر .

---

(١) أواها : أى أوى إليها .
(٢) ١٤٥ ديوان صرخة فى واد .
(٣) ١٥٢ المرجع نفسه .
(٤) الجمهورية عدد ١٩٧٢/١١/٢ ودموع على الشاعر محمود غنيم ص ٤٢

وهنا أذكر أن الشاعر غنيما نشر عام ١٩٤١ فى مجلة الثقافة قصيدته «زورق فى الفضاء»(١) . التى قال فيها :

أسرجوا الجو وامتطوه ركابا ... ثم مروا فوق السحاب سحابا

فكانت إرهاصاً بما حدث بعد ذلك بنحو عشر سنوات من غزو الفضاء

وفى عام ١٩٤٦ نشر قصيدته إلى القمر(٢) ، فأثارت الدهشة .

وقصيدتاه : غزو الفضاء ، وعلى سطح القمر نشرتهما الصحف وذاعتا فى كل مكان ، وهما من قصائد الديوان المخطوط .

الكلمة الأخيرة فى هذه الدراسة

هذه صورة مصغرة ؛ ولكنها واضحة كل الوضوح ؛ لغنيم : إنسانا ، وشاعرا ؛ ووطنياً ثائراً ؛ وعربيا مسلما ؛ ولفكره المضيء ؛ ولبساطة حياته وفنه . .

هذا الشاعر الكبير الذى نبغ فى الثلاثينيات ، وعاش حياته العريضة ، حتى توفاه الله إلى أجله منذ نحو العامين والنصف .

ولقد كان غنيم ابن الريف المصرى الصبور الدؤوب وشاعره الذى تغنى بجماله وجلاله معاً . وهو جرى من النقاد والأدباء والدارسين بكل إجلال وتقدير .

وفى هذه الدراسة اعتمدت على شتى المصادر ؛ وأشرت إلى كل أصول شعره وشاعريته ، ورجعت إلى مالم ينشر من شعره حتى اليوم ؛ وهو ديوانه الثالث المخطوط الذى نرجو أن ينشر فى القريب إن شاء الله .

---

(١) ١٢٨ صرخة فى واد .

(٢) ٢٨٢ صرخة في واد .

وفى هذه الدراسة لم أذكر رأياً إلا نوهت بمرجعه ، ولا شعراً للشاعر إلا ذكرت مصدره ، ولا فكرة لى إلا استقصيت أسانيدها .

وقد أبرزت كل الجوانب التى يجب الوقوف عليها ، والحديث عنها ، من شعر الشاعر وشاعريته . . وغيره من شعرائنا المعاصرين الموهوبين الخالدين ، ومن ذوى الملكة الشعرية الأصيلة ، والطاقات الفنية المبدعة ؛ وهو حرى منا بكل اهتمام وعناية وتقدير .

مراجع عن الشاعر

أولا : كتب ودواوين الشاعر :

١ — ديوانا الشاعر المطبوعان : صرخة فى واد ، وفى ظلال الثورة .

٢ — ديوانه المخطوط الذى أسميته : الأغنية الأخيرة .

٣ — مسرحياته الشعرية : النصر لمصر ـ يومان للنعمان ـ غرام يزيد ـ المروءة المقنعة ـ الجاه المستعار .

٤ — ديوانه : أغانى الريف الموجودة لدى وزارة التربية والتعليم .

٥ — كتابه : حديقة التلاميذ .

٦ — دراسة عن حفنى ناصف ـ العدد السابع والأربعون من سلسلة أعلام العرب .

٧ — تحقيقه مع آخرين للجزء الحادى والعشرين من كتاب « الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى » المتوفى عام ٣٥٦ هـ .

٨ — دراسته عن أحمد الكاشف المنشورة فى كتاب « خمسة من شعراء الوطنية » الذى أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى ٣٣٦ صفحة فى أوائل عام ١٩٧٤ م .

ثانيا : دراسات عن الشاعر :

١ — من تاريخنا المعاصر - للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى - طبع القاهرة ١٩٥٤ من صفحة ١١٥ - ٢٢٠ .

٢ — دموع على الشاعر محمود غنيم وقد ظهر فى أواخر عام ١٩٧٣ ويحتوى على ماقيل عنه بعد وفاته من رثاء .

٣ — ما أخذ من أفواه : أسرة الشاعر غنيم وأصدقائه .

٤ — ما كان يقصه على الشاعر غنيم فى حياته من قصص تتصل بأمر وظيفته ، وبآرائه فى الشعر .

ثالثا : مقالات عن الشاعر غنيم ، نشرت فى مختلف الصحف والمجلات وهى كثيرة ، ومنها :

١ — مقالة بعنوان « خليفة حافظ » بقلم « توفيق ضعون » - بمجلة العصبة الأندلسية عام ١٩٤٠ - وقد نشر فى مجلة الرسالة عام ١٩٤٠ ، وفى مقدمة ديوان « صرخة فى واد » .

٢ — مجلة الحج المكية - عدد ربيع الأول ١٣٦٨ هـ - مقال بقلم رئيس تحريرها الأديب السعودى محمد سعيد العامودى .

٣ — مجلة المجمع اللغوى فى القاهرة - العدد السابع ص ٥٨ وما بعدها - حيث ورد عرض واسع لديوان « صرخة فى واد » ، ومنزلته الشعرية ومكانة صاحبه فى الشعر المعاصر - وذلك فى أثناء الحديث عن المسابقة الشعرية التى عقدها المجمع للشعراء المعاصرين العرب .

٤ — شعراء موظفون - مقال بقلم الشاعر أحمد عبد المجيد الغزالى - مجلة الموظفين العدد الثالث - سبتمبر ١٩٥٦ .

٥ - مقالات عن الشاعر بقلم على مصطفى المصراتى الليبى - بلغت أكثر

من عشرين مقالة ، ونشرت فى صحيفة « طرابلس الغرب » الليبية - شهر سبتمبر ١٩٥٤ .

٦ — صحيفة الأشقاء السودانية عدد ٩ سبتمبر ١٩٥٨ .

٧ — صحيفة « صوت السودان » - عدد ٩ سبتمبر ١٩٤٨ .

٨ — من شعرائنا الثائرين ، مقالتان للشاعر عبد المنعم عواد - نشرتا فى العددين ١٩٣ و ١٩٤ من مجلة العالم العربى التى تصدر فى القاهرة - شهر مايو ويونيو ١٩٦١ .

٩ — مقدمة ديوان « صرخة فى واد » بقلم الوزير إبراهيم دسوقى أباظة .

١٠ — مجلة الثورة العدد الخامس عشر الصادر فى ٧ أكتوبر ١٩٥٤ .

خمسة من شعراء الوطنية[1]

— ١ —

ونعني بهؤلاء الخمسة الشعراء :

١ — أحمد محرم (٥ / ١ / ١٢٩٤ - ١٣٦٤ هـ : ٢٠ / ١ / ١٨٧٧ - ١٩٤٥) .

٢ — الشاعر أحمد نسيم (١٢٩٥ - ١٣٥٦ هـ : ١٨٧٨ - ١٩٣٨) .

٣ — الشاعر أحمد الكاشف (١٢٩٥ - ١٣٦٧ هـ : ١٨٧٨ - ١٩٤٨) .

٤ — الشاعر عبد الحليم حلمي المصري (١٣٠٤ - ١٣٤١ هـ : ١٨٨٧ - ١٩٢٢) .

وهؤلاء الشعراء الأربعة تجري في عروقهم الدماء التركية والمصرية معاً .

٥ — الشاعر علي الغاياتي (٢٤ / ١٠ / ١٨٨٥ - ٢٧ / ٨ / ١٩٥٦) وهو دمياطي الأصل . وقد توفي هو والشاعر الدمياطي المشهور محمد الأسمر في عام واحد .

وكما لاحظ الشاعر المرحوم عبد الرحمن صدقي فإن لهؤلاء الشعراء أثراً في النهضة الوطنية وفي خدمة قضية الحرية في وطنهم ، مع تشابههم في الشاعرية وعمودية القصيدة ويعتبرون في الشعر - بوجه عام - من مدرسة واحدة ، وإن كانوا من حيث الشخصية والسمات الخلقية أنماطا مختلفة » .

---

(١) ظهر كتاب بهذا العنوان ، وهو من تأليف لفيف من الأدباء ، وقد نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب وطبع مطابع الهيئة في ٢٣٦ صفحة بالقاهرة عام ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م .

— ٢ —

أما الشاعر أحمد محرم فقد تحدث الدكتور طبانة فى دراسته له عن مولده وسيرة حياته(١) ، ثم عن شاعريته وموضوعات شعره : كالشعر الوطنى والعربى والإسلامى والاجتماعى والعاطفى ؛ وأشار إلى مراجع دراسته .

وتمتاز دراسة الدكتور طبانة للشاعر بعمقها ودقتها ؛ ولا شك أن دراسة شاعرية محرم عمل فيه كثير من المجازفة ، لأن الجزءين الذين صدرا من شعر محرم (الأول عام ١٩٠٨ ، والثانى عام ١٩٢٠) لا يمثلان شعره تمثيلا كاملا ، فما زال شعره خلال الربع القرن الأخير من حياته (١٩٢٠ - ١٩٤٥) مطويا فى بطون الصحف والمجلات لم يجمع فى ديوان ، ومنها مجلة « الصدق » التى كانت تصدر فى دمنهور ؛ والأولى بشبابنا الذين يحضرون رسائل الماجستير والدكتوراه فى الأدب فى مختلف جامعاتنا المصرية أن ينهضوا بجمع هذا الشعر المفرق من مختلف مصادره ، حتى تستقيم دراسة الشاعر لتصبح أكثر شمولا ودقة واستقامة أما شيوخ الأدب فى مصر ودارسوه ونقاده فمهمتهم التوجيه إلى ميادين العمل الأدبى الجديدة ، التى يجب اقتحامها حتى لا يكرر الشباب أنفسهم فى أعمال أدبية مدروسة .

ومحرم شاعر إسلامى ووطنى من طراز فريد ، فقد عاش عدوا للقصر وللحزبية السياسية وللمحتل وأذنابه والرجعية والإقطاع ، وحارب كل هذه الأركان المتداعية ، وحاربته هى حتى لفظ آخر أنفاسه ، ولاقى ربه .

---

(١) السيرة كما يرى العقاد تتناول قصة حياة ، أما الترجمة فهى تاريخ حياة ، وأرى أن السيرة لا بد أن تتناول حياة لها جوانب ملحمية أما الترجمة فتخلو من مثل هذه الجوانب ، ولا شك أن تناول حياة محرم بالدراسة عمل يتصل بالترجمة أكثر مما يتصل بالسيرة .

ومن شعره الوطنى ما وجهه إلى الانجليز فى قصيدته عن مأساة دنشواى:

بنى التاميز كونوا كيف شئتم ... فلن ندع الكفاح ولن نلينا
خذوا أنصاركم إنا نراهم ... لنا ولقومنا الداء الدفينا
هم الأعداء لسنا من ذويهم ... وليسوا فى الشدائد من ذوينا
ذممنا عهدكم فتى نراكم ... تشدون الرحال مودعينا

ومحرم هو الذى أنذر الإقطاعيين فى بلاده بالثورة فقال :

إنى أرى خلل الحوادث موقفا ... جللا يقيم قيامة المثرينا
مهلا موالينا أيجمع واحد ... ما لو تفرق جاوز المليونا ؟
ونظل لا نرجو نظاما صالحا ... يقضى الحقوق ولا نرى قانونا

وكتب من جناياتهم على الشعب فقال :

أضروا الشعب واستلبوا قواه ... وآفة كل شعب مترفوه

وكان محرم يمثل روح الشاعر الثائر الوطنى المخلص لدينه ولأمته ولوطنه وقد بلغ فى شعره الوطنى والإسلامى الذروة ، وكانت الإلياذة الإسلامية التى نظمها عملا جليلا فى شعرنا المعاصر ، وهى من أقدم نماذج الشعر الملحمى فى شعرنا الراهن ، ويقول بدوى طبانة عن محرم : « كان فى مقدمة شعراء الوطنية الأوفياء الذين ثبتوا على رأيهم فى الإيمان بحق الوطن ، وكذلك أجاد محرم فى شعر العقيدة الذى أبدع فيه غاية الإبداع وكان فيه إماماً لمعاصريه ؛ وهذان الغرضان : الشعر الوطنى والإسلامى ، فى طليعة ما برز فيه محرم من أغراض الشعر » ـ ص ٣٠ من الكتاب .

وتجديد محرم الفنى ـ بنظمه للشعر الملحمى عمل جليل فى تاريخنا الأدبى المعاصر يجب أن يذكر له دائما بالفخر والتقدير ؛ وهو فى حاجة إلى مجال واسع ودراسات شاملة .

— ٣ —

وأما الشاعر أحمد نسيم فيضرب المثل بوطنياته وكان يلقب بشاعر الحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨ وقيام محمد فريد خلفا له في رياسة الحزب فقد ناهض الاحتلال وأعوانه ، وأيد مبادىء الحزب الوطني في المطالبة بالحرية والاستقلال ، ومن قصائده الوطنية قوله :

قالوا لنا : إننـــا جئنا بلادكم نبني لكم ركن مجد غير منهدم
حكوا القلوب فأذكوها ، وياربما
أدى إلى النـــار حك البارد الشبم

وقوله يخاطب اللورد كرومر عقب مغادرته لمصر :

ألا أيها العاتي الذي شاب رأسه فسوده من ظلمه بخضاب
دع الإفك لا تركن إليه فإنما عقاب الذي تجنيه شر عقاب
أذقت بوادي النيل حتى سقيته مرارة صبر لا يطاق وصاب
دعا ربه حتى أجـــاب دعاءه وقد كان قبلا فيك غير مجاب
فسيان سخط في كتابك أو رضا إذا كان ترحال بغـــير إياب

وقد تناولت دراسة الشاعر محمد عبد الغني حسن للشاعر أحمد نسيم عرضا لموقف الشاعر من الاحتلال ومثله في مصر ، ولموقفه من الخديو عباس ، ولوطنيات نسيم وموقفه من الحزب الوطني ، ومذهب الشاعر في شعره ، وأغراض الشعر عند نسيم ، وغير ذلك من شتى الموضوعات التي عرضها كاتبها بعقل الأديب ، وذوق الناقد ، ورجع فيها إلى العديد من المراجع ، ووازن بين الآراء المختلفة .

وإن كان شعر نسيم في الفترة التي تلت ظهور الجزء الثاني من ديوانه (عام ١٩١٠) حتى وفاته عام ١٩٣٨ لا يزال مبعثرا غير مجموع في ديوان ؛

مما يجعل الحكم على شاعرية نسيم برأى مجازفة لايطمئن إليها عقل الناقد والدارس ، ويا حبذا لو نهض بعض الباحثين من شباب الجامعات بجمع هذا الشعر من مختلف مصادره ، إذن لأسدى للشعر وللشاعر يداً مشكورة .

ويقول الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى دراسته : من المؤسف أن شعر نسيم الذى نظمه بعد ذلك ـ عام ١٩١٠ ـ فى مناسبات قومية واجتماعية مختلفة لم ينشر فى ديوان ، ولا ندرى إذا كان الشاعر نفسه قد أعد هذا الشعر الجديد وهيأه للنشر ، وإن كان ذلك فأين مقر هذه النسخة الخطية من شعر نسيم بعد سنة ١٩١٠ (ص ١٤٣ من الكتاب) .

ويا حبذا لو أنشىء فى مكتبتنا الوطنية قسم خاص تكون مهمته جمع وحفظ تراث شعرائنا المعاصرين الذى لم ينشر فى ديوان ، لأن هذا الشعر ـ ولا ريب ـ وثيقة فريدة لدراسة مختلف جوانب الحياة السياسية والوطنية والاجتماعية ، وهو بمثابة تاريخ مفصل للحركة الفكرية والأدبية والسياسية فى بلادنا من أوائل القرن العشرين .

— ٤ —

وأما الشاعر الكاشف فيقول الشاعر المرحوم محمود غنيم فى دراسته له إنه « كان شاعر السياسة ، وما أجدره بهذا اللقب ، ولقد اعترفت بذلك صحيفة الأهرام التى كانت تتخذ لما تنشره من شعره عنوانا ثابتا هو « الشعر السياسى » ; وليس معنى ذلك أنه أغفل جوانب الشعر الأخرى التى طرقها غيره من الشعراء ، ولكن معنى ذلك أن جانب السياسة طغى طغيانا استحق به هذا اللقب » ـ ص ١٥٢ من الكتاب .

والحال فى شعر الكاشف هى الحال فى شعر لداته وإخوانه من الشعراء من مثل : نسيم ، ومحرم ، ولذلك يقول الشاعر محمود غنيم : « طبع الجزء الثانى من ديوان الكاشف فى سنة ١٩١٣ ، وبعملية حسابية يسيرة يتضح لنا أن ماقاله الكاشف فى الشطر الثانى من عمره لم يدون فى ديوان ، وبديهى أن

هذا الشطر هو أخصب شطرى العمر ، فأين شعر الكاشف فى كل تلك المدة الطويلة ؟ أهو مبعثر فى أشتات الصحف والمجلات ؟ أم فى قصاصات تركها عند من لا يعرف قيمتها من أهله فلم تر النور بعد وفاته ؟ أم كف الشاعر أو قلل من قرض الشعر حين وجده تجارة كاسدة ؟ ولكن شاعراً كالكاشف دون انصرافه عن الشعر انصراف البحار عن أن تموج . . فلم يبق أمامنا إلا أن نفترض أنه بسبب مرضه قلل من نظم القريض سبباً ، وانصرف عن جمع ما ينظم بين دفتى ديوان » ; ويستدرك غنيم فيقول إثر ذلك : ومهما يكن من أمر فإن ما خلفه لنا الكاشف فى جزءى ديوانه — وهو يبلغ زهاء أربعة آلاف بيت — كفيل بالحكم عليه ، واكتشاف منهجه الشعرى ، وربما أمكن الحكم على الشاعر بقصيدة واحدة » — ص ١٥٤ من الكتاب .

وأنا أقول إن الدراسة التفصيلية للشاعر ومذهبه فى الشعر لا يمكن أن تتم إلا على أساس من شعره كله ، أما الدراسة العامة فيمكن أن نذهب فيها — مع شاعرنا غنيم — إلى أنه قد يكفى فيها قصيدة واحدة .

وقد ذكر الشاعر غنيم أبياتاً من شعر الكاشف الذى لم يثبت فى جزءى ديوانه ، مما يحمد له ، وبلا ريب أننا سنجد للكاشف شعراً فى مختلف الصحف والمجلات من مثل أبولو والسياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى والرسالة والثقافة وغيرها ، ولكن عبء جمع ذلك يقع على كاهل شباب الجامعات الذين يجب أن تكون فى رسائلهم عن الشعر الحديث إضافات جديدة ليست معروفة لجمهور الأدباء والدارسين .

وفى الحقيقة أن دراسة الشاعر غنيم للكاشف تمتاز بالدقة والعمق والشمول ، مما نحمده له . . وكان الكاشف يحتل منزلة رفيعة عند أعلام الأدب جميعا ، فالمنفلوطى يقول فيه : هو الشاعر الوحيد الذى عرفت وعرف الناس جميعاً من أمره أنه إذا نطق فإنما ينطق بلغة نفسه ، وإذا حدث فإنما يحدث عن حسه ; ويقول فيه إسماعيل صبرى (— ١٩٢٣) : « إن

من شعر الكاشف مايستحق أن يقف له القارىء إعجابا وإجلالا كما أن منه ما أود أن يكون لى .

والشعراء والأدباء والنقاد ، أو جلهم ، يعجبون بشعر الكاشف إعجابا شديدا ـ راجع ص ١٨٢ ـ ١٨٤ من الكتاب .

وتتناول دراسة غنيم للشاعر الكاشف عرضا مفصلا : لحياته ، وشخصيته وشاعريته وأسلوبه الشعرى ، واغراض شعره . وجوانب أخرى تتصل بحياته وشعره اتصالا وثيقا .

— ٥ —

ويكشف لنا الشاعر الماحى صفحة مجهولة من اضطهاد الخديوى عباس للشاعر عبد الحليم المصرى ، هذا الاضطهاد الشديد إثر هجائية رمزية كتبها فى هجاء عباس وشاعره أحمد شوقى .

ويقول الشاعر محمد مصطفى الماحى عن عبد الحليم « إنه لا نزاع فى أنه كان صورة صادقة وأمينة من حياة عصره ، مع محافظته على مقومات الشعر العربى ، كما كان شعره مرآة صافية لنفسه وخلقه ، وكان من الشعراء الذين أذكوا فى نفوس الشباب نار الوطنية الصادقة ، وغرسوا فيها حب الوطن ، وطلب الحرية له والعمل على استقلاله ، والسير به فى طريق التقدم والازدهار » ـ ص ٢٤٦ من كتاب خمسة من شعراء الوطنية .

ويذكر لنا الماحى قصة المنافسة بين حافظ وعبدالحليم وما كتبه حافظ ـ فى الترحيب بعودة شوقى من المنفى ـ من شعر فيه تعريض بالشاعر عبدالحليم وبشاعريته ، من مثل قوله :

قل للذى قد قام يشأو أحمدا
خل القريض فلست من فرسانه

وقد تناول الماحى فى دراسته هذه حياة الشاعر عبد الحليم واشتغاله بالأدب وأساتذته فيه ، واضطهاد الخديو له ، وشاعريته وأغراض شعره ، وأخبار وفاته وتأبينه ، بكثير من التفصيل .

— ٦ —

وتأتى للشاعر الأخير المكافح المناضل الوطنى على الغاياتى صاحب ديوان « وطنيتى » ، الذى اشترك فى دراسته الشاعران : محمد طاهر الجبلاوى و د . مختار الوكيل .

ويقول د . مختار فى التقديم لهذه الدراسة : إن الشاعر الغاياتى هو « الشاعر الذى غنى أهازيج الوطنية منذ ريعان الصبى ، وقاسى ضروب العذاب والتشريد والحرمان ، لأنه اتخذ الشعر الوطنى قيثارته ، وجعله هواه الذى لا يعرف سواه ، كان ديوانه « وطنيتى » سبباً فى تشريده ومحاكمته وهجرته عن وطنه » ـ ص ٢٧٥ من الكتاب .

وقد عرض الشاعر الجبلاوى لنشأة الشاعر فى دمياط ، ثم لحياته فى القاهرة ، واصلته بالحزب الوطنى .

ودرس الدكتور مختار ديوان « وطنيتى » ، وعرض لمحاكمة الاحتلال للشاعر وللزعيمين : فريد وجاويش الذين قدما للديوان ، ولهرب الغاياتى وسفره إلى الآستانة ، ثم إلى جنيف عام ١٩١٠ ، وحياته على ضفاف بحيرة « ليمان » ، وتحريره فى الصحف السويسرية التى تصدر بالفرنسية ، وإصداره لجريدة منبر الشرق فى الخامس من فبراير ١٩٢٢ ، ثم عودته إلى وطنه عام ١٩٢٧ ، وإصداره لمنبر الشرق مرة أخرى فى السادس من مايو ١٩٣٨ ؛ وتحدث عن حياة الغاياتى فى وطنه حتى وفاته عام ١٩٥٦ وعن منزلته الشعرية .

ودراسة الشاعر الجبلاوى والدكتور مختار الوكيل للشاعر على الغاياتى

تتسم بالجدة ، وتتناول كل جوانب حياة الغاياتى ونضاله من أجل وطنه وحرية بلاده ؛ وليس مثل الجبلاوى إلماما بنشأة الغاياتى الأولى فى دمياط وصباه ، وليس مثل الدكتور مختار اطلاعا على سير حياة الغاياتى منذ فكر فى الهجرة حتى وفاته لصلته الوثيقة به ، وهو قد عاش فى سويسرا فترة من الزمن ، وشاهد كل معالم البيئة الجديدة التى عاش فيها الغاياتى فى الغرب ، واطلع على تفاصيل جهاده من أجل بلاده وحريتها اطلاعا شاملا .

— ٧ —

وشعرهؤلاء الشعراء ملحمة وطنية جليلة ، ومملمة شعرية رفيعة ، ترسم صورة واضحة لوطننا الخالد العظيم فى أحلك فترات حياته ونضاله الرائع الكبير من أجل عزته وكرامته وحريته .

وحياتهم صفحة من كتاب مملوء بكل مايرفع رأس المصرى من صفحات التضحيات والفداء والبذل التى أعطاها شعبنا لقضية الحرية المقدسة التى عاش كل عصور التاريخ معتزا بها ، مضحيا من أجلها ، باذلا النفس والنفيس من أجلها ؛ من أجل أكرم غاية ، وأجل هدف ، لبلادنا العزيزة . . من أجل الحرية والاستقلال والسيادة .

شاعرات عربيات معاصرات

ازدهر الشعر فى شتى أنحاء العالم العربى ازدهارا لا يتمثل ـ فحسب ـ فى مشاركة المرأة الرجل فيه ، وكثرة الشعراء والشاعرات كثرة تعجز العد ، وظهور الدواوين يوما بعد يوم ، وتنوع ما ينشر منه فى الصحف والمجلات والكتب ، وما يذاع فى مختلف الإذاعات . . بل يتمثل ـ فوق ذلك ـ فى محاولة الشعراء والشاعرات التجديد فى صوره ومعانيه وأخيلته وموضوعاته، تجديداً يتفق والحضارة المادية والعقلية التى نعيشها . وقد طور المعاصرون من الشعراء والشاعرات البناء الفنى للقصيدة تطويراً كبيراً ، فخرجوا من قيود القافية ، ونظموا الشعر المرسل والحر .

ويقف النقـــاد من الشعر الحر مواقف مختلفة : فريق يعيبه ويطرحه ويستهجنه ، وفريق يدافع عنه ويستحسنه ويراه طابع العصر ، وفريق ثالث يقبل منه ما جاء على نمط أوزان الشعر القديمة . . ويقول أصحاب الشعر الحر : إنه لا يخلو من الوزن والموسيقى ، وتقول نازك الملائكة فى مقدمة ديوانها « شظايا ورماد » : إن الشعر الحر ليس خروجا على الأوزان العربية القديمة، بل هو أسلوب جديد فى ترتيب تفاعيل الخليل ، يطلق جناح الشاعر من القيود ، إنه يحرر الشاعر من عبودية الشطرين ، فالبيت ذو التفاعيل الست يضطر الشاعر إلى أن يختم الكلام عند التفعيلة السادسة ، وإن كان المعنى الذى يريده قد انتهى عند التفعيلة الرابعة، بينما يمكنه الأسلوب الجديد من الوقوف حيث يشاء . وتؤكد نازك أن الشعر الحر لابد أن يعتمد فى أساسه على أوزان الخليل ولا يخرج عنها . وهى بذلك تخالف معاصريها فى مفهومه . . أما القافية فهى فى غالب الأمر عندها محررة من القيود الموروثة . وقد تستعمل نظام الرباعية أو المقطوعة أحيانا . . ويدور شعر ملك عبد العزيز فى ديوانها « أغانى الصبا » حول نظام القافية الواحدة ، أو تزواج بين كل بيتين ، وقد

تسلك محاولات أكثر تعقيدا للتصرف فى تقسيم التفاعيل،وتشكيل القوافى..
أما « فدوى طوقان » فقصائدها من الشعر الحر غالبا ، وقوافيها منوعة على نظام المقطوعات أو الرباعيات ، وقد تسلك طريق المزاوجة ، وقد تتحرر من كل ذلك . وتتحرر صفية أبو شادى فى ديوانها « الأغنية الخالدة » من القيود العروضية جميعها ، أما جميلة العلايلى وجليلة رضا ولورا الأسيوطى وروحية القلينى فيلتزمن غالبا فى شعرهن البناء الفنى الموروث ، مع تحرر من بعض القيود المعوقة لقدرة المرأة الشاعرة على التعبير عن تجاربها .

وأكثر شعر المرأة من الشعر الرمزى الذى تدافع عنه « نازك » فى مقدمة ديوانها « شظايا ورماد » والطابع الأكثر وضوحا عند المرأة هو الطابع الرومانسى غالبا ، بكل خصائصه الفنية من كثرة الحديث عن النفس والذات، وحب الطبيعة ومعايشتها ، ومن القلق والحيرة والشعور بالوحدة والغربة وغير ذلك .

وتؤكد « نازك » - فى مقدمة « شظايا ورماد » الذى صدر عام ١٩٤٩ - أن الشعر العربى يقف على حافة تطـــور جارف عاصف ، ولن يبقى من الأساليب القديمة شيئاً ، فالأوزان والقوافى والأساليب والمذاهب ستتزعزع قواعدها جميعا ، والألفاظ ستتسع حتى تشمل آفاقا جديدة واسعة من قوة التعبير ، والتجارب الشعرية - الموضوعات - ستتجه اتجاها سريعا إلى داخل النفس ، بعد أن كانت تحوم حولها من بعيد . وتؤكد أيضاً أن ذلك هو النتيجة المنطقية لإقبالنا على قراءة الآداب الأوربية،ودراسة أحدث النظريات فى الفلسفة والفن وعلمى الاجتماع والنفس .

واهتمام الشاعرات العربيات موجه - فى أغلب الأمر - إلى الجانب العاطفى الوجدانى . فهن يكثرن من الحديث عن الحب والزواج والأبناء والأمومة وينفردن بتصوير المواقف العاطفية الخاصة . ومن مثل ذلك قصيدة « رب الدلو » للشاعرة جليلة رضا من ديوانها « أنا والليل » وتقول منها :

وتركت بعدك في الصباح دياري وأنا على غيظي وثورة ناري
وذهبت أشكو منك عند أقاربي بحدة الإنضاء آخـــذ ثاري
وعلى الطريق تبخرت من خاطري ذكرى الإهانة والأسى والعار
حتى وصلت فلم أجد بمشاعري مايستـــدل به على الإعصار
ولمحت في قلق خيالك قائماً بيني وبين الأهل في إصرار
ووجدتني ياضعف قلبي في الهوى
أخشى عليك من النســـيم الساري
سلمت في عجل وعدت كما أنا أطوي بعمق جوانحي أخباري

وتقول « فدوى » كذلك في قصيدتها « القيود الغالية » من ديوان « وجدتهـا » :

أضيق ، أضيق بأغلال حـــبي
فأمضي ، وتمضي معـــي ثورتي
أحاول تحطيم تلك القيـــود

ويمضي خيالي

فيخلق لي عنك قصة غدر

لـكيما أبرز عنـــك انفصالي
وأقصيك عني بعيـــداً ، بعيد
لعـــلي أعانق حـــريتي
وأقطع ما بيننـــا . غير أني
أحس إذا ما انفصلنا كأني
لفظت وراء حـــدود الوجود
بمـــا بيننـــا من عهود

ومثل ذلك تقول نازك الملائكة من قصيدتها « صائدة الماضى » من ديوان « قرارة الموجة » :

انتظرنى . . غدا سيقذف بى الموج
إلى شطك القـــريب البعيـــد
ثم تمشـــى بى السنين إلى بابك

وحول هذا تدور كذلك قصيدتها « عندما قتلت حبى » من ديوان « قرارة الموجة » .

ولا تغفل المرأة الجانب الإنسانى فى شعرها . ومن مثل ذلك قصيدة نازك « النائمة فى الشارع » من ديوان « قرارة الموجة » . وقصيدة « من وراء الجدران » للشاعرة فدوى ، وقصيدة « أدير » لجليلة رضا . ويتردد فى شعر المرأة كذلك : شعر الوصف والحب والتصوير والرثاء ، وغير ذلك من موضوعات وتجارب الشعراء .

ولقد منحت الكثيرات من النساء ملكة الشعر ، ونشأن على تذوقه وعكفن على نظمه وتجويده ، واشـــتركن مع الشعراء فى شتى مجالاته ومهرجاناته وأنديته ومواقفه ومناسباته ، ومن هؤلاء : نازك ، وفدوى ، وجليلة رضا ، وجميلة العلايلى ، وملك عبد العزيز ، وصفية أبو شادى ، ولورا الأسيوطى ، ونجاة شاور ، ونجاة شاهين ، وروحية القلينى ، وأمانى فريد ، وزكية حجازى ، وسواهن . . اسمع مع روحية القلينى وهى تقول فى قصيدتها « متى تعود ؟ » من ديوانها « همسة الروح » :

الناس تسأل عنى وهى مشفقة	ماذا أصابك من هم ومن سهد
ماذا أجيب ؟ أنا حيرى معذبة	إذا أجبت فهل يشفيهم ردى
أنا بواد من الأفكار هائمة	أصارع الشك فى أنى بلا أحد

ونازك تنحدر من أسرة شاعرة ، وأمها ـ أم نزار الملائكة ـ كانت شاعرة

مشهورة ، وأخواها : إحسان ونزار لهما مواهب فنية لطيفة فى نظم الشعر.. ودواوينها : عاشقة الليل ـ شظايا ورماد ـ قرارة الموجة ، الذى أهدته إلى أمها ، تمثل شاعرية منطلقة نزاعة إلى التجديد ، وإلى عالم بعيد من الرؤى والأحلام والخيال والمشاعر الباطنية ، والموسيقى العذبة ،والتصوير الشفاف، والرمز العميق ، ولها فى ديوانها « شظايا ورماد » طائفة من القصائد التى عالجت فيها حالات تتعلق بالذات الباطنية واللاشعور . . وشعرها فى جملته شعر التجارب التأملية ، فهى تغوص كثيرا فى أغوار العقل الباطن ، وتصف فيه شتى نوازع النفس وعواطفها وانفعالاتها . . وعاطفة الحرمان والقلق والحيرة تقترن فى شعرها بعواطف الحب والرضا والابتسام تقول من قصيدة لها بعنوان « صراع » :

أحب وأكره . . ماذا أحب وأكره ؟ أى شعور عجيب ؟
وأبكى وأضحك . . ماذا ترى يثير بكائى وضحكى الغريب
لماذا أعيش ؟ لماذا أغنى ؟ ومن ذا أصارعه ؟ لايجيب

وفى قصيدتها « قبر ينفجر » من ديوان « شظايا ورماد » تشير إلى روح التفاؤل والانطلاق فى نفسها :

سأفجر القبر الصغير حجارة
وأطير من أمسى القريب إلى غدى
وسأنثر الألحان فى صمت الدجى
يا أنجم الليل المضيئة فاشهدى

وفى قصيدتها « كلمات » تعود فتصور خطاها فى التفاؤل بالناس والحياة ، وهى من قصائد ديوان « قرارة الموجة » .

أما جليلة رضا ، فدواوينها اللحن الباكى ، واللحن الثائر ، والأجنحة

البيضاء ، وأنا والليل ، تصور شاعرة رومانسية تحب الرمز وتؤثره أحيانا . ويتسم شعرها بصدق العاطفة ، وحرارة الانفعال ، وجرأة التجربة ، وذاتية التعبير . وتخلط جليلة ومدرسة الرومانسيين صورا وأخيلة ومعانى وموسيقى فيها ألوان من الجدة والطرافة أحيانا ، وأحيانا يصبح تجديد الرومانسيين عبثا على التقاليد الفنية المرروثة ومع تجديداتهم فى البناء الفنى ، فإن جليلة تلتزم غالبا الوزن الشعرى ، وتنوع فى القافية وقد تأثرت بإبراهيم ناجى فى صوره الشعرية الأصيلة ، وطابع الحيرة والقلق غلب على شعرها . تقول فى قصيدتها « هواجس » من ديوان « اللحن الثائر » :

إنى أريد أن أموت كى أرى وجه الفناء
لكى أغير الوجوه والدروب والضياء
لكى أضم فى يدى شيئا سوى هذا الهواء

وقصيدتها « الزهرة الذابلة » من ديوانها « أنا والليل » تصور نفسها ومنها :

آه من قبضة الظلام وأنفا ... س شياطين هـــذه الجدران
رب أرض أرق صدرا وأحنى ... من قلوب تجيش بالخفقان
هكذا أذبل القطاف عبيرى ، ... من تراه على حياتى الجانى
كل شىء لمست فيه وفاء ... غير أنى خدعت فى الإنسان

وفدوى تمثلها دواوينها : وحدى مع الأيام ، ووجدتها ، وأعطنى حبا ، شاعرة صاحبة موهبة فنية رفيعة ، وشعرها بديع الأنغام والموسيقى والتصاوير وعميق الرمز والإيحاء . عاشت فى ربى فلسطين . وشاهدت النكبة ووعتها كما شاهدت موت أخيها إبراهيم وبكته فى شعرها أحر بكاء مثلما فعلت من قبلها الخنساء بأخيها « صخر » . ونبعت عبقريتها من الألم الدفين . كأنها دمعة هطلت على خد الربيع . . وفى ديوانها « أعطنى حبا » تصور تجربة وجدانية عميقة فى قصيدتها « القصيدة الأولى » التى تقول فيها :

لا ، لا تسلـــنى ، لن أبوح به
سيظل حبك سر أغوارى
أعطيه من ذاتى وأمنحه
ماعشت عاطفتى وإيثارى
أسقيه من عطرى أوسده
صدرى أناغيه بأشعارى
ها أنت ها أنا ، قصة بدأت
مكتوبة فى سفر أقدارى

وتأثرت جميلة العلايلى بروحانية الإسلام ، وبأدب مى وطاغور وإقبال ، وبفلسفة غاندى وبالمدرسة الرومانسية الحديثة ، وهى من شاعرات «أبولو» القدامى ، وديوانها «صدى أحلامى» يمثل رومانسية غالبة ومنه قصيدتها «جريح القدر» ، التى تقول فيها :

وظل يسكب فى أعماقه شجنا ويرسل الدمع أشكالا وألوانا
ويرقب النجم فى الظلماء منتحبا على النجوم تواسى قلبه آنا

وقد كافحت من أجل الأدب كفاحا مريرا بمجلتها «الأهداف» التى كانت تصدرها شهرية هى وزوجها الأديب سيد ندا، رحمه الله

وملك عبد العزيز شاعرة ذاع اسمها بين الشاعرات المعاصرات ، وأغلب مانظمته من شعر الوجدان الصافى المهموس ، وأغلب انفعالاتها من مشاهد الطبيعة التى تجاوبت مع روحها ، كما يقول الدكتور مندور فى مقدمته لديوانها «أغانى الصبا» . . وتقول الشاعرة فى تصديرها للديوان : إنها قرأت ألوانا من الشعر القديم والحديث ، وتأثرت خاصة بشعر ناجى والصيرفى والعقاد وميخائيل نعيمة . وبالشعر المهجرى عامة ، ويجمع ديوانها أغاب شعرها مابين السادسة عشرة والحادية والعشرين . والطابع الرومانسى والاتجاه

إلى الرمزية وحب الطبيعة ، والغوص فى أغوار النفس الباطنية من سمات شعرها الذى يظهر فيه طابع القلق والحيرة أيضا . . وتمثل قصيدتها «اعصفى يارياح» هذا القلق المقرون بحب الصراع والإيمان بالنفس والتفاؤل بالحياة ، وتقول فى مطلعها :

اعصفى ، اعصفى يارياح
ها أنا وحدى . . هنا
لن تنالى من ثباتى مغنما
أنا أقوى منك ياريح . . أنا

وفى قصيدتها «فجر كاذب» رمزية آسرة . هذا وقد نالت قصيدتها المطولة «ذكرى جواد» إعجاب النقاد وتقديرهم .

وبعد فهذه هى ملامح من الشعر النسوى المعاصر ، الذى يغلب فيه على العموم الطابع الإنسانى ، ويختفى منه الشعر الفلسفى والقصصى والتمثيلى . . ولكنه يحتوى على ثروة خصبة من تصوير صادق لعواطف المرأة ، ومشاعرها المتباينة فى الحياة وهذا نموذج من الشعر النسوى المعاصر . قصيدة «خائفة» لنازك الملائكة ، تقول فيها الشاعرة :

١ - ارجع ، فالليل تثير مخاوفه قلقى
٢ - وأنا وحدى والنجم بعيد فى الأفق
٣ - يخدعنى أمل فى فجر لم ينبثق
٤ - وصبابة دمع باردة لم تحترق
٥ - ومددت يدى فرجعت بحفنة ظلماء
٦ - وسألت الليل فبؤت ببضعة أصداء
٧ - أصداء مغرقة فى صورة إغماء
٨ - جاءت تزحف من أغوار الماضى النائى
٩ - دربى حاولت سدى أن أرفع أستاره

١٠ - تصخب في عتمته أشباح ثرثاره
١١ - أنكرت الدرب كأن لم أعرف أحجاره
١٢ - يوما بالأمس ، ولم أستكشف أسراره
١٣ - ارجع ، أواه ألا تسمع صوتي الموهون
١٤ - ان أبق وحدى في هذا الدرب المجنون
١٥ - هذا الأفق المستغلق حيث النجم عيون
١٦ - حيث الأشجار هياكل أفكار وظنون
١٧ - تتردد فيـــه أصوات تطلب حبي
١٨ - أصوات غادرة تنبح ملء الرحب
١٩ - صدقني وارجع أخشى أن تجرح قلبي
٢٠ - صدقني إني أسمعها تمــــلأ دربي
٢١ - في المعبر سعلاة ترمق طيفي بفتور
٢٢ - ووراء المفترق المتشعب بعض قبور
٢٣ - خذ يدى، ولنترك هذا الأفق المهجور
٢٤ - لا تتركني روحا صارخة في الديجور

الشاعرة :

نازك الملائكة شاعرة عراقية رفيعة المنزلة في الشعر ، ومن رواد الشعر النسوى المعاصر في العالم العربي ، لها عدة دواوين منها : عاشقة الليل - شظايا ورماد - قرارة الموجة - شجرة القمر .

وهي شاعرة رومانسية الموضوع ، رمزية الأفكار والأخيلة . . .

تحتفل بشعرها الصحف والمجلات والإذاعات ، وهذه إحدى قصائدها من ديوانها : قرارة الموجة . .

المفردات :

١ - تثير : تحرك . مخاوف : جمع مخافة وهى الشىء يخاف منه . والمخافة : الخوف نفسه أيضا . القلق : الحيرة والاضطراب .

٢ — وحدى : أى منفردة . الأفق : السماء .

٣ — يخدعنى : من الخداع وهو الختل والمكر والاحتيال فى عمل المكروه وإنزاله بغيرك من حيث لا يعلم ولا يحـــترس منه . ينبثق : يظهر نوره من انبثاق الماء وهو تفجره من باطن الأرض على سطحها .

٤ — الصبابة : بقية الماء فى الإناء .

٥ — الحفنة . ملء الكفين من طعام وغيره ، وحفنت الشىء إذا جرفته بكلتا يديك ولا يكون إلا من الشىء اليابس كالدقيق ونحوه ، واستعماله هنا فى الظلماء على سبيل الاستعارة المكنية فى « ظلماء » والتخييلية فى (حفنة) .

٦ — بؤت : رجعت . البضعة بفتح الباء : القطعة من اللحم . الأصداء : جمع صدى وهو الصوت المردد بعد كلامك . وفى الأصداء استعارة مكنية والبضعة تخييل .

٧ — مغرقة : مسرفة متجاوزة حدها .

سوره الغضب : شدته وقوته ووثوبه .

وسورة السلطان : سطوته وقوته وبأسه واعتداؤه . وسورة إغماء مثل « حفنة ظلماء » ، استعارة مكنية

٨ — تزحف : تدب على الأرض فى بطء شديد :

أغوار : جمع غور وغور كل شىء قعره . والمراد تزحف من أعماق الماضى أى من الماضى العميق . النائى : البعيد .

٩ - الدرب : الطريق الضيق . سدى : عبثا . أستار : جمع ستر وهو الغطاء . والمراد : أن أكشف مجاهله .

١٠ - الصخب : الجلبة والضوضاء وارتفاع الأصوات . العتمة : شدة الظلام والأشباح : جمع شبح ، وهو الشيء يتراءى لك من بعيد ولا تميزه. والشبح أيضا يطلق على الشخص من بعيد . ثرثارة : كثيرة الكلام .

١١ - أنكرت الدرب استنكرته أى جهلته .

١٢ - أستكشف : أكشف،وهو تعبير خاطىء والصواب أن تقول : أكشف ، ولا تقول : أستكشف . أسرار جمع سر أى مجاهله .

١٣ - أواه : اسم فعل مضارع بمعنى أتأوه . الموهون : الضعيف جد الضعف .

١٤ وصف الدرب بأنه مجنون على سبيل المجاز .

١٥ - المستغلق : المبهم . النجم : الكوكب . عيون : أى كالعيون الناظرة إليك المحدقة فى وجهك .

١٦ - هياكل : جمع هيكل وهو البناء القائم المنتصب فى الطريق ، ويطلق الهيكل على صدر المعبد،وعلى صدر الدابة .وعلى جسم الإنسان ونحوه أيضاً. وهياكل الأفكار مجاز أيضاً .

١٧ - تتردد : تتوالى وتهتز .

١٨ - غادرة : من الغدر وهو الخيانة والاحتيال والمكر والخداع . تنبح : من النباح وهو صوت الكلب . الرحب : المكان الواسع الفسيح تجرح : اى هذه الأصوات المنكرة الغادرة والمراد انها تؤثر فى قلبي .

٢٠ - أسمعها : أى هذه الأصوات . الدرب : الطريق الضيق .

٢١ — المعبر : ما يعبر عليه من قنطرة أو سفينة أو طريق أو غير ذلك ، ورجل عابر سبيل أى مار بالطريق . وعبر النهر : جانبه وشاطئه الآخر الذى يعبر إليه . السعلاة : بكسر السين : أخبث الغيلان . ترمق : تنظر بطرف خفى . الطيف : الخيال . الفتور : نظر فاتر : ليس بحديد الرؤية .

٢٢ — المفترق : مكان افتراق الطريق . المتشعب : الكثير الشعاب والطرق .

٢٣ — الأفق : المكان مجاز مرسل من باب الإطلاق والتقييد . المهجور : الذى هجره الناس .

٢٤ — الديجور : الظلمة . الصراخ . الصوت المرتفع .

الوحدة العضوية فى القصيدة :

(١ - ٤) تعبير رائع عن وحدة الشاعرة ، وعن قلقها النفسى العميق فى ليل هذه الوحدة المظلمة القاتلة .

(٥ - ٨) تعبير عن فقدان الشاعرة لعون إنسان أو أنيس لها فى كفاحها فى الحياة ، يدها لا ترجع إلا بحفنة من ظلام ، وسمعها لا يرجع إلا بقطعة من الأصداء الساكنة العميقة .

(٩ - ١٢) طريقها فى الحياة مملوء بالمجهول الذى لا تعرف سره .

(١٣ - ١٦) ثورة الشاعرة على وحدتها فى هذا الجو المشحون بأعمق المشاعر بالغربة والوحشة .

(١٧ - ٢٠) ابتهالها إلى القدر بأن ينقذها من هذه الوحدة .

(٢١ - ٢٤) صلوات ودعوات إلى القدر بأن يأخذ بيدها لينقذها من من مخالب أمواج الحياة العاصفة .

ومن ذلك نرى تسلسل الأفكار والمعانى فضلا عن تسلسل الأخيلة والصور والموسيقى فى بناء محكم يمثل الوحدة العضوية للقصيدة أروع تمثيل .

المضمون الشعرى فى القصيدة :

القصيدة رمزية ترمز بها الشاعرة إلى وحدتها فى الحياة ، فالدرب رمز للحياة ، وتخاطب فيها فى تصوف عميق حبيبها بأن يرعاها ويسمع ابتهالاتها وشكواها ، وأن يرحمها ويبعد عنها هذه الوحدة القاتمة القاتلة .

الشكل فى القصيدة :

والشكل هنا أو الأسلوب مغلف بضباب رمزى شديد .

وهو مملوء بالاستعارات البعيدة ، التى تزيد من رمزية القصيدة حدة وعنفا .

وبلاغة الأسلوب تتمثل هنا فى كثرة صوره البيانية ، وكثرة ترداد كلمات خاصة تزيد التجربة الشعرية عمقا وقوة .

التجربة الشعرية فى القصيدة .

تقف الشاعرة هنا أمام عتبة الأبد أمام الحياة نفسها وهى تجهل القدر المكتوب لها فيها ، وتقف الشاعرة بالوحدة العميقة المسرفة فى شدتها حتى لكأنها وحدة صاخبة .

تقف أمام ذلك كله موقف المبتهلة التى تطلب عون الحبيب ، ليقف معها ، وفى جانبها ، حتى تجتاز هذا الدرب الملعون الموحش المظلم القاتل ، درب الحياة التى تكافح فيها وحدها دون عون أحد من الناس . .

والتجربة هنا عميقة كل العمـــق وقد نجحت الشاعرة فى التعبير عنها كل النجاح .

الصورة البيانية فى النص :

١ — فى البيت الرابع : لم تحترق — أى صبابة لدمع الباردة — أى لم تتأثر باللهب المشتعل فى جوانح الشاعرة فى « تحترق » استعارة ، حيث استعير هذا الفعل للتأثر الشديد بما فى جوانح الشاعرة من غليان نفسى عميق ، وهى استعارة تبعية لوقوعها فى الفعل .

٢ — فى البيت الخامس : حفنة ظلماء : استعارة مكنية فى ظلماء حيث شبه الظلماء بالشيء اليابس الذى يغرف منه بالكفين ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل التخييل وهو « حفنة » .

٣ — وكذلك الأمر فى « بضعة أصداء » فى البيت السادس ففى « أصداء » استعارة مكنية ، و « بضعة » تخييل .

٤ — إغماء : فى البيت السابع ، أى سكون مطبق ، استعارة ، حيث شبه السكون المطبق بالإغماء الذى يلزمه فقدان الحركة تماما .

٥ — جاءت — أى الأصداء — فى البيت الثامن : استعارة مكنية ، حيث شبه الأصداء بالإنسان وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (جاءت) .

٦ — فى البيت التاسع : أستاره : أى الدرب ، استعارة مكنية ، حيث شبه الدرب أى الطريق الصغير الضيق بالشيء الذى يوضع عليه أستار (ستائر) ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو أستار ، ففى الضمير فى أستاره استعارة مكنية ، والأستار تخييل .

٧ — ثرثارة فى البيت العاشر أى هائجة ، ففيها استعارة ، شبه الهيجان وكثرة الحركة بالثرثرة وكثرة الكلام — وذلك لأن الشبح لا ينطق فهو صامت وليس متكلما .

٨ — الدرب المجنون فى البيت (١٤) : فى نسبته أى إسناد الجنون إلى الدرب مجاز عقلى ، لأن الطريق لا يوصف بالجنون ، وإنما الذى يوصف بذلك هم السائرون عليه مثلا - أو فى كلمة المجنون وحدها استعارة أى المجهول المعالم ، شبه اختفاء معالم الدرب بالجنون ، واستعارة الجنون لاختفاء المعالم واشتق منه مجنونا على سبيل الاستعارة التبعية .

٩ — النجم عيون فى البيت (١٥) : استعارة مكنية ، شبه النجم بالإنسان وحذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو « عيون » .

١٠ — هيا كل أفكار فى البيت (١٦) من إضافة المشبـــه به للمشبه - وكذلك : هيا كل ظنون .

١١ — أصوات . أى أصحاب أصوات . مجاز مرسل علاقته الجزئية ، عبر بالجزء وأراد الكل .

بلاغة القصيدة :

وبلاغة القصيدة هنا تتجلى فيما يلى :

١ — هذا الثوب الرمزى الذى أسدل على القصيدة .

٢ — هذه التجربة الشعرية العميقة التى تعبر عنها الشاعرة .

٣ — توفيق الشاعرة فى تعبيرها عن تجربتها الشعرية توفيقا كبيراً .

٤ — موسيقى القصيدة ، هذه الموسيقى الجميلة العذبة الرائعة الشبيهة بموسيقى لحن الابتهالات الصوفية الرائعة . وللوزن الشعرى (المتدارك) أثر كبير فى هذه الموسيقى .

٥ — تكرار بعض ألفاظ فى القصيدة مثل : ارجع ، مما يزيد من بلاغة القصيدة وحلاوة موسيقاها .

شعراء بائسون

— ١ —

ما أكثر البؤساء فى الحياة ؛ ممن أذاقتهم أحداثها وخطوبها الآلام والهموم ، وأصلتهم محنها وأحزانها الشقاء والبؤس والحيرة ؛ وممن اتسعت آمالهم وعجزت عن تحقيقها وسائلهم المحدودة . .

وشعور الإنسان بالألم هو سر بؤسه ، الألم لفقد عزيز ، أو أمنية ، أو نعمة ، أو لحرمان من خير كان يراه الإنسان وسيلته إلى السعادة . . ولكأنما خلق الألم مع الإنسان ، وسيظل رفيقه فى الحياة ، يقول ولى الدين يكن :

يريد النـــاس فى الدنيا هناء ويأبى أن يجود به الزمان
حياة حاربتهم منذ كانت وحظ حاربوه منذ كانوا

ويرى المعرى أن آلام الإنسان لن تنتهى إلا بانتهاء حياته ، فيقول :

متى غدوت ببطن الأرض مضطجعا
فثم أفقـــد أوصابى وأمراضى

وأن سجنه الذى يعيش فيه سيلازمه وان يخرج منه إلا بالموت :

متى ألق من بعد المنية أسرتى أخبرهم أنى خلصت من الأسر

أما إيليا أبو ماضى فقد هرب من شقاء الحياة ، وأخذ معه الشعراء جميعا إلى السماء ، حيث صور له خيال الشاعر ، أنه يستطيع أن يعيش فيها وأن يصبح صاحب النفوذ والسلطان فى كل ماينطوى عليه . . يقول من قصيدته « الشاعر فى السماء » :

رآنى الله ذات يوم فى الأرض أبـــكى من الشقاء

فرق والله ذو حنـــان   على ذوى الضر والعنـــاء
وقال ليس التراب دارا   للشعر فارجع إلى السماء
وشـــاد فوق السماك بيتى   ومد ملكى على الفضاء
فالتفت الشهب حول عرشى   وســـار فى عاتق الضياء
وسرت لا ينطوى صباح   إلا بأمرى ولا مساء
لكننى لم أزل حزينـــا   مكتئب الروح فى العلاء

وكذلك تصور ميخائيل نعيمة الشاعر فيضاً من الإله ، ليسرى بهذا الشعور عن نفسه أحزان الحياة ، فقال :

هل من الأمواج جئت
هـــل من البرق انفصلت
أم مع الرعـــد انحدرت
هـــل من الفجر انبثقت
أم من الشمس هبطت
هل من الألحـــان أنت
أنت فيض من إله

ويرى المتنبي أن البؤس والشقاء قديمان شائعان فى الحياة :

صحب النـــاس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم من شأنه ماعنانا
وتولوا بغصة كلهم منـــه   وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليـ   ـه ولكن تكدر الإحسانا

ومع ماوصل إليه من مجد وشهرة ومال ، فقد كان دائم الشعور بالحرمان ، يقول :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها   أني بمـــا أنا باك منه محسود

— ٢ —

ولقد واجه الشعراء الحياة — ككل الناس — بمسئولياتها وتبعاتها وأحداثها ، فنهم من حاول أن يسرى من همومه بنسيانها وكتمان مايحسه فى أعماق نفسه من أحزان ، فعاش بين الناس مغردا باسما ، محتفلا بالحياة ، مقبلا عليها ؛ ومنهم من لم يستطع أن يتخلص من الشعور بها ، فنظم الشعر فى الشكوى والحزن والألم .

وما أكثر الشعراء البؤساء فى كل أمة وكل عصر وجيل . . فهذا امرؤ القيس على شرفه فى المجتمع الجاهلى يقول فى همومه وأحزانه :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبـــه   وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح ، وما الاصباح منك بأمثل

وهذا النابغة الذبيانى الشاعر الجاهلى المشهور يقول كذلك يبث أحزانه ، مخاطباً حبيبته « أميمة » :

كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وكانت طبقة لشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى من أمثال : تأبط شرا ، والشنفرى ، والسليك ، وسواهم ، طبقة بائسة صورت همومها وبؤسها فى الشعر فأجادت التصوير . . وهل ننسى بكاء الخنساء على أخيها صخر قبيل الإسلام وبعد ظهوره :

تبكى خناس على صخر وحق لها   إذ رابها الدهر ، إن الدهر ضرار

أو دموع المحبين العذريين في العصر الأموي ، من أمثال المجنون وجميل وكثير ، الذي يقول في حسرة وألم في حبيبته عزة :

كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشي بها العصم زلت
وإني وتهيامي بعزة بعد ما ... تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وهذا أبو نواس يقول في مرارة وحسرة وشعور باليؤس والحرمان :

لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره

وهذا ابن الرومي يقول في رثاء ابنه محمد في حزن وألم عميق :

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي ... فجودا فقد أودى نظيركما عندي
ثكلت سروري كله إذ ثكلته
وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد

ويفلسف المعري ذلك فيقول :

تجربة الدنيا وأفعالها ... حثت أخا الزهد على زهده

ويقول في معرض آخر متشائما حزينا :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا

ويصور البحتري عزة نفسه في وسه فيقول :

صنت نفسي عما يدنس نفسي ... وترفعت عن جدا كل جبس
وتماسكت حين زعزعني الدهر التماسا منه لتعسي ونكسي
بلغ من صبابة العيش عندي ... طففتها الأيام تطفيف بخس

— ٣ —

وفى العصر الحديث تطالعنا شكوى البارودى فى منفاه ، وشعر حافظ فى البؤس وهو فى صباه ، وسخرية إمام العبد شيخ البؤساء . .

كما تطالعنا فى الشعر المعاصر آلام ناجى وأحزان أبى شادى قبيل هجرته إلى أمريكا وفى الفترة التى قضاها وهو مهاجر فيها (١٩٤٦ - ١٩٥٥) .

يقول الدكتور الشاعر إبراهيم ناجى فيما يقول من شعره فى تصوير شقائه بحياته :

حان حرمانى ونادانى النذير ما الذى أعددت لى قبل المسير
زمنى ضـــاع وما أنصفنى زادى الأول كالزاد الأخير
رى عمرى من أكاذيب المنى وطعامى من عفاف وضمير

ويقول الدكتور أحمد زكى أبو شادى وهو فى غربته :

بكى الربيع طروبا فى مباهجـــه وقد بكيت أنا حبى وأوطانى
أنا الغريب وروحى شاركت بدنى هذا العذاب بأشواقى وأحزانى
فيم العزاء ولا قلب ألوذ به ولا حنان يناجينى كتحنانى

ويقول رشيد أيوب يصور حيرته :

جئت يا بنى مثلما والدك المسكين جاء
جئت دنيا كلما محضتها زدت ازدراء
أغبياء قد أتينـــاها ونمضى أغبياء
ماطلبناها ولكن هكذا الخالق شاء

ويقول نسيب عريضة فى حياته وحياة طفله :

من الألحان لا أدرى سوى أنشودة الصبر

أغنيها من القهر لطفـــل بات جوعانا

ويقول إلياس فرحات :

ياعيد عدت وأدمعى منهلة والقلب بين صوارم ورماح
والصدر فارقه الرجاء فقد غدا وكأنه بيت بلا مصباح
يمشى الأسى فى داخلى متنقلا بين العروق كمبضع الجراح

ويقول ميخائيل نعيمة فى حيرة وأسى وحزن :

نحن يا ابنى عسكر قد تاه فى قفر سحيق
نرغب العود ولا نذكر من أين الطريق
وسنبقى نهجع الليـــل وفى الصبح نفيق
ربما نلقى جنـــانا ربما نلقى الطريق

ويصور إلياس فرحات معركته مع الرزق فيقول :

فلا تسألوا عنى وحظى فاننا لأمثال مافىالشرق والغرب مضرب
أغرب خلف الرزق وهو مشرق وأقسم لو شرقت كان يغرب
لئن غردت للشاعرين بلابل فإن غراب الشؤم حولى ينعب

— ٤ —

ونتنقل إلى أشهر الشعراء المعاصرين فى باب البؤس والحرمان ، وهما : الشاعران البائسان : عبد الحميد الديب ومحمود أبو الوفا .

أما الديب فشاعر ينبع البؤس من أعماق نفسه وينطق شعره بآلامه وهمومه . وقد كان أثراً لعصره ولحياته الشخصية معاً ، مما جعل منه شاعراً ساخطاً على الحياة ضجراً بها ، وهو امتداد لحافظ فى نقده الاجتماعى ، وفى تصوير بؤسه وحرمانه ، يقول فى الشكوى :

أمات محـــروم وذلة عافى وشقاء مغمور المواهب خافى

وأجوس جنات النعيم إلى العلا   فإذا بأرجاء الجحيم مطافى

ويقول يذكر حظه العاثر ، وحياته المكدودة :

أفنى صبوحى فى المنى وغبوقى   إنى امرؤ كسدت بقومى سوقى
لولا مناوأة الزمان لهمتى   أزرى بنور الشمس نور شروقى

ويعتب على أمته التى جهلت مكانته فيقول :

يا أمة جهلتنى وهى عالمة   أن الكواكب من نورى وإشراقى

ويصور المعركة بينه وبين دنياه فيقول :

أجدد للدنيا نشاطى وهمتى   فتنفحنى الدنيا شقاء مجددا

ويخاطب صاحبة المنزل وقد تأخر فى سداد ماعليه لها من أجرة فيقول :

يا ربة الدار لا ترثى لأرزاقى   قد قدر الله إسعادى وإملاقى
لم أشك جوعان أو ظمآن بل شغفا
فى رق سجنى إلى عتق وإطلاق

وأما محمود أبو الوفا الشاعر الكبير ، فقد قاده بؤسه إلى فلسفة ضخمة صورها فى شعره ، ونطقت بها قصائده ، بدأ معركة الحياة شابا شاعرا مكتمل المواهب ، ولكن يده لا تملك مايقيم أوده ، والمال والخير منه جد قريب ، فقال :

ياجنانا ليس لى فيها نصيب   وهى منى وأنا منها قريب(١)

كما كان الديب يقول :

على القرب منى كنز قارون ماثلا   ولما أنل منه سوى حرقة اليأس

---

(١) ص ٩٣ ديوان « شعرى » للشاعر محمود أبى الوفا .

وقال أبو الوفا كذلك :

أظماء وذلك النيـــل يجرى كوثراً فى سهولها والبطاح(١)

ويزيد تعجبه لأنه يريد ، ولا يملك ما يريد ، فيقول :

أريد وما عسى تجدى أريد على من ليس يملك ما يريد(٢)

ويقول فى فلسفة حزينة باكية(٣) :

أحب أضحك للدنيا فيمنعنى أن عاقبتنى على بعض ابتسامات

وتقطع رجله ، فيمشى ورجلاه فى القيود ، فيزداد بؤسه وألمه فيقول :

قضـــى زمانى على أنى أمشى ورجلاى فى القيود
حال بها فى خطاى يمشى ذل الأسير الخطى المقود
ويلاه مما لقيـــت منها وويلاه للسيـــد المسود
ظلم ولكن أنى قضـــاتى بل أين لى فيه بالشهود(٤)

وهذه القيود التى كرهها جعلته يتوهم القيود ويخـــاف منها ، حتى ليقول :

أصبحت من خوف القيود أخاف وسوسة القلائد(٥)

ويعلن سخطه على كل قيد يقيد الحياة فيقول :

هاج الجواد فعضته شكيمته شلت أنامل صناع الشكيمات(٦)

ومن أجل ذلك ثار على كل القيود ، وهوى عليها فى شعره بكل قوته

---

(١) ص ١٤٩ الديوان .
(٢) ٥٣ الديوان .
(٣) ص ٥٤ الديوان .
(٤) ص ٣٥ أنفاس محترقة للشاعر أبو الوفا ـ من قصيدته «قيود» .
(٥) ٥٦ ديوان شعرى .
(٦) ٢٤ أنفاس محترقة .

ليحطمها تحطيم الأوثان ، القيود فى شتى نواحى النفس والحياة والأعراف ، يقول(١) :

أطلقت نفسى من كل القيود ولو ... ملكت حطمتها تحطيم أوثان
إلا القيود التى قد صغتها بيدى ... فإنها عمل أو صنع وجدان

ويطيل الشاعر التفكير فى أمره ، بل فى مأساته ؛ ثم يلقى لومه على حظه فيقول من قصيدته «لن أسىء»(٢) .

لن أسىء الظن فيك أبدا ... فإذا شئت عطاء فامنعى
إنما اللوم على النحس الذى ... كلما أذهب ألقاه معى
لو خلعت الثوب أبغى غسله ... أقسمت شمس الضحى لم تطلع
لو طلبت النهر أروى ظمأ ... لاشتكى النهر جفاف المنبع
ولو أنى تلمس التبر يدى ... حول التبر ترابا إصبعى

وينتهى به الأمر فى غمرة الحزن واليأس والملل إلى أن يرثى نفسه فيقول :

فى ذمة الله نفس ذات آمال ... وفى سبيل العلا هذا الدم الغالى
بذلته لم أذق فى العمر واحدة ... من الهناء ولا من راحة البال
كأننى فكرة فى غير بيئتها ... بدت فلم تلق فيها أى إقبال
أو أننى جئت هذا الكون عن غلط
فضاق بى رحبه المأهول والخالى

ولم ينته ذلك بالشاعر إلى اليأس والملل . إنما العجيب فى الأمر حقا أن ينتهى ذلك بالشاعر إلى فلسفته العميقة التى أذاعها فى قصيدتيه الخالدتين

---

(١) ص ٤٥ ديوان شعرى .
(٢) ١٣٥ ديوان شعرى .

النشيد ، وعنوان النشيد ، وخلاصتها الإيمان بالقوة وإرادة الحياة ، وإنسان الفصل الخامس ، إنسان الذرة وعصر الفضاء . . وما أروع ما قال الشاعر الكبير أبو الوفا فى عنوان النشيد :

ليس كالقوة فى الدنيا فضيلة
هكذا قالت لنا الروح النبيلة
قلت يا روحى هل ثم وسيلة
لنلافى الضعف والضعف رذيلة

إلى آخر ماقال فى شعره المدوى الضخم ، الذى أدى به الشاعر حقا رسالته فى الحياة .

الربيع والشعر العربي المعاصر

١ ــ الربيع زهر ، وعطر ، وسحر .

في دفئه الجميل ، وشمسه المشرقة،وابتسامته العذبة ، وفي هدوئه وصفائه، وخضرته ومائه ؛ وفي إقباله وجماله ، ما أغرى الشعراء بالكلام ، وألهمهم روائع القصيد . . ولا عجب في ذلك فالطبيعة في كل زمان ومكان هي المثابة لروح الإلهام في الشعر ، وهي الموحية للشاعر بالكثير من ألوان الخيال والصور والمشاعر والخوطر والمعاني والآثار الأدبية . فالطبيعة تبحث ـ كما يقول بعض الفلاسفة ـ في الرجل عن صورتها ، والرجل يبحث في الطبيعة عن صورته ، والشاعر في قلب الحقـــل يهتز - كما يقول ميسترل - كما يهتز صدى الصوت وقد افتن الشعراء بالطبيعة ، وصوروها في شتى مشاهدها ، صورا تجمع غالبا بين صدق الأداء ، وحرارة الإحساس ؛ فما بالنا بالربيع وهو قمة كمال الطبيعة وجمالها .

وفي الشعر العربي القديم نجد شعراء يغنون في شعرهم للطبيعة ، ويحفل شعرهم بصورها . كأبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والصنوبري وابن وكيع التنيسي وابن حمديس الصقلي وابن خفاجة وسواهم ، وقد وصف الشعراء القدامى الربيع وجماله في قصائدهم ، وتعد من أجملها قصيدة أبي تمام التي يقول فيها :

يا صاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمساً قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

وكان لآذار مهرجان دائم ، وأعياد متصلة عند العباسيين .

٢ ــ وكما تحدث الشعراء العباسيون ، والشعراء في الغرب من مثل : رودزورث ، وشيلي ، وهاردي . وموراك ، وهوجو ، ولامرتين ،في وصف

الطبيعة والربيع والأزهار والريف ، تحدث شعراؤنا المعاصرون من أمثال : أبى شادى ومطران وشكرى وعلى محمود طه والهمشرى والشابى وأبو ماضى وسواهم ؛ وغنوا بالربيع وجماله ، والربيع دائماً يثير الشعراء ، ويوقظ مشاعرهم ، ويلهمهم روائع الآيات فى كل بيئة وعصر . ومن ثم نجد الربيع ماثلا فى الشعر المعاصر ، بكل فتنته وروعته ، وسحره وحيويته ، وإشراقه وخضرته .

ولافتنان الشعراء بالربيع ، سمى الكثير منهم دواوينهم به ؛ فهذا ديوان أطياف الربيع للدكتور احمد زكى أبو شادى ، والذى طبع عام ١٩٣٣ ، وهذا ديوان الربيع للشاعر المهجرى الكبير إلياس فرحات المطبوع فى سان باولو عام ١٩٥٤ ، وللشاعر العربى طاهر زمخشرى ديوان أحلام الربيع ، وديوان أنفاس الربيع ؛ وللشاعر العوضى الوكيل ديوان « أغانى الربيع » ، وللشاعر كمال نشأت ديوان : قال لى الربيع » . ولشاعر من شعراء الشباب ديوان أطياف الربيع(١) :

٣ — ويصور أمير الشعراء أحمد شوقى الربيع بمهرجان للجمال والصفو والصبوح والزهور ، فيقول من قصيدته الطويلة « الربيع ووادى النيل »(٢) :

آذار أقبل قم بنا يا صاح ... حى الربيع حديقة الأرواح
واجمع ندامى الظرف تحت لوائه ... وانشر بساحته بساط الراح
صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها ... فالصفو ليس على المدى بمتاح
واجعل صبوحك فى البكور سلافة ... للمنجبين : الكرم والتفاح
ملك النبات فكل أرض داره ... تلقاه بالأعراس والأفراح
لبست لمقدمه الخمائل وشيها ... ومرحن فى كنف له وجناح

(١) صاحبه هو الشاعر محمد فريد الباز .
(٢) ج ٢ ص ٢٣ الشوقيات ط ١٩٤٨ — شركة فن الطباعة .

إنى لأذكر بالربيع وحسنه　　عهد الشباب وطرفه(١) الممراح

ويسير على نهج أمير الشعراء الشاعر الليبى أحمد رفيق المهدوى (١٨٩٨ - ١٩٦١) فينظم قصيدته « جاء الربيع »(٢) التى عارض بها قصيدة شوقى ؛ ويقول فيها :

جاء الربيع فقم بنا يا صاح　　نلق الزمان يمر بالأتراح
فى موكب لبس الزمان شبابه　　واختال منه ببهجة ومراح
أيامه حور حسان أقبلت　　تهدى عروس الراح للأرواح
متع شبابك بالربيع فإنه　　عيد الزهور يمر بالأفراح

وفى هذا الإطار الفنى والتصور الجميل للربيع يحيى الشاعر محمود غنيم الربيع عيد الطبيعة ، ويذكر أنه أجل ملهميه بالشعر ، فيقول من قصيدته « موكب الربيع »(٣):

حى الربيع وحى عطر نسيمه　　والثم جبين الصبح فى آذار
عيد الطبيعة يحتفى وحش الفلا　　بحلوله ، والطير فى الأوكار
إنى لترهف فى الربيع مشاعرى　　ويدق حسى دقة الأوتار
ويزيد فيه بالجمال تدلهى　　وأنا امرؤ حب الجمال شعارى
متع فؤادك بالربيع فإنه　　لحن الزمان وبسمة الأقدار
إن الربيع هو الحياة وسحرها　　لولاه لم نحرص على الأعمار

٤ - ويخالف الدكتور أحمد زكى أبو شادى هذا المنهج الوصفى فى الحديث عن الربيع ، فيقول من قصيدته « ميلاد الربيع » :

---

(١) الطرف : الكريم من الخيل .

(٢) ج ١ ص ١٠٧ ديوان رفيق - مطبعة الرسالة ١٩٥٩ بالقاهرة .

(٣) ص ٢٨٠ - ديوان فى ظلال الثورة لغنيم - مطبعة دار المعارف بالقاهرة .

أمن العواصف والدموع   هذى الملاحة للربيع ؟
هذى الأشعة جسدت   فى كل حسن تستطيع
ياعين ما النبع الذى   غمر الجمال به الربيع ؟
جاءت به حور الجنا   ن وحاذرت ألا يضيع
أحلى التحايا للربيـ   ـع حياة ما يوحى الربيع(١)

ويعلل الشاعر المهجرى الكبير إلياس فرحات حبه للربيع هذا التعليل الجميل فيقول من قصيدته « حب الربيع »(٢) :

أحب الربيع وأيامه   وأهوى لياليه الضاحكات
فإن الربيع شباب الزمان   وأن الشباب ربيع الحياة

وفى أشعار الزهاوى(٣)، وحافظ جميل(٤)، وعلى محمود طه والهمشرى أوصاف جميلة للربيع .

٥ - ويجىء عبد القادر رشيد الناصرى بنغمة حلوة فى وصف الربيع فيقول من قصيدته « فى ارتقاب الربيع »(٥):

الربيع الربيع ملء ضلوعى   صلوات .. إلى ارتقاب الربيع
كلما مر طيفه فى خيالى   ظمئت مهجتى وجاعت ضلوعى

---

(١) ص ١٠ أطياف الربيع ط ١٩٣٣ .
(٢) ص ٢٢٨ ديوان الربيع - إلياس فرحات - سان باولو ١٩٥٤ .
(٣) ج ١ ص ١٤١ ديوان الزهاوى - طبع القاهرة - قصيدة الربيع والطيور.
(٤) ص ٢٢٧ نبض الوجدان ط ١٩٥٧ بغداد - مطبعة الرابطة - قصيدة حسناء الربيع » .
(٥) ص ١٨٦ ج ٢ ديوان الناصرى تحقيق الأستاذين هلال ناجى وعبد الله الجبورى .

لا أراني أعيش حتى أراه ومضات فى الخاطر المفجوع
موكبا إثر موكب تزرع السحـ ـر يداه مفاتنا فى الربوع
نافخا نايه يوشى الروابى بضروب من الجمال الوديع
كلما انثر ثغره سكر الورد ، وغنى الهزار فوق الفروع
وجرى الجدول الكسول يناغى بالهوى العف ظامئات الزروع
سائلينى عن الربيـــع فإنى أنا أدرى بسحر معنى الربيــع
ويحيـــل الحياة جنة شوق يرتوى زهرها بفيض دموعى

وهكذا عبر الشاعر العربى المعاصر عن الربيع فى شعره تعبيرا يتناول حينا مظاهره وألوان الجمال الذى أودعه . وحينا آخر سره وحقيقته وجوهره ، وحينا ثالثا مشاعر الإنسان وعواطفه وحبه ولهوه فيه . وحينا رابعاً وقف مبهوراً يتأمله دون أن يدرى ما يقول . وما أجمل ما يقول الشاعر العربى القديم ابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) فى وصفه :

حبذا آذار شهرا فيــه للنــور انتشـار
ينقص الليل إذا جا ء ويمتــد النهـار
نقشه آس ونسر ين وورد وبهـار
وعلى الأرض اخضرار واصفرار واحمرار

وليس من قصدنا فى هذا الحديث أن نضع كل هؤلاء الشعراء فى منازلهم الأدبية ، ولا أن نوازن بينهم موازنة تكشف عن الفاضل والمفضول ، ولكننا نستعرض هنا مناهجهم وطرقهم الفنية فى الحديث عن الربيع ، وجماله وسحره وروعته ، وذلك ما إليه قصدت . وما عنه تحدثت .

الفصل الثالث

خليل مطران شاعر القطرين

ومطلع مدارس الرومانسيين

١٨٧٢ — ٣٠ يونيو ١٩٤٩

تمهيـــد :

انبعثت من مصر حركة من أعظم الحركات الأدبية فى العالم العربى ، هى حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث .

وإذا كان محمود سامى البارودى باشا شيخ الشعراء ورائدهم قد أخذ ينهض بالشعر نهضة أحيت ديباجته ، وردت له مكانته وصولته ، فأرسله جزل العبارة فخم الاسلوب ، يأسر به الألباب ، ويسحر القلوب ، وطار به فى سماء العباسيين ، وحلق به فى أفق الجاهليين والإسلاميين ، ينسج نسجهم ، ويحتذى حذوهم ويعود به إلى بلاغة شعر القدماء ، ويحاكى فى نماذجه شعر أبى تمام والبحترى وأبى فراس ومهيار والشريف الرضى والمتنبى وأبى العلاء وغيرهم من أعلام الشعر العربى ، فكان فيه من أبى تمام وثبته ، ومن البحترى غنائيته وديباجته ، ومن المتنبى قوته وتدفقه وحماسته ، على شرف فى المعنى ، ونبل فى الغرض ، وسمو فى الخيال ، وحلاوة فى الموسيقى والقافية . فإن حركته التجديدية قد كانت بمثابة ثورة تجديدية كبيرة فى حياة الشعر العربى الحديث .

خلب شعر البارودى الألباب ، ونفذ إلى القلوب من كل باب ، ودل الناس على أسباب ذلك الفضل الذى جمعه لنفسه ، وأخذ الشعراء يحتذونه ويترسمونه ، ويحفظون قصائده ويعارضونها ، وأخذ الشعر يتحرر من قيوده وينطلق من أغلاله ، وينبذ ماضيه القريب الذى ورثه من شعراء العصر التركى ليرمى بنفسه فى أحضان الماضى البعيد القوى المزدهر ، حيث بلاغات الشعراء الأمويين والعباسيين والحمدانيين والفاطميين ومن إليهم ، وسار الشعر جزلا فخما شريف اللفظ ، مونق الأسلوب ، مشرق الديباجة ، متلاحم النسج غريب الموسيقى ، رصين القافية ، ترك المحسنات البديعية بضعفها وابتذالها ، وعاش فى عصر الكفاح القوى لبلاد العرب والإسلام ، هذا الكفاح الذى أوقد جذوته ، وألهب شعلته أبطال الحرية من أمثال : محمد عبده والكواكبى

وعبدالله النديم ومصطفى كامل وسعد زغلول والسيد المهدى السنوسى ، والسيد أحمد الشريف السنوسى ، والسيد محمد الإدريس السنوسى ، وعمر المختار وسواهم من الأحرار الصناديد .

وهكذا انتقل الشعر على يدى البارودى من طور إلى طور . ومن حال إلى حال ، وأخذ الشعراء ينظمونه فى الأغراض الوطنية ، وفى الدفاع عن الحرية ، وفى الحديث عن أمجاد الإسلام والمسلمين والشعوب العربية ، وفى إيقاظ العرب فى كل مكان من بلاد العروبة ، وفى الدعوة إلى الأخذ بأسباب النهضة والقوة والتقدم ، ونظموه فى السياسة والاجتماع والفلسفة ، وفى التعبير عن خلجات النفس ونوازع الوجدان وفى وصف مظاهر العمران والحضارة ، وفى وصف الطبيعة ، وأخذوا يتأنقون فى أسلوب القصيدة وألفاظها وقوافيها وأخيلتها ومعانيها ، ويحرصون على الوحدة العضوية والتجربة الشعرية فيها ، ويوائمون بين الشعر والشعور ، وبين الفكر والعاطفة وبين الحقيقة والخيال .

وأطلق على هذه الحركة من حركات التجديد فى الشعر الحديث اسم الحركة الكلاسيكية الأولى ، وزعيمها ورائدها هو رائد التجديد فى الشعر العربى الحديث ، محمود سامى البارودى ، الذى كان لشعره قبل الثورة العرابية وشعره بعدها وهو فى المنفى ، صدى عميق فى أذهان الشعراء فى كل مكان من بلاد العروبة .

وتتلمذت على شعر البارودى طبقات كثيرة من الشعراء ، وفى مقدمتهم شوقى وحافظ وصبرى ومحرم والكاظمى والرصافى والزهاوى والرافعى وأحمد الشارف وسواهم وأولئك هم الشعراء الذين لا يدفعون عن حياض الشعر فى قديم ولا فى حديث ، وإن لم يكونوا فى ذلك بمنزلة سواء ، وهم شعراء المدرسة الكلاسيكية الثانية أو المجددة ، التى ورثت مجد البارودى ومذهبه الشعرى ونزعاته فى التجديد .

وحافظ وشوقى والرصافى والزهاوى ومحرم طبقة أولى من طبقات

الكلاسيكية الجديدة أو المجددة ، هذه الكلاسيكية التي تتكون خيوطها من المحافظة على عمود الشعر وتراثه وعناصره ، مع التجديد ، في المعاني والأخيلة والموضوعات والأغراض ، ومع العذوبة في الأسلوب والجمال في الموسيقى، وصبغ الشعر بصبغة حضارية مترفة ، ومع الأخذ من ثقافات الشرق والغرب واتساع الأفق الفكري للشاعر في قصيدته ومع الأخذ بكل جديد مفيد من وسائل التجديد وأدواته ، وأساس هذه الكلاسيكية أسلوب ملتزم ومعنى جديد وأغراض نابعة من الحياة .

وإذا كان البارودي قد أعطى القصيدة من ذات نفسه وثقافته ، فإن هذه الطبقة طبقة شوقي وحافظ وأضرابها قد أكدت كل القيم الفكرية والفنية ، والأسلوبية للقصيدة الشعرية ، وجاءت بها على نهج أصيل يحتذى ، إشراق أسلوب ، ورقة ديباجة ، وتصاعد ألفاظ ، ونسجا عبقريا منمقا اقتنت في تحبيره كل أولئك الأيادي الصناع ، وكان شوقي شاعر العرب في الشعر الحديث، وشاعر مصر والعروبة والإسلام .وقد لقح شعره بالثقافة الإسلامية العربية ، ثقافة القرآن الكريم ، وبثقافات الشرق والغرب ، ونظم في مختلف الأغراض الجديدة ، وشعره الإسلامي والقومي والقصصي والتمثيلي وشعره في الحديث عن الآثار القديمة ، وفي وصف مظاهر المدنية الحديثة ووصف الطبيعة ، وفي الدعوة إلى الحرية ، مثل يحتذى ، وليس لشوقي نظير في جلالته وعبقريته وريادته .

وكان حافظ من مدرسة البارودي ، وأخذ عن أستاذه الإمام محمد عبده حب الوطن والحرية ، والدفاع عن الإسلام ، ونضال خصومه من المستعمرين فكان شاعر الشعب ، وشاعر الوطنية ، وشاعر الاجتماع .

وإذا كان الشعر عند شوقي فناً يتألق فيه الفكر والجمال والتجديد فقد كان عند حافظ منبرا يصيح من فوقه بأمته لتهب للحياة والكفاح متأثرا في ذلك بتعاليم أستاذه الإمام ، وقد أجاد حافظ في الحديث عن وطنه وعن نفسه جميعاً .

وشوقى فى مجمل شاعريته وآثاره مرحلة تقدمية فى الشعر ، ولقد أثبت بألمعيته وكفايته قدرة اللغة العربية على استيعاب المعانى العصرية فى أسلوب كلاسيكى ساحر ، يسرح فيه الخيال وتتألق فيه المعانى والصور وتمرح فيه الموسيقى ، فوق ما تبتكره من الشعر التمثيلى الذى امتاز بسمو الفن وبالحرية الفنية ، وبالذهن الشعرى الرفيع ، ولا يقاربه أحد فى هذا المضمار .

من حيث يمثل حافظ بشعره النزعة الإنسانية ، وأعظم ما يمثله حافظ هو مصر المناضلة ومصر العانية الحاضرة . التى أحبها من أعماق نفسه ، بينما كانت نزعة شوقى الإسلامية واضحة فى شعره ، متغلغلة فى روائع فنه .

والشعر الإسلامى والتمثيلى عند شوقى ، وشعر الوطنية والاجتماع عند حافظ ، ألوان جديدة لا نظير لها عند الشعراء المعاصرين .

وكان الزهاوى قريب النزعة من شوقى ، وإن كانت النزعة التأملية غالبة عليه ، والرصافى قريب المذهب من حافظ . أما محرم فكان فى شعره الكثير من خصائص شعر شوقى وحافظ جميعا .

وهكذا كانت الطبقة الأولى من شعراء الكلاسيكية الجديدة ، التى حافظت على موروثات الشعر ، ولم تأل جهدا فى البلوغ به إلى غاية الغايات فى التجديد والتطور والتهذيب وتقريبه إلى عقول الناس وأرواحهم وحياتهم .

ثم تجىء الطبقة الثانية من طبقات الكلاسيكية الجديدة ، وفى مقدمتهم الأخطل الصغير وعمر أبو ريشة والجارم والأسمر وعلى محمود طه والشاعر القروى وإلياس فرحات وإيليا أبو ماضى وشفيق المعلوف ورفيق المهدوى ومحمود غنيم وعلى الجندى ومحمد عبد الغنى حسن ومحمد الأسمر وسواهم .

وهؤلاء قد أعادوا للشعر العربى شبابه وجماله ، من حيث روعة الأسلوب وجمال الفن ، والتجديد فى المعانى والأخيلة والموضوعات والموسيقى فى

القصيدة مع التزام العمودية والتجربة الشعرية فيها وقد أدخلوا كثيراً من المعانى الجديدة فى القصيدة ، وطعموها بالجديد الطاريف من الأخيلة ، وفتحوا أبواب التجديد واسعة ضايقة على مصاريعها ، وقدموا للشباب نماذج تحتذى .

ورائد هذه الطبقة هو عزيز أباظة الذى يمثل فى الشعر المعاصر اليوم كل خصائص المدرسة الشوقية ونزعاتها وضروب التجديد فيها .

وإذا كان أمير الشعراء أحمد شوقى قد أحدث تطوراً جديداً فى فن المسرحية الشعرية ، حيث أصدر عام ١٩٢٧ مسرحية « كليوباترا » وأعاد كتابة مسرحية « على بك الكبير » ، وكتب مسرحياته : عنترة وقمبيز ومجنون ليلى فإن هذا الفن الشعرى الجديد قد انتقل مرحلة أخرى ، وخطوة جديدة ، بصدور العباسة وقيس ولبنى وغروب الأندلس وشجرة الدر وأوراق الخريف وأشباهها ، مما أكسب العربية منزلة عالية فى الآداب ، وأكسب الشعر مكانة رفيعة فى مجال التطور والتجديد ، ويؤيد عزيز أباظة المسرحية الشعرية ، ويعدها فن الحضارة المتجدد على مر الأيام .

والذين ينكرون على المسرح اصطناع لغة الشعر ، ويرون أن المسرحية لابد أن تكون نثرا مخطئين ، فقد استوى شكل المسرحية فى الأذهان على أنها لابد أن تكون شعرية فليس مسرحا ما ليس شعرا .

بل أن فكرة المسرح المنثور لم تطرأ على بال أحد ، وإذا كان النثر قد تسرب إلى المسرحية من خلال مسرحيات شكسبير أولا ، ثم من خلال مسرحيات بعض الرومانتيكيين من كبار الشعراء فى أوربا من أمثال ألفريد دى موسيه وغيره ، ثم على أيدى الكتاب الواقعيين ، فإن صلة المسرح بالمسرحية الشعرية ما تزال وثيقة ، وما زال الكتاب فى أوربا يكتبون للمسرح بالشعر ومنهم ت. اليوت ، وكريستوفر فراى ، وأدمون روستان وسواهم .

ولقد قامت بجانب المدرسة الكلاسيكية الجديدة بطبقاتها المتعددة وبما أحدثته من آثار ضخام فى حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث مدارس أخرى ، لا تنزع فى حركة القصيدة نحو التراث الشعرى القديم بقدر ما تحاول تقليد الشعر الغربى واحتذاء أصوله وعناصره .

ومن أشهر هذه المدارس المدرسة الرومانتيكية ، وأشهر أعلامها مطران وشعراء مدرسة الديوان وشعراء مدرسة أبولو ، وفريق من شعراء المدرسة المهجرية .

أما مطران فقد دعا إلى الحرية الفنية التى تحترم شخصية الشاعر واستقلال الفن عن الصناعة والأناقة الزخرفية ، ودعم وحدة القصيدة وأبرز كل شىء فى هذا الوجود ، صغيرا أو كبيرا ، ضئيلا أو جليلا ، موضوعا شعريا خليقا بعناية الشاعر ، وأهلا لتناوله الفنى إذا ما استطاع أن يتجاوب معه ؛ وطرق الموضوعات الإنسانية بدل الاقتصار على المواطف الذاتية ، وكان مطران يحتفل بالمعنى ويؤثره على اللفظ ، ونظم القصة الشعرية الرمزية والمتخيلة ، ويشبهه طه حسين بأبى تمام ، ويستجيد معانيه ، وإن كان يحتاط فى ديباجته التى رأى أنها مقصرة عن معانيه بعض التقصير .

وأما مدرسة شعراء الديوان شكرى والعقاد والمازنى فقد دعوا إلى شعر الوجدان ، وأكدوا وحدة القصيدة ، واحتفوا بالأخيلة والصور الجديدة والمعنى الشعرى ، سواء استمده الشاعر من الصيغة الخارجية أو من ذات نفسه العاطفية أو الفكرية ، فالشعر عندهم تعبير عن وجدان الشاعر ، ويذهب شكرى إلى التأمل الذاتى ، ونظم العقاد فى الجانب الوجدانى التأملى ، وقال فى كتابه الديوان الذى أصدره هو والمازنى : إن الشعر يقاس بمقاييس ثلاثة :

أولها : أن الشعر قيمة إنسانية ، قبل أن يكون قيمة لفظية ، فيحتفظ الشعر بقيمته إذا ترجم إلى لغة من اللغات .

وثانيها : أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه ، فالشاعر الذى لا يعبر عن نفسه صانع وليس ذا شخصية أدبية .

وثالثها : أن القصيدة ذات بنية حية وليست أجزاء متناثرة يجمعها الوزن والقافية .

وأغرب ما فى هذه المدرسة نقدها لشعر شوقى ، وفى رأيى أنه لم كن نقداً لفن شوقى بقدر ما كان نقداً لطبقة شوقى فى المجتمع ، ودفاع العقاد فى آخر حياته عن الشعر العمودى ، وعن لغة القرآن ، وازدراؤه لكل محاولات الشعر الجديد، مما يوضع فى ميزان حسناته عند الله ، ومما يرفع عن منزلته فى الفكر الشعرى الحديث .

وأما مدرسة أبولو التى كان رائدها الدكتور أحمد زكى أبو شادى فهى امتداد لمدرسة الرومانسيين فى الشعر الحديث ، وامتداد كذلك لمطران وفكره الشعرى ، وقد دعا أبو شادى إلى الأصالة والفطرة الشعرية ، والعاطفة الصادقة ، وإلى الوحدة التعبيرية ، والتناول الفنى السليم للفكرة والمعانى والموضوع ، ودعم وحدة القصيدة ، ونظم من الشعر القصصى والتمثيلى وشعر الطبيعة ، وإن كانت أخيلته وأساليبه قد طعمها بالكثير من الصور الغربية ، ومن مدرسته إبراهيم ناجى والصيرفى ومختار الوكيل وصالح جودت ومصطفى السحرتى وعبد العزيز عتيق .

وأما النزعة الرومانتيكية فى مدرسة المهجر فتتجلى واضحة فى جبران ونعيمة والريحانى وبعض شعراء المهجر ، ممن أكدوا الدعوة إلى التجديد وكتبوا القصة والمسرحية ونظموا فى شتى الأغراض الشعرية الجديدة ، وظهر فى نظمهم شعر المناجاة (أو الشعر المهموس) كما يسميه محمد مندور ، ونقلوا كثيراً من الصور والأخيلة الأجنبية إلى الشعر العربى وعنوا بالموسيقى الشعرية عناية كبيرة .

خليل مطران الشاعر

ثقافة مطران وشاعريته وتجديده :

اتصل مطران بالثقافة الأوربية اتصالا تاما ، وكان من مقومات تثقفه بالثقافة العربية أن مدرسه كان الشيخ إبراهيم اليازجى إمام اللغة فى عصره ، وعنه أخذ الأدب والثقافة العربية الخالصة ، على أن الشيخ إبراهيم اليازجى إن أزجى به إلى ميدان الأدب العربى البحت ، فقد كان اتصال الفتى بالآداب الفرنسية سببا فى أن تتفتح نفسه عن آفاق جديدة من الحياة والشعور لم يجد مايكافئها فى الأدب العربى الخالص ، ومن هنا اعتقد الفتى - وهو ابن ثقافتين - أن المستقبل فى الأدب العربى ، ليس للنماذج التى تذهب تحاكى طرائق القدامى فى المعانى والأشكال ، والمشاعر والصور ، وإنما للنماذج التى تعبر عن روح العصر وخلجاته ومشاعره واتجاهاته فى قالب عربى رصين .

وحاول مطران(١) أن يطرق الأدب والشعر على هذا الاعتبار ، كان العهد الذى أخذ فيه مطران ينظم الشعر من النهج الجديد ، شاهدا لو جبابرة العصر القديم ، فقد كان سريان الشعر - شعر الفحول المطبوعين من شعراء العربية الخلص فى العصر الأموى والعباسى ، والمشهود لهم بالسبق فى الشاعرية - بين أيدى المتأدبين ، على أثر قيام الطباعة فى الشرق العربى والاهتمام بطبع دواوين شعر الفحول ، كان ذلك سببا فى إحياء الشعر العربى وديباجته الجزلة ، وكان يساعد على ذلك إحياء اللغة العربية الخالصة من شوائب العجمة .

وكان كل هذا يمهد السبيل لتدور الشاعرية على الأغراض القديمة التى

---

(١) راجع : ديوان الخليل - أروع ماكتب مطران لمحمد صبرى .
خليل مطران لجمال الدين الرمادى - حياة مطران لطاهر الطناحى

دار عليها الشعر العربي القديم ، غير أن مطران الذي تفتحت نفسيته على آفاق جديدة من الحياة والشعور في الآداب الأوربية ، ولمس قوة حركة التجديد في الأدب التركي بجهود شناسي وضيا ونامق كمال وعبد الحق حامد ، أدرك أن الحياة التي تدور في عصره غير الحياة التي كانت تدور في العصور السالفة . وأن الأغراض التي يقول فيها الشعر شعراء العرب الأقدمون لا تلزم شعراء عصره ، وعلى هذا الأساس جعل الشاعرية شيئاً يدور حول روح العصر ، وجعل البيان الشعري شيئا مرنا ، وليس بالشيء الجامد الذي له رسم خاص ، بل يدور مع العصر ويتطـــور مع تطور الزمان وإن كان يتقوم بالمبادىء الأولى الثابتة .

ونظم مطران في الفترة التي انقضت بين عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٠ بعض القصائد على النسق القديم الذي كان شعراء العرب ينظمون الشعر على غراره . واكتسب شهرة واسعة في بيروت وكانت حاضرة من حواضر الأدب والعلم والفن في القطر السوري ولبنان ، ومن حواضر الثقافة في الشرق في ذلك العصر ، ولم يكن ينازع مطران الشهرة من أقرانه غير شكيب أرسلان ، وإلياس صالح . وفي صيف عام ١٨٩٠ خرج مطران من بيروت ووجهته باريس . ووصل إليها وأقام فيها ردحا من الزمن ، بعد أن عرج في طريقه إليها على الإسكندرية .

وكانت حياة مطران في باريس نشاطا متصلا ، وفي سبيل الدرس والتزود من آداب الإفرنج . ولقد اتصلت الأسباب بين نفس مطران في تلك الفترة وبين شعر « ألفرد دي موسيه » ، فقد فتن مطران ، وهو في عنفوان الشباب ، ومشاعره في فورة اتقادها ، بروعة الإحساس وعمق المشاعر التي يتميز بها شاعر الفرنسيين الرومانسي ، ومن هنا كان وقوعه تحت تأثير موسيه ، مما يظهر بعد في القصائد الأولى من ديوانه .

وكانت معرفة مطران بالتركية والانكليزية سببا في أن حاول الاطلاع

على آداب الأتراك والانكليز في لغاتهم الأصلية ، فقرأ لأعلام المدرسة الجديدة في تركيا ما كتبوه من الشعر وما أخرجوه من المسرحيات والآثار الأدبية . وتأثر بمطالعاته ، وعلى وجه خاص بآثار نامق كمال وناجى وأكرم وحامد من أعلام الأدب التركى ؛ كما أنه اطلع على آداب الانكليز اطلاعا سريعا في تلك الأيام ، وإن عاد إليها في الطور الثاني وأوائل الطور الثالث من عمره يمعن في مطالعتها ويحاول أن ينقل بعض روائعها إلى العربية وبخاصة روائع شكسبير ، وتبدو شاعرية مطران في الطور الأول — وإن كانت متقومة بطرائق القدامى في النظم - واضحة الخطوط ظاهرة المعالم . وأول شيء يطالعك من شعره مطاوعة الانفعال الشديد للاستجابة الهادئة التي تجعل الذهن مجالا للتدخل ، لتصفية ألوان الإحساس وضبط المشاعر والعمل على تناسب الخطوط بين الصورة من حيث كمالها وسكينتها وبين الأسلوب من حيث الوضوح والجزالة . . وطبيعة المعاودة من نفسه كانت تعطيه الوثبت للعناية .

ثم عاد الخليل إلى الإسكندرية ، وما بزغ فجر القرن العشرين حتى كان اسم الخليل قد لمع في سماء الشعر والأدب . وأنشأ مجلة الجوائب المصرية ، واشترك في تحرير المؤيد واللواء ، فكان صحفيا عف القلم طاهر السريرة ، وافتتح ابن بعلبك في الشعر العربي عصرا من التجديد ، بسمو المعنى وعذوبة العبارة وطرافة التصوير . يقول فيه حافظ : إنه على رأس أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد ، وصدعوا قيود التقييد ، وأوسعوا صدر الشعر العربي للخيال الأعجمي ، كما يقول فيه شوقي : إنه هو المؤلف بين الأسلوب الأفرنجي في نظم الشعر وبين النهج العربي ، فطران رائد مدرسة شقت للشعر طرقا وعرة ، أسسها على مواهب من دقة الفكر وإرهاف الحس وسعة الخيال ، وصدق العاطفة ، ما أنشد شعرا لا يجاوب شعوره الصحيح ، أو فكره السليم . تتجلى قوة صنعته في الجمع بين الفكرة الطريفة والعبارة المتينة أو الرشيقة .

ويقول فيه الدكتور طه حسين : عرفت مطران معجباً بشعره ، مؤثراً له على شعر المعاصرين جميعاً . وكنت أسمع شعره وشعر حافظ وشوقى . فأوثر شعر مطران فى وجه حافظ وشوقى ، لا أحتاط فى ديباجته ، التى كنت أراها مقصرة عن معانيه بعض التقصير ، وكان حافظ وشوقى يسمعان ويعرفان ولا ينكران ، وكنت أزعم لهما جميعاً أن مطران فى المحدثين كأبى تمام فى العصر القديم ، وأنهما وغيرهما من الشعراء يعيشون حول مطران كما كان شعراء العراق والشام يعيشون حول أبى تمام وكنت أهون على حافظ فاحدثه حديث البحترى حين قال فى بعض مجالسه وقد ذكر أبو تمام : إنه الأستاذ والرئيس والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد وكان حاضراً مجلسه : لله أنت يا أبا عبادة أبى الله إلا أن تكون كريماً من جميع جوانبك ، وكان حافظ رحمه الله إذا سمع منى هذا الحديث قال : ليكن مطران ما شئت فحسبى أن أكون كالبحترى . . . ثار على القديم منذ مطلع هذا القرن الميلادى ، وآمن بوحدة القصيدة ، وآثر العناية بالمعنى على الاحتفال باللفظ البراق ، ونظم القصة الشعرية الرمزية والتاريخية والمتخيلة . فى وقت كان هم وصفائه فيه التهالك على المديح المصطنع وتقليد القدامى فيما أتقنوه من الحفاوة باللفظ»(١).

وقد ولدت(٢) الرومانسية والرمزية الحديثة فى العربية على يدى مطران

---

(١) أصدر الدكتور محمد مندور عام ١٩٥٤ كتاباً عن مطران ، تحدث فيه عن حياة الشاعر وشخصيته ، وعن مقومات فنه ، وعن شعره الوجدانى والقصصى ، وعن شعره فى الوصف والتصوير ، وقد تناول كل هذه الموضوعات بروح الناقد . وللناقد مصطفى السحرتى دراسة عن مطران وشعره نشرت فى مطبعة المقتطف عام ١٩٤٩ بعنوان «خليل مطران الرجل والشاعر» .

(٢) مجلة الأديب عدد أكتوبر — من مقال الدكتور أحمد زكى أبو شادى .

قبل مطلع القرن العشرين ، وطلع مطران على الشعر العربي وخير ما ظهر منه حينئذ التجديد الكلاسيكي الذي أنجبه محمود سامي البارودي وشكيب أرسلان ، فأشرق بفنون من الشعر الأصيل تزينه إليهاروحه ومطالعاته العالية، وإن تلك تكن تلك المطالعات باللغة الفرنسية . ولازمه طول عمره حب الاطلاع الواسع هذا ، فانتظم المعرفة بآداب كثيرة من غربية وشرقية ؛ بله الأدب العربي الصميم القديم والمعاصر ، وهكذا مج للأدب الجديد من ألوان الرحيق الشهي ما أثر في جميع رواد الشعر الحديث على اختلاف مشاربهم ، بفضل هـــذا المرشد الملهم ، الذي كشف آفاقا جديدة من التأمل والإحساس والتصوف حتى استحق أن يدعى شاعر العربية الابتداعي الأول ، وما كان الشعر العربي في أي وقت فقيرا في المذهب الواقعي ولا في الحكم التجريبية والأمثال الفلسفية فلم يجيء مطران ولا أحد بعده ببدعة في هذا الباب ، اللهم إلا في أسلوب التناول الفني . وإنما جاء مطران وتلاميذه بما هو أعظم ، جاء مطران بمذهب الحرية الفنية الصحيحة التي تحترم شخصية الشاعر ، واستقلال الفن عن الصناعة والبهارج والأناقة الزخرفية وكل ما يفرض العبودية على الفن من ألفاظ وقيود اتباعية ، لا يحتملها الجمال المطبوع وأصالة الفن ، ودعم وحدة القصيدة وشخصية الشاعر ، وفتح له باب الحياة على مصراعيه ، كما أفسح له آفاق الخيال ، وأبرز له كل شيء في هذا الوجود ـ صغيرا كان أم كبيراً ـ كموضوع شعري خليق بعنايته وأهل للتناول الفني إذا ما استطاع الشاعر أن يتجاوب معه ، وحبب إليه الموضوعات الإنسانية بدل الاقتصار على العواطف الذاتية فحسب .

ويقول عنه الناقد مصطفى السحرتي : لقد عبر شعر مطران عن حياته وعن نفسيته تعبيراً صادقاً . فهو شاعر رومانسي يهيم بالحب هياما ، ويشغف بالجمال شغفاً كبيراً ، وتبدع ريشته في مجالي الألم أيما إبداع ؛ وقصيدته الوجدانية « مثال في مرآة »(١) مثال الرومانتيكية المبدعة ، موضوعاوأسلوبا،

(١) ديوان الخليل ـ الجزء الأول ص ١٨٢ .

لأنه أعرب فيها عن ألمه لموت حبيبته وبكائه عليها . وإنه ليقول فى طلاقة أسلوب وموسيقى مشجية :

كنا كغصنى دوحة نبتا … بل زهرتى عمر تعانقتا
بل حبتين بزهرة نمتا … وتساقتا لمــا تعاشقتا
يال الغرام مع الندى العذب

تمت سعادتنا على قدر … فسطت عليها غــيرة القدر
أودت معا بالعين والأثر … واستبقت الباقى من الخبر
ذكرى وتبصرة لذى لب

مطران أستاذ لأبى شادى :

ومطران كان أستاذ أبى شادى فى الشعر ، وأول ناقد لأدبه وهو صغير ، ويقول أبو شادى عنه : إنه لولا مطران لغلب عــلى ظنى أنى ماكنت أعرف إلا بعد زمن مديد معنى الشخصية الأدبية ، ومعنى الطلاقة الفنية ، ووحدة القصيد ، والروح العالية فى الأدب ، وأثر الثقافة فى صقل المواهب الشعرية(١) ، وكتاب أبى شادى : « قطرة من يراع » تجد فى الجزء الأول منه شعره التقليدى فى طفولته الأدبية من عام ١٩٠٤ — ١٩٠٧ ؛ وأما الجزء الثانى ففيه من شعره ما نظمه عام ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ متأثرا جد التأثر بتعاليم مطران الفنية وهو بدء نضوجه الشعرى(٢) وديوان أبى شادى « أنداء الفجر » فيــه الكثير من ألوان التجاوب مع أدب مطران ، فطلاقة التعبير وحرية التأمل . والاتجاهات الفكرية الجديدة ، كل هذه

(١) ص ١١٠ أنداء الفجر .
(٢) ١١١ المرجع .

تتمثل فى معظم مقطوعات الديوان وقصائده(١) التى ترجع إلى إيمانه بتحرير النظم ، كما آمن بتحرير النثر ، متأثرا بأدب الجاحظ قديما ، وبأدب مطران نفسه حديثاً .

وكان بدء صلة أبي شادى بمطران فى ندوة والده الأسبوعية الأدبية ، التى كانت تلتئم فى كل خميس بداره الكبيرة فى سراى القبة ، وكان مطران واسطة عقد الشعراء فى هذه الندوة ، فتعلق الشاب الناشيء بحبه(٢) ، ويحدثنا الشاعر أبو شادى بأنه كتب أول مقالة أدبية صحفية عام ١٩٠٥ على أثر حصوله على الابتدائية ، وأصدر عام ١٩٠٨ مجلته القصصية «حدائق الظاهر» ، وكتابه الأدبى الأول «قطرة من يراع» ، وأنه لو لا افتتانه بمطران لكان الأرجح أن لا تثور روحه الأدبية تلك الثورة ، ولما اجتذب عناية شوقى وحافظ به .. وكان الشاب يعجب بوطنيات حافظ وحماسياته الفياضة بأصدق الشعور ، ويسحره بساطتها وصدقها ، ويعتبرها منسجمة مع العناصر الشعرية العالية فى أدب مطران الذى رأى فيه مثله الأعلى ، ثم انفرد مطران بالتأثير فى نفسه وأدبه ، وإن كان الشاب قد أعجب بشعر أحمد محرم ومصطفى صادق الرافعى ، ويعد الأول فى شعره الوطنى والاجتماعى أسمى منزلة من حافظ فى جميع عناصر الشاعرية(٣) . ويحب فى الثانى الذكاء المتوقد الذى يكاد يفسد عليه عاطفته(٤) . وهكذا كان مطران أستاذ الشاعر الأول فى الشعر وثقافته ونقده ، وكان ديوانه «أنداء الفجر» مظهراً لهذا التأثر ، وفى هذا الديوان ، يقول مطران(٥) :

ديوانك الأول فتح له ما بعده فى عالم الشعر

(١) ١١٢ المرجع .
(٢) ١١٢ أنداء الفجر .
(٣) ١١٢ أنداء الفجر .
(٤) ١١٣ المرجع .
(٥) ١١٤ المرجع .

أبرع ما كان باطلاقه   مهدا للخلق الحر
أصعدت بالإلهام فيه على   أجنحة النسر إلى النسر

ويبسط أبو شادى شعوره الشديد بأستاذية مطران له فى الشعر فى «أنداء الفجر» إذ يقول(١) : فما نشوة الشعر المرسل ولا الشعر الحر ولا ما بلغناه من الحركة التحريرية للنظام . ولا ما نتناوله من الموضوعات الإنسانية والعالمية إلا الرقى الطبيعى لرسالة مطران . ولا يستطيع مطران ، أن ينكر ذلك ، بل هو يبارك بإخلاص هذه الجهود . ويقول . إن من أولى خصائص مطران التى تشبعت بها منذ حداثتى وجوب الاطلاع . وقد عكفت على الاطلاع الواسع منذ نشأتى حتى كنت أقلب الأغانى وغيره من أمهات الأدب العربى فى منتصف العقد الثانى من عمرى تقليب المستهام بها ، كما أن من أولى تعاليمه ترك الصنع وإرسال النفس على سجيتها إرسال المستعد المتمكن ؛ وقد علقت بهـــذه المبادىء وصبغتها وترعرعت فى نفسى وفى أدبى(٢) ، مؤثرا أداء رسالة (الشعر بالشعر للشعر) كما يقول . وهى التى يعتبرها مربية للمواهب الشعرية ضامنة لاستقلالها(٣) . فهو لا يعتمد إلا على القوة الشعرية فى ذاتها لاستهواء المشاعر حتى يؤدى الشعر رسالته ، من إعزاز الخير وتقديس الجمال(٤) ، وأبو شادى مؤمن بأن مذهبه هذا هو وحده التطور الطبيعى لمذهب مطران .

ومذهب مطران فى الشعر يجمعه قوله فى تصوير «ديوان الخليل» : «هذا شعر عصرى وفخره أنه عصرى ، وله على سابق الشعر مزية زمانه

---

(١) ١١٧ أنداء الفجر
(٢) ١١٩ المراجع .
(٣) ١٢٠ المرجع .
(٤) ١٢١ المرجع .

على سالف الدهر ، هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ، ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ؛ بل ينظر إلى جمال البيت ذاته وفى موضعه وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها، مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة ؛ وشفوفه عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر . . . على أنى أصرح أن شعر هذه الطريقة هو شعر المستقبل ، لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً ، .

وهذا هو بدء مذهب الشعر ونقده وفهمه عند شاعرنا أبي شادى ، وقد زاد عليه تطور لغته وأخيلته وتعابيره ومثله العليا ونفسيته وأفكاره ، وتجاوبه مع الطبيعة ، وكثيراً من الخصائص الفنية التى لا نستطيع تفصيل الكلام فيها فى هذا المقام . . ويقول أبو شادى(١) : وقد تعلمت من مطران احترام المذاهب الأدبية المختلفة واحترام النقد مهما حق لى أن أتشبث بآرائى الخاصة .

ولا شك أن نفسية مطران المتسامحة هى التى ألهمتنى حب الجمال على اختلاف صوره ، وكراهية الفردية ، فمذهب الفردية فى الأدب لم يؤمن به مطران بل كان ضده دائماً . . ولكل شاعر أن يطالع ، بل عليه أن يطالع ، وأن يهضم ما يطالعه ، وأن يتأثر بمن يعجب بهم ، ولكن عليه بعد هذا أن لا يسقط شخصيته ، وعليه أن يرسل نفسه على سجيتها ، وأن يعترف بفضل من تأثر بهم .. ويكرر أبو شادى رأيه توكيداً له فيقول : « إن الشخصية الفنية الحرة هى أهم ما يقدسه مطران وهى ما تعودت أن أقدسه فى ذاتى وفى غيرى ؛ وهذه الشخصية الحرة هى روح شعرى ، ولقد عشت وما زلت أعيش تلميذا

---

(١) ١٢٦ أنداء الفجر .

على الطبيعة وعلى الثقافة الإنسانية(١)، ومن هذا كله ندرك صدق ما يقوله الشاعر: إن أثر مطران فى شعرى هو أثر عميق لأنه يرجع إلى طفولتى الأدبية ويصاحبنى فى جميع أدوار حياتى، وإذا كان استقلالى الأدبى متجليا الآن فى أعمالى فهو فى الوقت ذاته يمثل الاطراد الطبيعى للمعالم الفنية التى تشربتها نفسى الصبية من ذلك الأستاذ العظيم.

ومن أجل ذلك كله، ومن أجل هذا التأثر العميق بمذهب التجديد الذى غرسه فى نفسه أستاذه مطران، ظل أبو شادى طول حياته يعلن الثورة على التقاليد.

ويدعو إلى الأصالة والفطرة الشعرية والعاطفة الصادقة، وإلى الابتعاد عن الافتعال والتكلف والتصنع، وإلى الوحدة التعبيرية، وإطلاق النفس على سجيتها. والتناول الفنى السليم للفكرة والموضوع والمعانى. وكلما طابق الشعر هذه المبادىء فهو فى رأيه شعر مقبول جميل كيفما كان قائله، والعصر الذى يعيش فيه ويرى الحكم على العمل الفنى والقصيدة الشعرية قبل الحكم على الشاعر نفسه، ولذلك كان أبو شادى أبعد الناس تعصباً لمذهب أو مدرسة أو عصر أو جماعة دون غيرها.

ويصور إيمان أبى شادى بالطبع والبساطة فى الشعر منذ نشأته ما يروى عنه من أن حافظا رآه مرة وهو فى صغره مع والده. فنصح والده ألا يشجع ابنه على قرض الشعر لما رأى عليه من اعتلال الصحة، قائلا له: إن فى المستقبل متسعا ومجالا. فكان جواب والده إنه لا يعرف عنه تعملا أو إجهاداً فكريا فى نظم الشعر.

---

(١) ١٢٨ المرجع السابق.

بين حافظ وشوقي ومطران :

كان العصر الحديث يزدان بشعراء موهوبين في الشرق العربي . . وكما ازدانت الهند بإقبال شاعر الإسلام . وتاغور شاعر العاطفة العالمي . كان شوقي شاعر القصر،وحافظ شاعر الشعب والقومية . والزهاوي المتوفى عام ١٩٢٦ شاعر الثورة على التقاليد والجمود . والرصافي (١٨٧٦ - ١٩٤٥) شاعر القومية العربية ، وصبري شاعر العاطفة الغنائية الرائعة،وحفني ناصف شاعر الآلام والأشجان والحنين إلى الوطن والدفاع عن المظلومين .

وقد اختلف الناس في حافظ وشوقي ، فرفع فريق من النقاد مكانتهما في الشعر المصري الحديث إلى القمة ، وأزرى عليهما فريق آخرون ، ومنهم العقاد والمازني وطه حسين.وكانت المنافسة على أية حال شديدة بين الشاعرين ، فلكل منهما أنصاره . وكان الناس يرون في شوقي أنه شاعر الرسميات والمجاملات ، ولكنه تغير بعد منفاه ونظم روائعه ومسرحياته الباقية . . أما حافظ فكان الجمهور يرونه شاعر مصر الوطني المعبر عن آمالها وآلامها ، يصور الجهاد الوطني ويستجيب له ؛ والكثير من النقاد يفضلون الشاعرين على مطران ، وإن تعصب لمطران دعاة التجديد ، ورفعوا من منزلته الشعرية، ونوهوا بروائعه في التجديد .

ويرى بعض الأدباء أن خليل مطران رأس حركة جديدة في تاريخ الآداب العربية.وأنه تحول بمجرى الشعر العربي من الذاتية إلى الموضوعية . فلقد تجرد عن ذاتيته ، ونظم في الأمور الموضوعية ، وكان شعره متحد الأجزاء كامل الوحدة . نقرأ قصيدة لخليل مطران ، فإذا بنا أمام فكرة استلهمها من التاريخ ، أو من حادثة شاهدها ، أو ذكرى مرت عليه ، فصاغها بخياله الواسع شعراً.وهو لا ينسى هذه الفكرة من أول القصيدة إلى آخرها، فهي في كل بيت من أبياتها ، فالقصيدة عنده وحدة كاملة . على أن خليل

مطران لم يشأ أن يقطع الصلة بينه وبين أسلافه ومعاصريه ، فنظم في التهاني والرثاء والمديح والتكريم أيضاً . والحق أن الإنسان مهما أراد أن يتجرد من ماضيه وحاضره فلا بد أن يؤثرا فيه شاء أم أبى .

ولما مات حافظ إبراهيم وأحمد شوقي كتب طه حسين يقول : إن إمارة الشعر الكبير قد انتقلت بعد وفاة الشاعرين الكبيرين من مصر إلى العراق . فهاج هذا القول أدباء لبنان ، وكتب أحدهم مقالا انتقد فيه رأى الدكتور طه أشد الانتقاد، وقال : كيف تنتقل إمارة الشعر إلى العراق وفي مصر مطران؟ فرد الدكتور على هذا الانتقاد بأن خليل مطران يختلف في شعره عن شوقي وحافظ ، وأن مذهبه في الشعر يباين مذهبهما فيه ، فمن الطبعي أن لا يكون خلفاً لشوقي في إمارة مذهبه . .

وللدكتور طه في شعر مطران رأى أكثر وضوحا قال فيه : « مطران ثائر على الشعر القديم ، ناهض مع المجددين ، وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ، ثم اضطر فعاد إليه ، وحاول أن يعود إليه مجدداً لا مقلداً ، وهو ينبئك بأنه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم لتتبين به مقدار ما وصل إليه من التجديد ، وهو متواضع لا يزعم أنه بلغ من التجديد ما يريد ، وإنما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف ، وإنما يعلن ثورته على القديم واغتباطه بالعصر الذي يعيش فيه ، وحرصه على أن يلائم بين شعره وبين هذا العصر ، وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وإنما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها في حرية ، كما يتأثر القدماء في إطلاق فطرتهم على سجيتها ، لا يكظم فطرته ولا يغشيها بالأستار الخداعة الخلابة . وله في جمال الشعر مذهب ، وإن لم يكن واضحا كل الوضوح ، ولا مبتكراً كل الابتكار ، فهو على كل حال مذهب قيم ، يمثل شيئاً من المثل الأعلى الفني في هذا العصر ، فهو يكره هذا الشعر الذي تستقل فيه الأبيات وتتنافر وتتدابر ، ويريد أن تكون القصيدة وحدة ملتئمة الأجزاء » .

وكان أبو شادى يجاهر بأنه يعد مطرانا زعيم المجددين وشوقيا زعيم الشعراء المحافظين ، وحافظا الشاعر الشعبي في عمود ثلاثة ، ويقول أبو شادى : « إن شوقيا مازال أرق شعراء العربية وأعذبهم أسلوبا . إذا ما أرسل شعره إرسالا . ويعترف بأن لشوقي أيادى سابغة على الأدب والتجديد دع عنك الجيد الممتع من منظومه الذى لا يخجلنا ترجمته إلى لغة أوربية . وإن كان ذلك في مقطوعات معينة في الغالب ، وإذا نظرنا إلى مطران وجدناه الشاعر المصرى صاحب الأوصاف والقصص والموضوعات الطريفة الباقية بجدتها ، الذى تتمثل دائما شخصيته في شعره ، ولا يتطرق إلى أدبه التكلف وحب المحاكاة والشغف بمعارضة القدماء ، ولمطران نزعة إنسانية عالية وإخلاص للأدب . فشعره شعر فنى وإنسانى وليس شعر اللغة العربية وحدها .

وأما حافظ فشعره شعر الجمهور والمجتمع . وقد عيب عليه هذا النوع من الشعر مع أنه لا غنى للمجتمع عنه في وقتنا هذا لاسيما في مصر والشرق العربي . ولن يعوق تفنن الشاعر إذا شاء ذلك وسمحت له مواهبه ، وأحسب أن حافظا بكسله وإصغائه للنقاد الجامدين هو الجانى وحده على شعره ، لأنه يلجأ كثيراً إلى اتهام ذوقه ، ويتخلى عن الكثير من شعره المطبوع المرتجل فتكون النتيجة تصنعا ونشلا في أكثر الحالات ، ولكن له مع ذلك حسنات معدودة .

وكان شوقى شاعر البلاط في زمنه ، وكان يتتلمذ على المتنبي ويحاكيه ويعارضه ويقتبس منه ، كما كان شعره مرآة للشعر الفرنسى ، ولم يكن يوما ما شاعر الشعب بالمعنى الصحيح كما كان حافظ إبراهيم ، ولم تكن له نفسية المتنبي بأية حال كما عرف وسجل ذلك المستقلون من معاصريه النقاد والأدباء والنزيهون . ولقد بزغ نجم شوقى في زمن تألق فيه نجم خليل مطران وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم بصفة خاصة ، فكانت لمطران مهمة مستمدة من الإنسانية أولا ومن القومية ثانيا ، إلى جانب شعره الوجدانى وشعر الطبيعة

المنوع ، وكانت رسالة إسماعيل صبرى وجدانية وطنية صرفة وأقلها الجانب الوطنى ، وأغلبها شعر العواطف المترفة التى لا تحمل أية رسالة فوق المتعة الموسيقية والأناقة الفنية للترويح عن النفس . وكانت رسالة حافظ وطنية سياسية شعبية إلى أبعد غاية. وإن حفظت له نماذج رائعة فى شكوى الزمان . وأما رسالة شوقى فكانت التغنى بمجد مصر ثم بتاريخ الإسلام والعرب ، تسعفه فى ذلك ثقافته التاريخية. ولا ريب أن شوقيا كان صادقا فى تاريخياته المتنوعة التى تجلت فيها عبقريته ولم يبذه أحد فيها . وتفوقه فى هذا المضمار جدير بالتمجيد والتبجيل .

وشوقى فى مجمل شاعريته وآثاره مرحلة تقدمية فى الشعر . ولقد أثبت بألمعيته كفاية العربية لاستيعاب المعانى العصرية فى أسلوب كلاسيكى ساحر يمرح فيه الخيال كما تتلألأ الموسيقى والمعانى وتتألق الصور فتنة للمارئين . وشعر حافظ الوجدانى يمثل إنسانيته البرمة بالمفاسد ، كما يمثل مرحه وظرفه. ومنه ما يمثل تعاطفه البشرى فى النكبات والأحداث العالمية . ولكن أعظم ما يمثله حافظ هو مصر التى أحبها ودللها وزجرها وأرشدها ودافع عنها ، وسخر من كل من حاول أن يثنيه عن إيمانه وجهاده بها أو أن يستحوذ على قيثارته حافظ هو مصر الباقية الحاضرة ، لا مصر القديمة التى احتفى بها شوقى أجمل احتفاء ، ولا مصر الإسلامية التى نافح عنها أحمد محرم ، فشاعرنا بإيمانه وروحه هو هو مصر البائسة الوجلة المستيقظة المترددة المتقدمة، هو مصر الشاعرة . لم تكن لحافظ ثقافة شوقى التاريخية أو الأدبية الأفرنجية ، ولكن طبع حافظ الشعرى كان أصيلا جذابا ، ولحافظ مفاتن وصفية وحكم سائرة. وكلها تشع بروح تقدمية جذابة ، وإن اتبع غالبا المنهج الواقعى فى عرضه(١):

(١) ٢١٥ و ٢١٦ رائد الشعر الحديث للمؤلف ـ الطبعة الأولى .

التجديد فى رأى مطران :

كان مطران يريد التجديد فى الشعر منذ نعومة أظافره ، ولقى دونه مالقى من عنت ، وبذل فيه مابذل من جهد ، عن عقيدة راسخة فى نفسه ، وكان يحلم بوقوع معجزة أدبية خالدة على يديه ، هى تحرر الشعر والتجديد فيه والنهوض به . . يقول مطران من كلمة عن مذهبه فى التجديد : « اضطررت مراعاة للأحوال التى حفت بها نشأتى ألا أفاجىء الناس بكل ما كان يجيش بخاطرى ، وخاصة الصورة التى كنت أوثرها للتعبير لو كنت طليقا . فجاريت العتيق فى الصورة بقدر ماوسعه جهدى وتحررت منه ـ وأنا فى الظاهر أتابعه ـ بنوع خاص فى الوصف والتصوير ومتابعة العرض . وبهذه الطريقة مهدت للجديد قبولا فى دوائر كانت ضيقة ، ثم أخذت تتسع إلى ماوراء ظنى . . ويقول : « أريد التجديد أكثر مما أردته فى كل آن ، أريده ولا أكيفه ، ولكنى أشم له بوارق تدل على ملامحه الكبرى من وراء مجهودات طائفة تتكاثر يوما فيوما ، ففى كثير مما يضع هؤلاء الموضعون فى طليعة النهضة أجد التفكير بمعناه البعيد الغور الثقيل التكاليف الذى هو منبع الابتكار . أجد ذلك التفكير يحل تدريجا محل الخيال المشتت الذاهب فى تشتيت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذى لا يصدر عن الحقيقة غالباً ، ولا يرجع إليها إلا بخيوط دقيقة أحيانا من أطرافه النائية . أتمنى كل التمنى أن تصبح لغتنا فى شعرها ونثرها صالحة لضروب التعبير السليم قاطبة ، وما أجدرها أن تبقى أم اللغات ، كما نقول مباهين . أريد أن أستطيع تصوير كل دقيق وجليل من معانى النفس تعميما أو تخصيصا ، أريد أن أستطيع الكتابة إلى أخى فى أى بلد عربى ، أصف له بلسانى العربى أى أداة نسيجا أو مادة بسيطة أو مركبة من أى جنس ومن أى لون ومن أى مزيج من الأجناس والألوان وأجزائها ، فيفهمه بعينه ، وفى الشعر خصوصا أريد أن أخرج من الابتذال وأن أغنى عن

طرق ماطرق ألف مرة لأعيش به عيشي فى زمانى ، وأبارى أو أجارى أسمى ماتضعه قرائح أعاظم الأدباء من الأجانب الذين أصبحت على اتصال روحى وذهنى دائم - بل غير منقطع دقيقة واحدة - بهم . أنا أريد أن تكون لغتى شريكتى رؤية وسماعا وشعورا تلقاء كل مايجد ، وأن تتناوله ، وأن تعيننى على الإفصاح عنه » .

كان مطران يريد أن يكون شعرنا مرآة صادقة لعصرنا فى مختلف أنواع رقيه ، ويريد أن يتغير شعرنا مع بقائه شرقيا ومع بقائه عربيا ، وهذا ليس بإعجاز . والتجديد كائنا ما كان لا يحيط بالمدى الواسع الذى يتشعب إليه التجديد فى رأيه .

وكان مطران صفحة من صفحات التجديد فى الشعر الحديث ، ومع أنه كان عمودى البناء الشعرى من حيث الشكل ، فقد كان رومانسى الموضوع والصور الشعرية . .

ودعوته المبكرة إلى التجديد خطت بالشعر خطوات واسعة ، فشمل التجديد كل جوانب القصيدة الفنية ، فصار تجديداً فى الألفاظ والأساليب والمعانى والأخيلة ، وتجديدا فى القافية حيث نظم الشعراء قصائدهم على طريقة الموشحات حينا ، وعلى نظام المقطوعات حينا ثانيا ، كما نظموا فيما بعد الشعر المرسل المتحرر من القافية مع محافظته على قيود الوزن .

ومن حيث الوزن الشعرى أخذ الشعراء يجددون فيه فنظموا من أوزان جديدة كما فعل البارودى فى قصيدته :

املأ القـــدح واعص من نصح

فقد جاء بها عن وزن فاعلن فعل ، ونهج شوقى نهج البارودى فى ذلك . وأكثروا من نظم المجزوءات والبحور القصيرة ، ونظموا كذلك من مجمع

البحور كما فعل إيليا أبو ماضى فى قصيدته « الشاعر والسلطان الجائر » ، ونظموا كذلك من أوزان جديدة كقول أبي شادى :

انتهب ياشعــاع نبض قلبى الحزين

فقال نعيمة على أثره :

سقف بيتى حـــديد ركن بيتى حجر

وقال الشابى :

اسكنى ياجراح واسكتى ياشجون

وقال ميشيل عفاق :

اعصـــفى يارياح واهزئى ياسماء

ولم يساووا أبيات القصيدة أحيانا فى عدد التفعيلات ، وذلك قريب من الشعر الحر . .

وشمل التجديد كذلك موضوع القصيدة الشعرية ، حيث نظم الشعراء المعاصرون فى الأغراض الجديدة :

١ — الشعر القومى . ومنه الشعر السياسى والاجتماعى والوطنى .

٢ — والشعر الدينى ، ومن أمثلته عمرية حافظ ، والبكرية للشاعر عبد الحليم المصرى ، والعلوية للشاعر محمد عبد المطلب ، ونهج البردة لشوقى .

٣ — والشعر التاريخى ، ومنه كتاب شوقى « دول العرب وعظماء الإسلام » .

٤ — وشعر التأملات الواسعة فى الكون والحياة والإنسان

٥ — والشعر الملحمى والقصصى والتمثيلى .

الفصل الرابع

الأدب المهجرى

١ — شاء الله أن يهاجر فريق من أبناء العرب من أوطانهم إلى العالم الجديد ، وأن يقيموا فى الولايات المتحدة أو كندا ، أو فى إحدى دول أمريكا الجنوبية ، وأول مهاجر عربى هو أنطون البشعلانى اللبنانى الذى هاجر إلى أمريكا الشمالية وأقام فى نيويورك عام ١٨٥٤، ومات فيها ، وتبعه أفواج من المهاجرين من سوريا ولبنان وفلسطين ، وكان بعض المهاجرين من الأدباء ، فأخذوا يعبرون عن مشاعرهم بالشعر أو النثر .. وأقدم أديب هاجر إلى هناك هو ميخائيل رستم والد الشاعر أسعد رستم ، وبعده الدكتور لويس صابنجى الذى نظم قصيدة فى نيويورك فى وصف السنترال بارك عام ١٨٧٢ . وقد تكاثر عدد المهاجرين بعد الثورة العرابية ، حيث سافروا إلى كندا وإلى الولايات المتحدة ، والبرازيل وشيلى والأرجنتين وغيرها من دول أمريكا ؛ وأسس بعض المهاجرين صحفاً عربية تنطق باللغة العربية، وأنشأوا الجمعيات باسمهم ، وكونوا كذلك جمعيات أدبية عدة .

وفى هذه الديار ترعرع أبو الأدب المهجرى أمين الريحانى ، وعميد أدباء المهجر جبران خليل جبران .

وقد سمى الأدب الذى نطق به هؤلاء المهاجرون فى هذه الأرض البعيدة « الأدب المهجرى » ، وهو أدب حديث النشأة ، ولد مع القرن العشرين ونما وترعرع حتى اليوم ، ومن أعلام الأدب المهجرى أمين الريحانى . ثم جاء جبران ، وميخائيل نعيمه وإيليا أبو ماضى ، والقروى وصيدح وفرحات وسواهم ، ممن نطق أدبهم باسمهم وعبر عن مشاعرهم ، وصور عواطفهم ، ووصف غربتهم وحنينهم والبلاد التى أقاموا فيها .

٢ — وقد قامت فى المهجر الأمريكى مدارس أدبية وشعرية حملت راية التجديد ودعت إليه ، ومن بينها :

(أ) الرابطة القلمية أنشئت فى نيويورك عام ١٩٢٠ ، ومؤسسها هو الأديب المهجرى الكبير عبد المسيح حداد صاحب جريدة السائح المشهورة، ومؤلف كتاب « حكايات المهجر » ولد عام ١٨٩٠ بسورية وهاجر إلى نيورك عام ١٩٠٧ ، وأنشأ جريدة السائح عام ١٩١٢ ، وكان يكتب فيها : جبران ، والريحانى ، ورشيد ، وأيوب ، وندرة حداد ، ويعملون بروح الأسرة الواحدة ، ثم استجابوا لدعوة صاحب السائح ، وأنشأوا الرابطة القلمية عام ١٩٢٠ التى يعد من أعلامها من الشعراء : نعمة الحاج ، وعبدالمسيح حداد ، ونسيب عريضة ، وميخائيل نعيمة ، وأمين الريحانى ، وأسعد رستم ، وإيليا أبو ماضى ، ومن كتابها من الشيوخ : نعمة الحاج ؛ ومن أعلامها الراحلين : جبران . ورشيد أيوب ، ورزق حداد وندرة حداد ، ونسيب عريضة ، ونعيمة أيوب .

(ب) العصبة الأندلسية وقد ألفت عام ١٩٣٢ ؛ أسسها الشاعر ميشال المعلوف ورأسها الشاعر القروى ، ثم شفيق المعلوف الشاعر ، ومن أعلامها : إلياس فرحات ، وفوزى المعلوف ، ورياض المعلوف وشكر الله الجر .

٣ — وقد نشأ الأدب المهجرى أول ما نشأ متأثراً بحركتين : حركة التجديد التى تزعمها مطران فى الشعر العربى منذ مطلع القرن العشرين وحركة البعث الأدبى الأمريكى المتجاوبة مع خير ما فى أوربا من الأدب ؛ واليوم يظهر الأدب المهجرى فى طابعه الإنسانى ذى الشخصية القوية الحرة ، وأدباء المهجر المثقفون موهوبون متعددون ، وإن لم يكن لهم اليوم شهرة من سبقوهم فى العقد الثانى من القرن العشرين ، ومع هذا فلهم آثار قيمة لامعة .

٤ — والأدب المهجرى أدب واقعى فى أكثره، يتجاوب مع الحياة والحضارة، وتبدو فى أكثر آثاره صفة التركيز ، ولقد تجاوب مع الحركة الاجتماعية

فى الشعر العربى الحديث التى مهد لها مطران ، والصوفية التى اشتهر بها أدب جبران قد انتهت الآن من الأدب المهجرى . وهو كذلك أدب ثقافى ناضج تقدمى كامل التفاعل مع الحضارة الأمريكية وهو أدب مشغول بالحياة وجميع مقوماتها متفاعل معها غاية التفاعل وجدانيا وفكريا بصورة إيجابية ويمثله أدب ميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد ، ولقد عرف أدباء المهجر كيف يستوعبون الروح الأمريكى بجميع خصائصه البديعة . . وقد تأثر الأدب المهجرى(١) بكل ما حوله ، فتناول الحيـــاة بكل ماتعنيه . تناولها فى القصص ، وفى المقالة ، وفى النقد ، وفى الشعر ، وفى الفن ، وفى المسرح ، وفى كل شىء وعرف هذا الأدب قيمة الوقت ونفاسة التركيز ، فتجنب الثرثرة والبهرج الكاذب والقشور وتعلق بالألباب الصريح ، وهو فى كل هذا يجارى الوسط الذى أنشأه التفكير الأمريكى والأسلوب الأمريكى خاصـــة .

ويتميز الأدب المهجرى كذلك بمـا اشتمل عليه من تحرر فى الصياغة وتنوع فى الموضوع ، ومن انطلاق فكرى .

وترى طابع هذا الأدب المهجرى فى كتابات أعضاء « الرابطة القلمية » بنيويورك ، وفى طليعة الأحياء ، منهم : عبد المسيح حداد ، وأما الشعر المهجرى فهو فى نظرنا دون النثر من ناحية التركيز فى كثير من النماذج العربية ، ولكنه ليس كذلك من نواحى الخيال والتحرر والتنويع فى الأساليب والموضوعات . فهى أكثر طلاقة من نظيرتها فى الشرق ولو أن كثيراً من شعراء العرب فى الشرق قد اختطفوا هذا القبس الغربى ؛ ونافس بعض شعراء المهجر فى التحليق وكأنهم من صميمهم . . والتحرر التعبيرى

---

(١) راجع رائد الشعر الحديث الجزء الثانى للمؤلف .

فى الشعر المهجرى أظهر ما يكون فى شعر نسيب عريضة وميخائيل نعيمة ، ومن شعر الأول قصيدته « النهاية » التى يرثى بها وطنه الأول ومواطنيه فى عهد مضى إبان الاحتلال الأجنبى؛ كما يقرع المهاجرين لتهاونهم وأنانيتهم.

وفى الواقع أن أدباء المهجر لا يقل اطلاعهم اللغوى عن اطلاع أقرانهم فى الأقطار العربية فإذا عمدوا إلى تعابير أو ألفاظ أو أوزان مستحدثة ، فإنما ذلك منهم تصرف الواعى البصير ،وقد يشتق بعضهم كلمات جديدة لاعتبارهم إياها أبلغ أثرا وأجمل موسيقية ،أو لغير ذلك من الاعتبارات ، بينما ينتقدهم الأدباء فى الشرق الذين يرون أن قيمة الأثر الأدبى تعتمد أولا وأخيراً على رسالته الرفيعة وبلاغة بيانه وجمال سماته .

وقد اتجه هذا التحرر التعبيرى البيانى إلى التجديد المستمر فى أصول البيان والصياغة والألفاظ . . وهذا إلى ما اتجه إليه هذا الأدب من تركيز بليغ ، وتجاوب مستمر مع الحضارة والحياة .

٥ — وقد تأثر بالأدب المهجرى كثير من الشعراء فى العالم العربى ومنهم الشابى والتيجانى وفدوى طوقان ونازك الملائكة ، فهذا اللون العاطفى الوجدانى الشعرى ، المتحرر من القيود الذى أنشأه أدباء الرابطة القلمية فى مهجرهم ، والذى استطارت شهرته فى الشرق ، قد أصبح عنوانا على مدرسة كبرى فى الأدب ، قلدها الكثيرون من الشباب وجروا فى ركبها .

ويعد أمين الريحانى (١٨٧٦ — ١٩٤٠) من رواد الأدب المهجرى ، وله مؤلفات كثيرة فى التاريخ والأدب،ومنها : ملوك العرب ، الشعر المنثور ، تاريخ الثورة الفرنسية ، والريحانيات .

٦ — ولاشك أن الأدب المهجرى قد أفاد الأدب العربى وضوح أثر ، وقوة تجديد ، وعرف هذا الأدب فى جملته بالاتجاه العاطفى والوجدانى

والتحرر من القيود ، وقد تأثر المهجريون بطاغور والخيام ، فجاء أدبهم مزيجا من الصوفية والروائية ، فيه الشرق والغرب ، أمريكا ولبنان وسوريا ، والنزعة الرومانسية واضحة فيه .

وقد نقد هذا الأدب عزيز أباظة بأنه لم يجدد شيئا ولم يضف للأدب العربي جديداً ، ولم يتبلور بعد ، ولم يتخذ صورة واضحة المعالم .

وينوه الدكتور محمد مندور بالأدب المهجري (١) ذاهباً إلى أن فيه خير ما في الشرق ، فيه تلك اللهفة الروحية التي وجهت أجدادنا . . فيه تطلع إلى المجهول وإحساس بالواقع . . فيه تلك الموسيقى الرتيبة التي تميز إحساسنا الشرقي .

ويذكر الشاعر المهجري الكبير جورج صيدح التجديد الذي قام به المهجريون ، وأنه كان في الموضوعات والفكرة ، وقد انعكس هذا التجديد في الأساليب ، وهم لم يخرجوا على البحور ، بل واصلوا رسالة الأندلسيين ، فنوعوا الموشحات ، وحملوها الفكر العميق ، وقد خلقوا الحوار في الشعر ، فكتب إيليا أبو ماضي المسرحيات والملاحم والمطولات ، كما كتب فوزي المعلوف « ملحمة على بساط الريح » وكتب شفيق معلوف ملحمة عبقر ، وميزتهم أنهم بعثوا الحياة في الكلمة وأنهم واقعيون لم ينفصلوا عن حياة المجتمع .

ودافع العقاد عن الأدب المهجري وقال : إنه ثمرة أربعين سنة ، وإنه ثروة وربح للغة العربية .

ويرى الدكتور أبو شادي أن الأدب المهجري لم يقطع صلته بالشرق وبالعروبة والإسلام ، فجميعها مؤثر عليه من النواحي العاطفية غالباً ، وهذه تشمل الوطن والدين والسياسة . . وأبرز ملامح الأدب المهجري عنده هو

---

(١) مجلة الثقافة — أبريل ١٩٤٣ .

تجربته وثقافته وإنسانيته ، وهو مزيج من الواقعية والرومانسية والرمز والسريالية .

الشعر المهجري وخصائصه

ميزة الشعر المهجري فى تحرره التحرر الذى يشمل الموضوع والصياغة والروح :

١ — فأما الموضوع فجد متنوع لأن الشعر العربى فى العالم الجديد ، كان ولا يزال مشكاة وضاءة هادية لنقاد العرب ، وشعرائهم المغتربين ، فألهم الأولين مقاييس جديدة فى النقد وألهم الآخرين الابتعاد عن التضييق والحصر ، مادامت موضوعات الحياة — وهى لب الأدب ومنه الشعر — لا حصر لها ، ولو أن مبلغ تجاوب النقاد والشعراء مع الأدب الغربى فى المهجر متفاوت ، كما هو الحال فى الأقطار المختلفة ؛ وتنوع الموضـــوع قلما يخص شاعراً بالذات . . فنظم جبران فى جملته محصور فى الرمزيات التصوفية التى تفادت مجابهة مشكلات الحياة ، وقد يمثل أحيانا رأيا فلسفيا شائعا .

٢ — فإذا انتقلنا إلى الصياغة الشعرية فإننا نجد تحررا فى التعابير ، حتى ولو كان الأسلوب كلاسيكيا أو أندلسيا أو بين بين ، وهو فى الوقت ذاته متين اللحمة وترى شعراء المهجر جريئين فى استعاراتهم ، حسنى التصرف فى أدواتهم البيانية من استعارة وتشبيه ومجاز الخ ، يعرفون قدر لغتهم ويحبونها ؛ ويرون من البر بها أن لا يقفوا معها جامدين ، والشواهد على ذلك عديدة ، لا فى الدواوين المطبوعة فحسب ، بل فى سواها من نشرات ومطبوعات ، وفى حلقات الأدب ، وفى الصحف المهجرية ، ونذكر على سبيل المثال للشعر المهجرى المتحرر قصيدة « أنا ابن عقيدتى » :

أنا ابن عقيدتى وسليل فكرى ولست بنت أرض أو سماء(١)

---

(١) راجعها فى الجزء الثانى من رائد الشعر الحديث للمؤلف .

وهى لأبى شادى من الشعر المرسل .

٣ — وأما التحرر فى الروح فأظهر ما يكون فى الولايات المتحدة الأمريكية ، لأن الحرية فيها شاملة بأوفى معانيها ، ولكل إنسان أن يعبر عن خوالجه كما يشاء ، وعلى هذا النحو أبدع المهجريون فى تصوير خوالجهم دون أى تحفظ ، وكانوا ألسنة للحرية وللكرامة الإنسانية ، ومن مثل ذلك قصيدة « أنا إن مت » للشاعر المهجرى الإنسانى ندرة حداد ، فهى دفاع حار عن النزاهة والحرية وكرامة الإنسان ، أى عن طابع الحياة الأمريكية الذى أعجب به ندرة حداد .

فالتحرر فى الشعر المهجرى يفوق فى جملته التحرر فى الشعر العربى فى أقطار كثيرة ، ومن ثمة كان جديرا بالبحث ، ليستمداد من قيمه الفكرية والروحية والبلاغية ، ومن نزعته الإنسانية الحسنة التوجيه ، والتى لاريب أنها تسهم فى صقل النفوس وفى تحرير الأذهان من قيود التقاليد البالية ، والدعايات الفاسدة .

وإذا تأملت مثلا فى ديوان الأيوبيات الصادر سنة ١٩١٦ وجدت رشيد أيوب على الرغم من رومانسيته الجديدة ، ومن الثقافة الفرنسية التى تغلغلت فيه حينئذ ، يعشق الواقعية ويبرزها فى أجمل صورة وصفية ، استمع مثلا إلى هذه الأبيات من قصيدته الجامعة « نيويورك »(١) :

بنوها بروجا خافقات بنودها على قمم باتت تعز على النسر
تضىء بها الأنوار ليلا ، كأنها تلوح لنا بين الكواكب والزهر
إذا لمحتها الشمس تبدو لناظر عرائس تجلى فى ثياب من التبر
وإن ضحك البرق الهتون مداعباً ذراها انثنى بين المخافة والذعر
تمر الرياح الهوج غضبى عواصفاً
على كل برج شامخ باسم الثغر

---

(١) ديوان « الأيوبيات » صـ ٩ .

كأن يد الأيام عنه قصيرة   وطرف الليالى تاه فى المهمه القفر
كأن بالصبواى(١) يوم تجمهرت   بها الناس خلت الناس فى موقف الحشر
تروح بها الكارات(٢) ملأى خلائقا   وترجع فيها مثقلات إلى الجسر
وما ضرها والكهرباء تجرها   وكم مثلها من فوقها قد غدت تجرى
عجبت لأرض كيف غصت بشعبها   وما برحت تلق النهافت بالبشر !
فيحسد من فى الظهر من سار بطنها   ويحسد من فى البطن من سار فى الظهر
ونهر تمر القاطرات بجوفه   يبيت خلى البال منشرح الصدر
حكى القبة الزرقاء تسرى بواخر   عليه بأنوار كأفلاكها تسرى
إذا اطلع الرعد الهتون بجورها   غضوبا أجابته البواخر فى النهر(٣)
تخاف اصطداما فى دجاه ، كأنها   تقول له : يارعد ، لا تعتمد ضرى !

ففى هذا الشعر تجد حرية التركيب وحرية استعمال الألفاظ فى معان جديدة ، وهذا ما كان يصنعه جبران خليل جبران ذاته على الرغم من ولوعه بالشعر الجاهلى وحفظه الكثير منه ، لحب الابتكار والتحرر اللفظى والبيانى من الصفات التى يتسم بها الأدب الأمريكى المعاصر وكذلك الأدب العربى المهجرى ، وشعراء المهجر هم شعراء مبتدعون ، ومن صفوة شعراء المعانى ، وإذا ما شغل بعضهم باللعب بالألفاظ وبالرنين صار غريبا عنهم وصار شعره عجيبا بين شعرهم ، فهو هش براق ، منمنم ، كبير الحجم ، ولكنه قليل المادة ، وهذا الضرب من الشعر يفرح به فى المهجر ذوو التعليم السطحى أو عامة الجوالى العربية ، ويفرح به فى الشرق طلبة المدارس .

---

(١) الصبواى : نفق للقطارات الكهربائية الجوفية .
(٢) الكارات : جمع الكار ، أى المركبات .
(٣) يريد نهر الهدسن غربى نيويورك حيث وقف الشاعر ينظم قصيدته .

والشعر المهجرى لم يقطع صلته بالشرق أو بالعروبة أو بالإسلام، بجميعها مؤثرة عليه من النواحى الروحية غالبا ، وهذه تشمل الوطن والسياسة والدين ، وتتجلى فى الموضوعات المعالجة ، ولعل رومانسية الشعر المهجرى مستوحاة فى بدايتها من الشرق ، من خليل مطران ، وكذلك الأساليب الكلاسيكية المجددة اتباعا لمدرسة البارودى ، ثم سرعان ما استقل شعراء الطليعة المهجريون بكل شىء تحت تأثير البيئة الأمريكية ، وأظهر مثل لذلك إيليا أبو ماضى فشعره الأول فى مصر وشعره المهجرى الأول غير شعره المهجرى الأخير بعد أن طال استيعابه لتيارات الفكر الأمريكى التى تلائم ذوقه وتعليمه ، ومع ذلك فقد كان يؤثر الموسيقى على عمق المعانى ، خلافا لنسيب عريضة وميخائيل نعيمة مثلا ، استمع إلى هذه الأبيات من قصيدته التى نظمها على لسان (لبنان) يخاطب بها المهاجرين(١) :

ياشاعرى ! قل للألى هجرونى	أنا مانسيتكمو فلا تنسونى !
مابالكم طولتمو حبل النوى	ياليت هذا الحبل غير متين
هل أنبتت (كالأرز) غيرى بقعة	فى مجده وجلاله الميمون
أرأيتمو فيها رأيتم فتنة	كالبدر حين يطل من (صنين) ؟

أو كالغزالة وهى تنفض تبرهـــا
عند المغيب على ذرى (حرمون)

أنتم ديون لى على (آميركا) ومن المروءة أن نرد ديونى
(لبنان) فيكم ماثل إن كنتمو
فى (مصر) أو فى (الهند) أو فى (الصين)

من حيث نجد نسيب عريضة لايرضى إلا التعمق ، فينشد بلسان(سورية) هذه الأهزوجة بموسيقاه الخاصة :

---

(١) ديوان الأرواح الحائرة ص ٨١ .

ياشاعر الأوطار حـــل الهيام !
قم حطم القيثار وانهض الحسام !
واصنع من الأوتار
قوسا لأخـذ الثار
واخلع قميص العار
والبس ردا الجبار !
ثاراتنا شتى عند الزمان
لا تمحى حتى تأبى الهوان
فـا نزل عن الأقدار
لا ترقب الأقدار
أشعل لدينا النار
واضرم بها الأفـكار !

ونجد الشاعر نعمة الحاج تدفعه وطنيته إلى أن يقول فى قصيدته « بلادى »(١) :

أنبكى ؟ وما يجدى البكاء ، وإنه لشر سلاح يحمل المرء مرغما
سلاح ضعيف العزم ليس بنافع ليدفع غرما أو ليجتلب مغنما
فلا قول إلا للحسام مجرداً ولا حق إلا للسنان مقوما
ويا حبذا يوم الجهاد ، فإنه ليطربنى فيه الرصاص مدمدما
أأبناء (سوريا) وهذا أوانـكم لـكى تظهروا للناس فى مظهر سما
أخاطبكم فى ذا المصاب ، وإننى لأكبر فيكم أن أخاطب نوما
كفانا اختلافا فى النوى ونكاية ألم تكـفنا الأرزاء أن نتعلما ؟

فهذه القصيدة هى من القصائد الوافية الـكلاسيكية الأسلوب العصرية

---

(١) ديوان نعمة الحاج ج ١ ص ١٠٠ .

الروح ؛ ويتمثل فى الشعر المهجرى الاطلاع والتفكير والشعور والأداء والنقد : فأما الاطلاع فقد بلغ شأوا كبيراً عند أمثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحانى ونسيب عريضة ، ولذلك تجد تعمقاً فى إنتاجهم نظما كان أم نثراً ، رغما عن اختلاف مناحيهم ، ولكنهم إجمالا أحفل من سواهم بالحياة ورسالاتها ، وكان كل منهم يبشر بهـا . وهذا التعلق بالمثالية نادر بين المشارقة العرب،فما أقل أمثال حافظ إبراهيم وجميل صدقى الزهاوى وأبى القاسم الشابى وأحمد محرم .

وأما التفكير فمجاله فى الشعر المهجرى فسيح بفضل الحرية الشاملة ، وهو تفكير حضارى تمتد جذوره إلى صميم المدنية الأمريكية وتمتد فروعه إلى جميع نواحى الحياة ، وتشمل الشعر كما تشمل القصة والمسرحية والمقالة والخطبة والبحث الاجتماعى وغيرها . وقد يتلون هـــذا التفكير بالنزعة الدينية التصوفية كما نقرأ فى قصيدة « سر معى » لندرة حداد(١) :

يا أخى الساعى لنيل المجد خفف عنك جمحك
أنت لا ترضى سوى نفسك إن أحرزت فتحك
سر معى فى الأرض تنس المال والجاه وطمحك
أنا راض بالعصا ، يا أيها الحامل رمحـــك
وسأرضى خبزك الأسود فى الحب وملحك
وسأنسى جرح قلبى كلما شاهدت جرحك
وأرى ليلك ليـــلى ، وأرى صبحى صبحك
وإذا أخطأت نحوى فأنا الطالب صفحك ؟

---

(١) ديوان أوراق الخريف . ص ١٧

على أن تفكير الشاعر المهاجر بل الأديب المهاجر عامة تفكير مزدوج ـ فشطر منه يخص مهجره، والشطر الآخر يخص وطنه الأصلى، وهو يوحد بينهما . فمن جهة نراه يستوعب مسائل محيطه الراقى ويتفاعل معها تفاعلا واقعياً وعاطفياً معاً ، غانما بذلك أى غنم ، ومغنيا أدبنا المعاصر الذى يتلقى تفكيره ، ومن جهة أخرى نراه على البعد لا يكتفى بحنينه الجياش إلى وطنه الأصلى بل يسهم فى معالجة مشاكل ذلك الوطن ، وقد يكون على البعد المكافح الرائد وحامل علم الثورة ؛ استمع إلى هذه الأبيات من قصيدة « حكاية مهاجر سورى »(١) لنسيب عريضة :

غريبا من بلاد الشرق جئت ... بعيداً عن حمى الأحباب عشت
اتخذت (أميركا) وطنا عزيزاً ... فكانت لى كأحسن ما اتخذت
أتاها للغنى غيرى ، وإنى ... كما جاؤوا مع الإقدام جئت
ولكنى طلبت بهـــا حياة ... مع الحرية المثلى فنلت !

ويغلب على قصائد شعراء المهجر الأمريكى الحنين إلى أوطانهم الأولى ، والتحرق لما أصابها من ضيم ، والدعوة للكفاح من أجلها وإلى جانب هذا نجد شعراء المهجر الأمريكى عامة . وعلى رأسهم رشيد سليم خورى (الشاعر القروى) ـ أحفل بقضايا العروبة والذود عنها ، فاعتزاز شعراء المهجر بالعروبة اعتزاز كبير عميق والمثل الواضح لذلك هو الشاعر القروى .

فنون الشعر المهجرى

نظم المهجريون الشعر فى كل غرض ، وجالوا فيه فى كل واد :

١ — نظموه فى الحرية التى شعروا بحقيقتها فى العالم الجديد . . يقول

---

(١) ديوان الأرواح الحائرة لنسيب عريضة ، ص ٢٦٧

الدكتور أحمد زكى أبو شادى وهو يستقبل العالم الجديد عندما هاجر إليه من مصر عام ١٩٤٦ :

أمانا أيها الوطن السعيد　　لقد دفن الردى ومضى الوعيد
فأمسى مأتم لفراق أهلى　　ويومى الحر فى نجواك عيد
عرفتك ملجأ الأحرار دوما　　إذا ما حورب الحر الشريد

٢ — ونظموه فى الحنين إلى الوطن الذى فارقوه ، يقول رياض المعلوف :

هل يا ترى نعود　　إليك يا لبنان
فتصدق الوعود　　ويسمح الزمان
فبلدى المهجور　　وكوخى الأخضر
أحلى من القصور　　والذهب الأصفر
هل يا ترى نعود　　إليك يا لبنان

ويقول رشيد أيوب :

أعلل نفسى إن سئمت بعودة　　ولكنها الأيام نبا لهـا تبا
فلله هاتيك الربا وربوعها　　فإنى قد ضيعت فى تربها القلبا
ويا حبذا ذاك النسيم فإننى　　لينعشنى ذاك النسيم الذى هبا

٣ — ونظموه فى الافتخار بالشرق والغرب ، يقول إلياس فرحات :

موطنى منبت الرماح وقومى　　موردوها الأضلاع والأصلابا
وهم الضاربون فى كل صقع　　للمعالى وللمعانى قبابا

٤ — ونظموه فى الابتهال إلى الله وفى تقديس أنبيائه ، يقول نسيب عريضة فى قصيدته « صلاة » :

أيا من سناه اختفى ... وراء حدود البشر
نسيتك يوم الصفا ... فلا تنسنى فى الكدر
أيا غافراً راحما ... يرى ذل أمسى وغد
معاذك أن تنقما ... وحلمك ملء الأبد
مراعيك خضر المنى ... هى المشتهى سيدى
وجسمى دهاه الضنا ... حنانيك خذ بيدى

٥ — ونظموه فى الكفاح فى سبيل الحياة . . يقول نسيب عريضة :

يا أخى يارفيق عزمى وضعفى ... سر نكابد، إن الشجاع المكابد
فإذا ماعييت تسند ضعفى ... وأنا بعد ذا لضعفك ساند
سر نقــــدم لكى نخط طريقاً ... لأباة الهوان عند الشدائد
فلنسر فى الظلام فى القفر فى الوحشة فى الويل فى طريق المجاهد

٦ — ونظموه فى وصف الطبيعة يقول إيليا أبو ماضى عندما وقف بفلوريدا يصفها قائلا :

سئلت ماراق نفسى من محاسنها ... فقلت للناس : باديها وخافيها
وماحببت من الأشجار؟ قلت لهم ... إنى افتننت بكاسيها وعاريها
وماهويت من الأزهار؟ قلت لهم ... الحب عندى لناميها وذاويها
قالوا : وما تتمنى ؟ قلت مبتدرا ... ياليتنى طائر أو زهرة فيها

ويقول ميخائيل نعيمة يصف الغاب وأشجاره وأطياره :

أشجار الغاب تحيينا ... وطيور الغاب تناجينا
وزهور الغاب تصالحنا ... ونصالحها وتهنينا

٧ — الحيرة والتساؤل والتأمل، وهو فن ضخم من فنون الشعر المهجرى، يقول إيليا أبو ماضى من قصيدته « الطلاسم » يتساءل عن نشأة الحياة وسر الوجود ولغز الموت ومعجزة الفناء :

جئت لا أعلم من أين ، ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قـــدامى طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ـ لست أدرى

ويقول الأستاذ رشيد أيوب :

وجئت إلى البحر عند المسا وللموج عندى غرام شديد
فقلت بربك : ماذا عسى تقول نفسر معانى النشيد
فقال : أأنت عديم البصر فإنى أحيي مرور الزمان

ويقول أبو ماضى أيضاً :

يريد الحب أن نضحك فلنضحك مع الفجر
وأن نركض فلنركض مع الجدول والنهر
وأن نهتف فلنهتف مع البلبل والقمرى
فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث أو يجرى

٨ ـ ونظموه كذلك فى البكاء والألم ، يقول أبو شادى :

بكى الربيع طروبا فى مباهجه وقد بكيت أنا حبى وأوطانى
أنا الغريب وروحى شاركت بدنى
هـــذا العذاب بأشواقى وأحزانى
فيم العزاء ، ولا قلب ألوذ به ولا حنان يناجينى كتحنانى ؟
لى فى ثرى « مصر » دمع نائح ودم
أذيب من مهجتى اللهبى ونيرانى
تركته مثل غرس الحب ماذبلت أزهاره أو أغاثت روح لهفان
أشمها فى اغترابى حـــين تلذعنى
ذكرى الشباب وذكرى عمرى الفانى

ويقول إلياس فرحات :

يا عيد عدت وأدمعي منهلة ... والقلب بين صوارم ورماح
والصدر فارقه الرجاء فقد غدا ... وكأنه بيت بلا مصباح
يمشي الأسى في داخلي متغلغلا ... بين العروق كمبضع الجراح

٩ — والقصة في شعر الشعراء المهجريين فن من أهم فنون شعرهم ، القصة التي تتناول كل أحداث الحياة ، القصة الشعرية التي تصور كل ما رق وجل من أمور الوجود . . والقصة الشعرية التي نظم فيها من شعراء المشرق : مطران والرصافي وحافظ إبراهيم وشوقي وإلياس أبو شبكة وخليل شيبوب وبشارة الخوري . . نظمها شعراء المهجر وصوروا فيها حيرتهم وتساؤلهم ، وألمهم وأملهم وبكاءهم وفرحهم . نظمها إلياس فرحات ورشيد أيوب وأبو شادي وإيليا أبو ماضي ، والشاعر القروي رشيد الخوري وفوزي المعلوف وشفيق المعلوف ، وقصيدة إيليا أبو ماضي « الشاعر والسلطان الجائر » مشهورة ، ويقول أبو ماضي في قصيدته « الشاعر في السماء » :

رآني الله ذات يوم ... في الأرض أبكي من الشقاء
فرق والله ذو حنان ... على ذوي الضر والعناء
وقال : ليس التراب داراً ... للشعر ، فارجع إلى السماء
وشاد فوق السماك بيتي ... ومد ملكي على الفضاء
فالتفت الشهب حول عرشي ... وسار في طاعتي الضياء
وسرت لا ينطوي صباح ... إلا بأمري ولا مساء
لكنني لم أزل حزينا ... مكتئب الروح في العلاء
فاستغرب الله كيف أشقى ... في عالم الوحي والسناء
وقال : مازال آدميا ... يصبو إلى الغيد والطلاء

إلى آخر هذه القصيدة الشعرية الطويلة .

الشعر فى رأى المهجريين :

المهجريون يؤمنون بالتجديد فى الشعر ، ويرون الشعر صورا شعرية حية متحركة نابضة بالحياة ، وموسيقى متوثبة رفافة تحرك كل شىء فى عقل الإنسان وفكره ، ومعانى جميلة بديعة لا يطغى عليها الأسلوب ، يقول أبو ماضى فى مطلع ديوانه « الجداول » :

لست منى إن حسبت الشعر ألفاظا ووزنا
خالفت دربك دربى ، وانقضى ما كان منا
فانطلق عنى لئــلا تقتنى هما وحزنا
واتخذ غيرى رفيقا وسوى دنياى مغنى

ويمثل رأى المهجريين فى التجديد فى الشعر قول شعراء الرابطة القلمية: « إن هذه الروح الجديدة التى ترمى إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار ، فى جميل الأساليب والمعانى ، لحرية فى نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهى أمل اليوم ، وركن الغد » .. وعناية المهجريين بالصياغة والأسلوب واضحة فى شعرهم تمام الوضوح ، وحرصهم على اللغة باد ظاهر . ولقد افتن شعراء المهجر فى الأوزان الشعرية ، فمال أكثرهم إلى الموشحات ، واختاروا قصار البحور ذوات الموسيقى الجميلة والنغمات الحلوة ، وخاصة البحور المجزوءة . . يقول رياض المعلوف من قصيدته (ليلة الأحد) :

يا مرهقا كبدى خفف ولا تزد
أتظل مبتعــدا عنى وعن بــلدى
يا حسن موعدنا فى ليلة الأحــد
من بعــد فرقتنا شهرين بالعــدد
ولنا المنى ضحكت بسعودها الجــدد

شفتاك طوع فمى ويداك طوع يدى

وقد نظم بعض المهجريين من الشعر الحر ، وزعيمهم فى ذلك هو جبران . وأدى نظمهم منهم إلى محاولتهم التفلت من القيود الشعرية . وساق بعضهم ذلك فى تيار من التسمح اللغوى وعدم المبالاة وارتكاب الضرورات التى لا يلجأ إليها الشعراء المحافظون إلا كارهين . وقد نظم أبو ماضى قصيدته « الشاعر والسلطان الجائر » ، من عدة بحور . وسمى المجددون هذا « مجمع البحور » ، وقد سادت النزعة الرمزية فى شعر المهجر ، وتجلت هذه النزعة فى شعر كثير من الشعراء المهجريين وعند جبران بصفة خاصة .

رأى أدباء المشرق فى الشعر المهجرى :

١ — أخذ الدكتور طه على إيليا أبى ماضى لغته التى تقارب الرداءة أحيانا حتى توشك أن توغل فيها إيغالا ، وإيليا زعيم من زعماء شعراء المهجر ، فما بالك بغيره من الشعراء .

٢ — ويقول عزيز أباظة فى تصديره الذى قدم به كتاب الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن وهو « الشعر العربى فى المهجر » :

« ثار جبران وطائفة معه على موسيقى الشعر ووجهوا طاقتهم الفنية إلى الابتداع فى النثر(١) . . والذى يؤخذ على شعراء المهجر أنهم لم يتعاطوا الفن التمثيلى فى الشعر ، ولم يزاولوا مهنته ، ولشعراء المهجر صناعة بيانية ربما ازورت قليلا عن الذوق العربى السليم . . على أن شعراء المهجر لم يفتحوا آفاقا جديدة فى الفن .. والأدب المهجرى لم يتبلور بعد ، ولم يتخذ

---

(١) وهو ما يسمى نثرا شعريا ، أو شعرا منثورا ، ويسمى المجددون الكثير منه بالشعر الحر .

له صورة واضحة المعالم بحيث يفرد له أثر بعيد المدى فى تطور الأدب العربى المعاصر » .

٣ ــ ويأخذ صلاح لبكى الأديب اللبنانى على شعراء المهجر ـ كما ذكره فى كتابه « لبنان الشاعر » ـ العيوب الآتية :

١ ــ جمال المرأة ظل غائبا عن الشعراء المهجريين باستثناء جبران .

٢ ــ عنوا بالصورة الشعرية ، أى باللفظة التى تتجسد صورة ملموسة ، وأهملوا طاقة اللفظة الإيحائية التى قام عليها مجد المدرسة الرمزية .

٣ ــ الشاعر المهجرى يهمس ، ويفسر ، ويوضح ، ولكنه لا يومىء ولا يوحى .

٤ ــ والشاعر المهجرى يضحى بالمبنى من أجل سلامة المعنى وينحط أحيانا إلى مستوى النثر الردىء .

٥ ــ الضعف اللغوى الملحوظ عند الشاعر المهجرى . . ويؤيد هذا ميخائيل نعيمة .

بعض أعلام الشعر المهجرى :

١ - جبران خليل جبران (١٨٨٣ — ١٩٣١) :

هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٩٥ ، كان باكورة إنتاجه الأدبى كتابه « الموسيقى » الذى أصدره عام ١٩٠٥ ، ثم أخرج كتبه : عرائس المروج ، الأرواح المتمردة، والأجنحة المتكسرة ، وأصدر ديوانه الشعرى الوحيد « المواكب » . وظهر له عام ١٩٢٠ كتاب : العواصف ، وكان آخر كتاب ألفه بالعربية . وأذيع كتب جبران هو كتابه « النبى » . ولجبران فضل تأسيس « الرابطة القلمية » عام ١٩٢٠ بنيويورك . . ويعد من الفلاسفة المفكرين ومن الشعراء الملهمين .

ومن شعره قوله :

هو ذا الفجر فقومى ننصرف   عن ديار مالنا فيها صديق
ماعسى يرجو نبات يختلف   زهره عن كل ورد وشقيق
قد كفانا من مساء يدعى   أن نور الصبح من آياته

٢ — ميخائيل نعيمة :

ولد فى لبنان ، وهاجر عام ١٩٠٢ إلى فلسطين ، ثم سافر إلى روسيا ، فأمريكا عام ١٩١١ ، وانضم إلى الرابطة القلمية ، ومن أشهر كتبه : الغربال وكتابه عن جبران خليل جبران ، ودروب ، وزاد المعاد . . وهو الآن يعيش فى لبنان

ومن شعره قوله :

هل من الأمواج جئت
هل من البرق انفصلت
أم مع الرعد انحدرت
هل من الفجر انبثقت
أم من الشمس هبطت
هل من الألحان أنت
أنت فيض من إله

٣ — الشاعر القروى :

ولد فى سوريا عام ١٨٨٧ م وهاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٣ ، وأصدر عام ١٩٣٦ ديوانه « الأعاصير » . . وفى عام ١٩٤٧ طبع كراساً يحتوى على ثلاث قصائد « اللاميات الثلاث » ، وفى عام ١٩٥٣ طبع ديوانه الضخم «ديوان الشاعر القروى » .

وعاد منذ عام إلى سوريا ، حيث أقام فيها بعد غربته الطويلة . وأهدته حكومة الجمهورية العربية المتحدة أرفع أوسمتها ، وقررت طبع ديوانه .

ومن شعره قوله :

مررت بأترابي العابسين فلم ألق إلا العبوس الوقورا
فلت إلى الحقل حيث الصغار تناغى الطيورا وتجنى الزهورا
فهل صار كل رفاقى كهولا وهل أنا وحدى ظللت صغيرا
فأسمعنى الطير عند الصباح جواب الطبيعة لى تنشد
بنى ولدتك طفلا جديداً فقل للرفاق الألى تمهد
لقد ملأ الأرض أولادكم وأنتم إلى الآن لم تولدوا

٤ - إلياس فرحات(١) :

ولد عام ١٨٩٣ فى لبنان ، وهاجر عام ١٩١٠ إلى البرازيل ، وظهر ديوانه عام ١٩٣٢ فى مدينة سان باولو بالبرازيل . . ثم طبع شعره كله فى أربعة دواوين هى : الربيع - الصيف - الخريف - رباعيات فرحات . . وأشهر قصائده « خصلة الشعر » التى يقول فيها :

خصلة الشعر التى أعطيتنيها عندما البين دعانى بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها وسأتلوها إلى اليوم الأخير

ومن شعره :

فر عصفور شبابى من يديا تاركا فى مهجتى جمراً ذكيا
طالما أوحى فغنيت على مسمع الليل نشيدا عبقريا
كان إن أطلقته فى جنة يلثم الزهر ويرتد إليا

---

(١) راجع إلياس فرحات شاعر العروبة لعيسى الناعورى ، رباعيات فرحات - الصيف والربيع والخريف - ومطلع الشتاء لإلياس فرحات .

٥ ـ الدكتور أحمد زكى أبو شادى : ولد فى القاهرة عام ١٨٩٢ ، وتعلم الطب فى انجلترا ، وعاد منها عام ١٩٢٢ . . تلقى ثقافته الأدبية عن أعلام الأدب فى عصره ، وأخذ الشعر عن مطران ، وتأثر بالمدرسة الإنجليزية فى الشعر والنقد ، وأخرج دواوين كثيرة منها : الشفق الباكى . وأطياف الربيع ، والينبوع . . وكون مدرسة شعرية جديدة سماها « مدرسة أبولو » ، وأخرج مجلة أبولو للشعر ونقده ، وأثر فى الشعراء المعاصرين تأثيراً كبيراً . هاجر إلى أمريكا عام ١٩٤٦ ، وتوفى فى واشنطون فى ١٢ أبريل عام ١٩٥٥ . له أثر كبير فى حركات التجديد فى الأدب والنقد والشعر المعاصر ، وقد سبق أن تحدثنا عنه ، وبعد بهجرته إلى العالم الجديد مهجريا . . ومن شعره قصيدته « أين الربيع؟» التى يقول فيها :

«أين الربيع» سألت عنه فلم أجد ... من رد غير تدفق الأمطار
ولى ولم يحضر ، فغاب كأنه ... قد عاش فى الأوهام والأفكار
قالوا : هى الذرات حين تفجرت ... ثرت نظام الجو أى نثار
فغدا الربيع هو الخريف ، كأنما ... قد جن من مطر ومن إعصار
ومن الرعود تكلمت كدافع ... ذرية ، وتراشقت بالنار
فتحجبت أطياره ، وتبرقعت ... أزهاره ، وبكى الغدير الجارى
وبكيت فى نفسى كأنى فاقد ... أهلى وكل مجالس السمار
وإذا أناخ بنا السكون حسبته ... ضوضاء من قاق ومن إنذار
أين المروج الحاليات عرائسا ... كعرائس الأحلام فى (آذار) ؟
أين العصافير التى لم تكتمل ... أعشاشها بالحب والأسرار ؟
ضاعت جميعا كالطيوف إذا هوت ... واللحن فوق مقطع الأوتار
احلم بها ياقلب ، أولا فانسها ... لجميع ماوهب الربيع عوارى

ومن قصيدة أخرى له :

ذهب الملوك بعصرهم وتمخضت ... نوب الحوادث عن أذى الملكية

حق الشعوب أجل من إرضاخه لمشيئة فردية علوية
الشعب أعلى من إرادة حاكم ولو أنه في بزة نبوية
لم تترك الأحداث عندي مأملا بمملك مادام رب رعية
حسبي حوادث نصف قرن كامل
لتزيدني كرها لها(١) كلية
وكفى وثوب الخلق نحو خلاصهم جيلا فجيلا من رؤى الرجمية
فعلام نخذل عصرنا فيفوتنا في شبه أحلام لنا أبدية ؟
بعض الركود هو النكوص بعينه
ومن الجمود غذاء كل دنية ؟

٦ - إيليا أبوماضي :

ولد في لبنان عام ١٨٩١ ، وهاجر إلى الإسكندرية عام ١٩٠٢ ، وأخرج فيها ديوانه ديوان (أبو ماضي) ، قبل أن يبلغ العشرين . . وفي عام ١٩١٦ هاجر إلى نيويورك ، وتعرف إلى جبران ، وأصدر فيها الجزء الثاني من ديوانه ، وقد قدمله جبران.. وصار من شعراء «الرابطة القلمية» . . وفي عام ١٩٢٧ أصدر ديوانه « الجداول » . وفي عام ١٩٢٩ أنشأ مجلته « السمير » ، وفي عام ١٩٤٦ أصدر ديوانه « الخمائل » .

ومات أبوماضي في نيويورك في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٧ ، وقد بلغ أبوماضي غاية نضوجه الشعري في «الجداول» ، ولاسيما في قصيدته « فلسفة الحياة » . . والنزعة الإنسانية سائدة في شعره ، وتتردد فيه النزعة الواقعية أحيانا والنزعة التأملية ، وهو من شعراء الطبيعة ، وله العديد من المطولات الشعرية التي من بينها : الحكاية الأزلية ، والطلاسم . . وقصيدته الطين مشهورة .

---

(١) أي للملكية

٧ — شفيق معلوف وله: الأحلام وهى قصة خيالية اجتماعية ، وديوان « لكل زهرة عبير » ، « وملحمة عبقر » . وهو شاعر متزن ، وأديب مفكر ، رصين مستوعب الفكر الفلسفى ، قرأ الفلسفة الحديثة وعلم النفس ، وتغلغل كل ذلك فى شعره الجميل الذى يسانده طبع أصيل وقدمات أخوه فوزى المعلوف عن سن مبكرة .

٨ — رشيد أيوب شاعر الدموع وهو شاعر روحى عاطفى ، هاجر سنة ١٨٨٦ واستقر فى نيويورك . وقد أكثر فى شعره من شكوى الزمان ولقب شاعر الدموع ، والشاعر الباكى ، وديوانه « أغانى الدرويش » مشهورة .

٩ — نسيب عريضة الشاعر الثائر (١٨٨٧ — ١٩٤٦) هاجر إلى أمريكا عام ١٩٠٥ ، وتوفى عام ١٩٤٦ ، وله ديوان « الأرواح الحائرة » ، وقد أنشأ سنة ١٩١٣ مجلته الأدبية « الفنون » ، وحرر فى جريدة السائح والهدى ومرآة الغرب ، وله كذلك ملحمة أبى فراس ، و « إرم ذات العماد » ، ويقول عريضة لابنته يغنى لها كى تنام :

ظلام الليل قد جنا ... وبوق الهم قد رنا
فنم يا طفل لا يهنا ... غنى بات شبعانا
بكى طفل وما ناما ... وقضى العمر صواما
جنى الآباء آثاما ... عليها الله جازانا
من الألحان لا أدرى ... سوى أنشودة الصبر
أغنيها من القهر ... لطفل بات جوعانا

١٠ — ومن أدباء المهجر الجنوبى : جورج صيدح ، وهو شاعر رقيق ، وصيدح يرى أن التجديد الأهم الذى قام به المهجريون كان فى الموضوعات والفكرة . وقد انعكس هذا التجديد فى الأساليب . إنهم لم يقصدوا إشاعة الفوضى فى اللغة كما يزعم البعض ، بل إنهم فى حدود التزامهم للإطار العام

للغة اتخذوا القوالب الأنسب لأفكارهم الجديدة وتفننوا فى تقطيع الشعر، تقطيع البحور العربية التقليدية، تقطيعا يناسب أنغام شعرهم، ولغتنا كانت تحتمل هذا التقطيع، هم لم يخرجوا على العروض بل واصلوا رسالة الأندلسيين ونوعوا الموشحات وحملوا رسالة الفكر العميق، وهم خلقوا الحوار فى الشعر فقد كتب إيليا أبو ماضى المسرحيات والملاحم والمطولات: كما كتب فوزى المعلوف ملحمة «بساط الريح» وكتب شفيق معلوف «ملحمة عبقر» وهم بعثوا الحياة فى الكلمة العربية. ومميزاتهم أنهم واقعيون لم ينفصلوا عن حياة المجتمع، وإنما لونوا الواقع بألوان الفن ليصبح جذابا. لأنهم أصحاب رسالة إنسانية ورسالة المجتمع، وهم لهذا السبب أيضاً كان عليهم اختيار أسلوب واضح بسيط لأن شرط الرسالة الشيوع.

صورة من الشعر المهجرى :

١ — جبران خليل جبران من قصيدته «البلاد المحجوبة» :

هو ذا الفجر فقومى ننصرف	عن ديار مالنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف	زهره عن كل ما فيها عتيق
وجديـــد القلب أنى يأتلف	مع قلوب كل ورد شقيق
هو ذا الصبح ينادى فاسمعى	وهلمى نقتفى خطواته
قد كفانا من مساء يـدعى	أن نور الصبح من آياته
قد أقمنا العمر فى واد نسير	بين ضلعيه خيالات الهموم
وشهدنا اليأس أسرابا تطير	فوق متنيه كعقبان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير	وأكلنـــا السم من فج الكروم
ولبسنا الصبر ثوبا فالتهب	فغــدونا نـــترى بالرماد
وافترشناه وسادا فانقلب	عندما نمنـــا هشيما وقتـــاد
يا بلادا حجبت منذ الأزل	كيف نرجوك ومن أى سبيل ؟

أى قفر دونها أى جبل سورها العالى ومن عنا الدليل ؟
أسراب أنت أم أنت الأمل فى نفوس تتمنى المستحيــــل
أمنام يتهـادى فى القلوب فإذا ما استيقظت ولى المنام
أم غيوم طفن فى شمس الغروب قبل أن يغرقن فى بحر الظلام
يا بلاد الفكر يا مهد الألى عبدوا الحق وصـــلوا للجمال
ما طلبناك بركب أو على متن سفن أو بخيل ورحال
لست فى الشرق ولا الغرب ولا فى جنوب الأرض أو نحو الشمال
لست فى الجو ولا تحت البحار لست فى السهل ولا الوعر الحرج
أنت فى الأرواح أنوار ونار أنت فى صدرى فؤادى يختلج

وقد ولد جبران فى ديسمبر ١٨٨٣ فى مدينة « بشرى » بلبنان ، وتعلم فى مدرسة الحكمة ببيروت، ثم رحل إلى باريس فأقام فيها شهرا ، ومنها سافر إلى مدينة بوسطن بالولايات المتحدة ، فأقام فيها يشتغل بالكتابة والتصوير ، ثم عاد عام ١٩٠٨ إلى باريس لإكمال دراسته فى التصوير فى معهد الفنون الجميلة ، وفى باريس فتن بشعر الشاعر الإنجليزى الفنان « وليام بليك » ، وصار جبران شاعراً يستلق فيه الفن الجميل والشعر ، الشعر المتحرر من قيود الوزن والقافية فى كثير من الأحايين . . ومن قصائده العمودية « المواكب » ، وقد ذاعت مؤلفاته ونالت شهرة كبيرة ، مثل « النبى » و « التائه » ، « والمجنون » ، « ورمل وزبد » ، والأمواج والعواصف ، والأرواح المتمردة ، والبدائع ، وعرائس المروج ، ودمعة وابتسامة ، والأجنحة المنكسرة .

وفى عام ١٩٢٠ أسس جبران الرابطة القلمية فى نيويورك ، وصار رئيساً لها ، ومات جبران فى إبريل سنة ١٩٣١ فى نيويورك ، ونقل جثمانه إلى لبنان فدفن فى بلدته « بشرى » ، وترك وراءه ذكرا مدويا ، وشهرة ذائعة ، وتلامذة معجبين متأثرين بأدبه ودعوته التحررية فى الشعر والفن والأدب جميعاً . .

وقد مزج جبران خليل جبران قلقه العميق المتواصل بين الشك والمحبة ،

هذا القلق الذى أجج ناره فيه اصطدامه بالفيلسوف الألمانى فريدريك نيتشه هذا الاصطدام الذى أخرج جبران خليل جبران من وحدته ليعيش من جديد فى صراع عنيف بين الإيمان بالله وبين الكفر بكل عقل أونظام فى الوجود من جهة ، وبين النزعة الإنسانية المحبة للإنسان ، وبين إهدار كل قيمة إنسانية .

وظل جبران يتأرجح بين تيارات مختلفة من الثقافات : أبرزها فلسفة نيتشه الوجودية الاجتماعية الملحدة . وبهذا كان للرمزية عند جبران خليل جبران إلى جانب ما أوتى من قوة الخيال هذا النوع من النزوع الصوفى الإنسانى إلى الله سبحانه وتعالى .

والرمزية فى أسلوبه تظهر فى شكلين : رمزية جزئيات الجملة عنده بين تشبيه واستعارة رمزية . شأنه فى هذا شأن عامة الأدباء وخاصة العرب القدامى ، ورمزية أسلوبه الذى كان الحوار والقصص الرمزيان مظهرين من مظاهره التعبيرية الفنية جسدتها أبرز كتب جبران خليل جبران ، وهى : المواكب ، والنبى ، وآلهة الأرض ، وحديقة النبى .

وقد بدأ جبران حياته الأدبية والفنية والفكرية قاصا روائيا تروحت كتاباته بين الغنائية الذاتية وبين الواقعية القريبة من الغنائية الذاتية ، يتناول فيها أمور المجتمع ومشكلاته أو مشاكل حياته الخاصة ومناسباتها ناقدا فاحصا كما تنطق بهذا كتبه الأولى : الأرواح المتمردة ، عرائس المروج الأجنحة المتكسرة ، إذا نحن لم نغفل ما فى « العواصف » ، « ودمعة وابتسامة » من قصصه أيضاً ، ولكنه عندما ازداد أوار انطوائيته المضطربة القلقة المتأملة جنح إلى الحوار والقصص الرمزيين متخذا الأشخاص والموضوعات والحركة الحوارية والقصصية رموزا لأفكاره ومشاعره ، وكلها من صميم معاناته للوجود ومشكلاته وجانبه الفلسفي : الديني أو الاجتماعي الأخلاقي .

وكان الرمزية عند جبران خليل جبران إلى جانب تلك التصوفية المسيحية القلقة هذه الأنماط من الأسلوب الرمزى الحوارى القصصى التى دعمها خياله المصور الخلاق فى تعبيرها عما تضمنته هذه التصوفية من معان ووجدانات إنسانية(١) .

٢ — ميخائيل نعيمة من قصيدته « الطريق » المملوءة بالحيرة .

نحن يا ابنى عسكر قد تاه فى قفر سحيق
نرغب العود ولا نذكر من أين الطريق
فانتشرنا فى جهات القفر نستجلى الأثر
نسأل الشمس عن الدرب ونستفتى الحجر
وسنبقى نفحص الآثار من هذا وذاك
ربما نــدرك أن الدرب فينا لا هناك
وسنبقى فى انتقال وشقاء وعـذاب
وصعـود وهبـوط وذهـاب وإياب
وسنبقى نهجع الليـل وفى الصبح نفيـق
ربما نلقى حنانا ، ربما نلقى الطريق

ولميخائيل نعيمة من قصيدته « أخى » وهى قصيدة ثرية بالمعانى الإنسانية :

أخى إن ضج بعد الحرب غربى بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت لمن دانا
بلا اركع صامتا مثلى بقلب خاشع دام
لنبكى حـــظ موتانا

ونعيمة أحد شعراء المهجر المبدعين المجددين ، وقد أودع كتابه « الغربال »

(١) راجع ما مضى فى صفحة ٣٤٣ أيضا .

الذى أصدره عام ١٩٢٣ آراء فى النقد والأدب ومشكلات الشعر . . ومسرحيته « الآباء والبنون » كان لها أكبر الأثر فى المسرحية العربية ، وقد نشرها عام ١٩١٧ ، ويتلاقى « الغربال » مع « الديوان » الذى أصدره العقاد والمازنى عام ١٩٢١ فى نقد المدرسة القديمة ووضع مناهج جديدة للشعر والنقد، ويقول نعيمة : إن هدف الأدب هو الإفصاح عن عوامل الحياة ، ويطلق الدكتور مندور على شعره لقب « الشعر المهموس » لأنه يقع فى النفس موقع الأسرار التى يتهامس بها الناس ، وكلمة الهمس فى رأى مندور هى إحساس بالأدب المصنوع من الحياة كأنه قطعة منها .

وقد ولد نعيمة فى لبنان عام ١٨٨٩ م ، والتحق بمدرسة روسية كانت قد أنشئت حديثا فى بلدته ، ثم اختير لإكمال تعليمه فى دار المعلمين الروسية فى مدينة الناصرة بفلسطين ، ثم اختير فى بعثة دراسية إلى روسيا على نفقة الجمعية الإمبراطورية الروسية الفلسطينية ، وطالع الأدب الروسى باهتمام وتأثر به . . وعاد إلى لبنان ، ومنها إلى ، ولاية واشنطون ، حيث والى دراسته فى إحدى مدنها وحصل على إجازة فى الحقوق وإجازة أخرى فى الأدب عام ١٩١٦ ، وخدم فى الجيش الأمريكى حيث عمل فى صفوف القتال فى فرنسا ، وقد كره الحرب ، وندد بها طول حياته .

ثم عاد إلى الولايات المتحدة ، واشتغل بالتجارة ، وبالأدب ، وكتب فى مجلة «الفنون» ـ التى كانت تصدر فى نيويورك بالعربية ـ فصولا فى الأدب والنقد ، وانتقل إلى نيويورك ، واتصل بجبران ولما كونت الرابطة القلمية عام ١٩٢٠ كان جبران رئيسها ، ونعيمة مستشارا لها ، ومن أعضائها إيليا أبو ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وعبد المسيح حداد . . وسجل نعيمة فى صدر قانون الرابطة « إن هذه الروح الجديدة التى ترمى إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار فى جميل الأساليب والمعانى ، لحرية فى نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهى أمل اليوم ، وركن الغد» .

وفى عام ١٩٣٢ عاد ميخائيل نعيمة إلى وطنه لبنان ، حيث عكف على الاطلاع والكتابة ، ونظم القصائد ولا يزال حتى اليوم يعيش فى قريته « بسكنتا » الوادعة النائمة فى حضن جبل لبنان الأشم . . ويعد كتابه « الغربال » من أمهات كتب النقد والدعوة إلى التجديد ، وقد كتب العقاد مقدمة طبعته الأولى عام ١٩٢٣ ، ولنعيمة ديوان « همس الجفون » ، ومن كتبه : « زاد المعاد » ، « والبيادر » ، وجبران خليل جبران ، وسواها من مؤلفاته وروائع إنتاجه الذى عد به قمة فى الأدب المهجرى ، وعلما شامخا فى حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث .

٢ — إيليا أبو ماضى من قصيدته « الطلاسم » :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟ لست أدرى
إننى جئت وأمضى وأنا لا أعلم
أنا لغز . وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز أعظم
لا تجادل ، ذو الحجى من قال : إنى لست أدرى
أنا لا أذكر شيئا من حياتى الماضيه
أنا لا أعرف شيئا عن حياتى الآتيه
لى ذات غير أنى لست أدرى ماهيه
فمتى تعرف ذاتى كنه ذاتى؟ لست أدرى

ويقول الشابى متأثرا بإيليا فى هذه القصيدة وذلك من قصيدة الشابى « فى ظل وادى الموت » .

نحن نمشى وحولنا هذه الأكوان تمشى . لكن لأية غاية

نحن نمشي مع العصافير للشمس ، وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الروايه

ومثل هذه الحيرة تبدو واضحة في قصيده فوزى المعلوف(١) « لغز الوجود » :

كيف جئنا الدنيا ؟ ومن أين جئنا ؟
وإلى أي عالم سوف نقضي
هل حيينا قبل الوجود ؟ وهل نبعث
بعد الردى ؟ وفي أي أرض ؟
هو كنه الحيـــاة مازال سرا
كل حكم فيه يؤول لنقض
كيف أجلو غدى وأدرك أمسى
وأنا حرت كيف يومى سيمضى
قد حيينا قبل الولادة لكن
بجدود قضوا كما سوف نقضى
وسنحيا بعـــد الردى ببنينا
في كيان نعطيه بعضنا لبعض

٤ — ويقول فوزى المعلوف من ديوانه « على بساط الريح » :

في عباب الفضاء ، فوق غيومه
فـــوق نسره ونجمته
حيث بث الهوى بثغر نسيمه

(١) لفوزى المعلوف : سقوط غرناطة ، وأربعة دواوين : شعلة العذاب تأوهات الريح . من قلب السماء . أغاني الأندلس .

كل عطـــره ورقته
موطن الشاعر الخلاق منذ البدء
لكن بروحـــه لا بجسمه
أنزلته فيه عروس قوافيه
بعيداً عن الوجود وظلمه
ملك قبة السماء له قصر
وقلب الأثير مسرح حكمه
ضارب فى الفضاء موكبه النور
وأتبـاعه عرائس حـــلمه

ه — إلياس فرحات من قصيدته « حياة مشقات » :

أقول لنفسى كلما عضها الأسى وآلمها : صبرا ففى الصبر مكسب
لئن كان صعبا حملك الهم والأذى
لحملى من الناس لا شك أصعب
فلولا إباء مازج الطبع لم يكن لمثلى مجىء فى البرارى ومذهب
ولولا رجائى أن تظلى بعيدة عن الضيم لم يوطأ برجلى سبسب
فلا تعذلى صحبا دروا بى وما عنوا بأمرى فهم منى إلى الفقر أقرب
ولا تأملى من غير صحبى معونة
فما تخصب الكفان والقلب مجدب
ولا ترتجى الإخلاص من كل باسم
ففى الياسمين المغضب المتحبب
ولو كان كل المظهرين لى الوفا وفيين لم يعجزك يا نفس مطلب
عتبت على ناس أضاعوا مودتى
وكل كريم خانه الصحب يعتب
فقد زعموا أنى هجوت حبيبهم
وأنى سأهجو غيره حين أخطب

ولست بهجاء ولكنه الهوى | إذا قاد نفس المرء فالثور غيهب
أما من يرى أن الرياء معرة | وأن خبيث القول في الصدق طيب
وما أنا إلا كالزمان وأهله
أعاف وأستحلي ، وأرضى وأغضب
فأى هجاء في مقالي لعقرب | له ولع بالشر . إنك عقرب ؟!
تعبت إذا استنظرت خيرا من الورى
ومستقطر السلوى من الصاب يتعب

٦ — والشفيق معلوف صاحب ديوان « لكل زهرة عبير » :

أنا إن سقطت فخذ مكانى يارفيق فى الكفاح
واحمل سلاحى ، لا يخفك دمى يسيل من السلاح
وانظر إلى شفتى أطبقتا على هوج الرياح
وانظر إلى عينى أغمضتا على نور الصباح
أنا لم أمت ! أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

هذا هو الشعر الذى لا يعرف النقل والانتحال والتقليد ، وإنما هو التعبير القوى الأصيل عن روح الشعب دون أى تصنع ودون أى بهرج وفوق كل تعمل وافتعال .

والشعر - هو فى صميمه تعبير وتفسير خلاق وهذا ما يتجلى فى آثار شفيق معلوف ، وما (الأحلام) إلا قصة خيالية اجتماعية شريفة ، وماديوانه (لكل زهرة عبير) إلا إسهام رفيع فى إبداع لبنات الشعر ، وهذه اللبنات لا يمكن أن يستهين بها شاعر يحترم الحق ويحترم فنه ، وشفيق معلوف شاعر متزن وأديب مفكر رصين مستوعب للفكر الفلسفى وقد قرأ شفيق معلوف الفلسفة الحديثة وعلم النفس ، وتغلغل كل هذا فى شعره الجميل الذى يسانده طبع أصيل اشتهر به وراثة وثقافة أدباء أسرة المعلوف .

وواضح أن شفيق معلوف جمع بين خيال أخيه فوزى الذى مات فى

سن مبكرة وبين النضوج الفنى الشخصى الذى صهرته تجاريبه هو وصوته ثقافته الخاصة ، كانت طاقة فوزى الشعرية طاقة ممتازة وكانت موسيقاه حلوة جذابة للجماهير ، أما شفيق معلوف فطاقته الشعرية ممتازة كذلك ، ولكن موسيقيته ليست من ذلك السهل السلسال الذى تولع به الجماهير ، كما يقول أحمد زكى أبو شادى : فوزى يمثل النبوغ فى باكورته ، وأما شفيق فقد جمع بين ذلك النبوغ المشترك وبين نضوجه هو ، وقد اتسم إلى جانب ذلك بطابعه الخاص فى التأمل والموسيقى والاستيعاب الفلسفى والنظرات النفسية العميقة ، وفنه الشعرى يتجلى فى ذروته بملحمته الخالدة (عبقر) . "

ولشفيق معلوف قصيدتان فى « الشاعر » مختلفا المعانى والموسيقى ، وبينهما زهاء ثلاثين عاما . ففى القصيدة الأولى يقول شفيق معلوف الشاب :

أمر نسيم العشية كفا على جبهة الشاعر الشاحبه
دعوه يزحزح عن قلبه بقيــــة حياته الذائبه
ولا تزعجوه لئلا توقف فى صــــدره روحه الواثبه
ليستخلص الشعر من نسمات تهيم فى اللجة الصاخبه
ويستنزل الوحى من شعلات النجوم وأنوارها الساكبه
وتستنزف الدمع من طبقات الأثير فأجفانه ناضبه
هو الشاعر ابن إله الخلود ، وإن تك آماله ذاهبه !

وفى القصيدة الثانية يقول شفيق معلوف الكهل :

لو كان ما فى السماء يلتهم   لما ارتوى منه قلبه النهم
يود والنيرات فائضة   لو أن جفنيه تحتهن فم
ويشتهى والرجوم هاوية   لو كان منها لروحــه لقم
لا يأتلى يرمق السماء فهل
ضاع له فى طباقها حلم
أم شام فوق النجوم آلهة   فضه أن يعيش تحتهمو

يطاول النجم فوق قبته ... وكل مافى الثرى له غنم
فالغاب والنهـــر والفراشـــة والزهر وعشب المروج والنسم
وكل ما يكشف الصباح ... وما تلقى عليه رداءها الظلم
ماهو إلا الأوتار تنقرها ... الليـــالى والشاعر النغم
بالله كم شاعر أخو حرق ... يغص بالدمع وهـــو يبتسم
إذا رأى الشمس وهى غاربة ... أدرك كيف الآمال تختـــتم
ثم على الزهرة الأسى ووعى ... ما قالت الكأس وهى تنحطم !

ففى القصيدة الأولى تجد شعراً سهلا مأنوس الديباجة تحبه الجماهير، حينما تطلع القصيدة الثانية بديباجة جزلة هى أشبه ماتكون بديباجة المتنبي الرصينة القوية التى تستهوى الخاصة بأسلوبها ومعانيها معا .

وقد جمع شفيق معلوف ما بين تجارب الحياة الواسعة المنوعة وبين عواطف الشاعر الحارة وأخيلته الرائعة وصب كل هذا فى قالب من شعره التأملى الفريد .

٧ — جورج صيدح حين استضافته لبنان :

حسدونى وضيف لبنان يحسد ... أنا منه فى واحة بعد فدفد
أتملى ، وما ارتويت بماء ... وأسارى ، وما اهتديت بفرقد
يا سماء تغفو الكواكب فيها ... بينما عاشق الكواكب يسهد
إن برجا أطلت فيه اعتكافى ... كان أسنى لو أننى كنت أبعد
كان ذنبى-وليس ذنب بلادى- ... أن تخيلت غــير ما الآن أشهد
غيرها تجرح القيـــود يديه ... وهى تعتد بالقيود وتشتد
غيرها يصلح الفساد وفيها ... لا يعيش الصلاح إن لم يفند
غيرها اعتز بالنظام وفيها ... تاه واعتز من عليه تمرد
غيرها حطم العروش وفيها ... ألف عرش لألف ملك مسود

برلمان فى كل حى ، وشعب   مستقل فى كل ناد ومعهد
وحدود ما بين فرد وفرد   كظلال من القطيعة تمتد
تتحدى مشيئة الله فينا   وتنافى حكم اللسان الموحد
إن أرضا غصت بكل دخيل   لا تبالى إذا الأصيل تشرد
إن أكن ضيفها فمن صاحب   الدار ؟ وفى ذكر أينا تتمجد
أطلقونى يا أهل لبنان ، إنى   بالأيادى التى اصطنعتم مقيد
أرجعونى إلى غياهب أمسى   رب ليل صفا وفجر تلبد
لست أدرى منازكم غاب عنى   أم تداعى أم أننى صرت أرمد
سامح الله من حدانى إليكم   فأرانى من ناركم ما توقد
نار فحم ، فى سطحه ومضات   من شعاع الآداب والقلب أسود

وفى صيدح قال أمين نخلة : جورج صيدح شاعر مليح فصيح ، ومن العجب أن يظل محافظا على ديباجته ، وهو تحت سماء غير عربية .

وقال ميخائيل نعيمة : صيدح من الشعراء الذين أطلق عليهم لقب شعراء المهجر ، ولكن شعره لم ينتشر فى الوطن كشعر زملائه أمثال : أبى ماضى ، والقروى مثلا ، فعلى أدبائنا هناك أن يصلحوا هذا النقص .

وقال بشارة الخورى : أتسألنى رأيى فى هذا الشاعر ألم ترنى فى حفلة إمارة الزجل كيف كنت أترنح لدى سماعى شعر صيدح .

وقد ولد عام ١٨٩٢ فى دمشق ، وتخرج من كلية عينطورا فى لبنان عام ١٩١١ ، ثم اشتغل بالتجارة فى القاهرة حتى عام ١٩٢٥ . . سافر إلى باريس ثم هاجر إلى عاصمة فنزويلا ، وبقى بها حتى عام ١٩٤٧ مشتغلا بالتجارة ، ثم تقاعد عن العمل وانصرف إلى الدراسات فى الأرجنتين ثلاث سنوات . ومنذ سنة ١٩٥٠ وهو يقوم برحلات فى أقطار العالم ، ثم عاد إلى بيروت سنة ١٩٥٢ ، وظل يقضى أيامه بين لبنان ويدرس حتى اليوم .

يقول صيدح من قصيدته « شفق » .

أيدوم لنا هـذا الشفق   نتلاقى فـيه ونفترق
ونعود وعالمنا فتن   والشمس تلوب(١) وتمسحق
كمحارب قـوم منهتك   لاترس يقيه ولا درق(٢)
والأفق شفاه من لهب   وغدائر شعـر تحترق
والزهر يشق غلائله   طيبا ، وكنهدك ينطلق
وعطور الغابة تحمل من   شهوات الأرض وتنعتق
وتهيم شذا ، فتلملمها   شفة من نار تندلق
وأفكر فيك ولست أعى   قولا فى من سعدوا وشقوا
وتروع شفاهك لونها   وهـج يحمر ويأتلق
تندى وكأن بها قبلا   تشتاق البـوح فتختنق
وتذوب بصمت يحرقها   شهقات ذاب بها النفق
ويمد الصيف إليك يدا   تتلظى ، فيهب العبق

٨ — ويقول إيليا أبو ماضى من قصيدته « الطين » :

نسى الطين ساعة أنه طيـ   ن حقير فصال تيها وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى   وملا المال كيسه فتمرد
يا أخى : لا تمل بوجهك عنى
ما أنا فحمـة ولا أنت فرقد
أنت لم تصنع الحرير الذى تلـ   بس واللؤلؤ الذى تتقلد
أنت لا تأكل النضار إذا جعـ   ت ولا تشرب الجمان المنضد

---

(١) تلوب : تعطش .

(٢) هى التروس من الجلد بلا خشب ولا عقب .

أنت فى البردة الموشاة مثلى   فى كساء الرديم تشقى وتسعد
لك فى عالم النهار أمان   ورؤى ، والظلام فوقك ممتد
ولقلبى كما لقلبك أحلا   م حسان ، فإنه غير جلمد

ثم يقول منها :

فلك واحد يظل كلينا   حار طرفى به وطرفك أرمد
قمر واحد يطل علينا   وعلى الكوخ والبناء الموطد
إن يكن مشرقا لعينيك إنى   لا أراه من كوة الكوخ أسود
النجوم التى تراها أراها   حين تخفى وعندما تتوقد
لست أدنى على غناك إليها   وأنا مع خصاصتى لست أبعد

ثم يقول :

ألك القصر دونه الحرس الشا   كى ومن حوله الجدار المشيد
فامنع الليل أن يمد رواقا   فوقه والضباب أن يتلبد
وانظر النور كيف يدخل لا يطلب إذنا فما له ليس يطرد
مرقد واحد نصيبك منه   أفتدرى كم للذر فيه مرقد
ذدتنى عنه والعواصف تعدو   فى طلابى والجو أقتم أربد
بينما الكلب واجد فيه مأوى   وطعاما ، والهر كالكلب يرقد
فسمعت الحياة تضحك منى   أترجى ، ومنك تأبى وتجحد
ألك الروضة الجميلة فيها الـ   ـماء والطير والأزاهر والند ؟
فازجر الريح أن تهز وتلوى   شجر الروض ، إنه يتأود
والجم الماء فى الغدير ومره   لا يصفق إلا وأنت بمشهد
ألك النهر ، إنه للنسيم الـ   رطب درب وللعصافير مورد
وهو للشهب تستحم به فى الـ   صيف ليلا كأنها تتبرد
تدعيه فهل بأمرك يجرى   فى عروق الأشجار أو يتجعد
كان من قبل أن تجىء وتمضى   وهو باق فى الأرض للجزر والمد

ألك الحقل ؟ هذه النحل تجنى الـ شهد من زهره ولا تـتردد
لو ملـكت الحقول فى الأرض طرا
لم تـكن من فراشـة الحقـل أسعد
أجميل ؟ ما أنت أبهى من الور دة ذات الشذى ولا أنت أجود
أم قوى ؟ إذن مر النوم إذ يغـ شاك والليل عن جفونك يرتد
وامنع الشيب أن يلم بفوديـ ك ومر تلبث النضارة فى الخد
أيها الطين لست أنقى وأسمى من تراب تدوس أو تتوسد
سدت أولم تسد فما أنت إلا حيران مسير مستعبد
لايكن للخصام قلبك مأوى إن قلبي للحب أصبح معبد
أنا أولى بالحب منك وأحرى من كساء يبلى ومال ينفـد

٩ — للشاعر القروى من قصيدته « اجمل الأرض حيث كنت جنانا » :

أنت حر فاستوطن البلد الحر وصاحب من أهله إخوانا
مثلك الكون والزمان فلا تلح مكانا ولا تذم زمانا
ليس فى فضمك الحديد هوان إن فى بثك الشكاة هوانا
بسمة تظهر الفقـير غنيا دمعة تمسح الشجـاع جبانا
فتلق الحيـاة بالبشر فالعيش نعيم إن لم تكن شيطانا
كن إله النضار ، إنك عندى لست شيئا مالم تكن إنسانا
أشبع العقل حكمة واختباراً واملأ القلب رحمـة وحنـانا
ولك الأرض والسماء وهل يدعى فقيراً من يملك الأكوانا ؟

ومن قصيدته « أين وجدت الله » ؟ :

هو الحب حتى ليس فى الأرض مجرم
ولا مدمع يجرى عليها ولا دم
وحتى كأن القلب فى خفقانه يود به نطقا كما نطق الفم
نقل للذى لم يعرف الحب قلبه ولم يلف إلا شاكيا يتألم

أيا صاحبى إن العداء جهنم وما فيه من عز لتحلو جهنم
ويا صاحبى إن التجهم يقتضى من الجهد مالا يقتضيه التبسم
ألا كل دين ماخلا الحب بدعة ألا كل علم ما عـداه توهم
ولا عجب أن ينكر الله كافر فماذا ترى من يجهل الحب يعلم ؟

ويمتاز القروى بولوعه بالأدب ، وافتنانه بالطبيعة وبروحه الإنسانية العالية وتضحيته بكل نفيس فى سبيل مبادئه الشريفة التى تدور حول إنصاف العروبة لتسهم الإسهام الواجب فى خدمة الإنسانية . وقد شغف بالطبيعة ، وهام بها .

ولد القروى بقرية البربارة من جبل لبنان عام ١٨٨٧ ، وكان والده شاعرا أديبا فورث منه الشاعرية ، وتعلم فى قريته ، ثم فى مدرسة الفنون الأمريكية بصيدا ، فالكلية السورية الإنجيلية ببيروت ، واشتغل معلما فى مدارس كثيرة وهاجر إلى البرازيل عام ١٩١٣ ، وعاد عام ١٩٥٨ ليقيم فى قريته بربارة .

إيليا أبو ماضى

١٨٨٩ — ٢٤ من نوفمبر ١٩٥٧

١ — مات الشاعر العربى إيليا أبو ماضى ، بعد أن ردد اسمه على كل لسان ، وغنى بشعره فى كل مكان ، إن إيليا أبا ماضى حى بقصائده الرفيعة ، وأدبه الإنسانى ، وموسيقاه الرائعة ، وقصصه الجميل ، وتسلسل الحركة والصور فى شعره تسلسلا عجيبا ، إنه شاعر الصور ، والتجارب الباطنة العميقة ، والإيحاء الذاتى المؤثر .

مات إيليا فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٧ عن ثمانية وستين عاما إذ كان مولده عام ١٨٨٩ م . مات بعد أن حل - كما يقول الأستاذ والشاعر المبدع محمد عبد الغنى حسن فى « الشعر العربى فى المهجر » وكانت أنغامه عزاء المنكوبين ، وطمأنينة الحائرين ، وابتسامة فى وجه الزمان إذا عبس ، وأثبت كيان الفكر العربى فى العالم الجديد » .

وقد بلغ أبو ماضى غاية نضوجه الشعرى فى (الجداول) ، ولا سيما فى قصيدته (فلسفة الحياة) التى تعد من أشهر شعر أبى ماضى وأروعه(١) ، والنزعة الإنسانية سائدة فى شعره ، وتترددفيه النزعة الواقعية أحيانا ،والنزعة التأملية ، وهو من شعراء الطبيعة ، وله العديد من المطولات الشعرية التى من بينها : الحكاية الأزلية والطلاسم .

٢ — وفى الجداول نجد نزعة الحيرة والتفاؤل بالحياة جد ظاهرة ، وقصيدة الطين تعد من أشهر قصائد أبى ماضى ، بل من أشهر القصائد فى الشعر العربى الحديث .

---

(١) ص ١١ إيليا رسول الشعر العربى الحديث للناعورى .

نسي الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيها وعربد

ويعقد الأديب الأردني الكبير روكس العزيزي شبها بينها وبين قصيدة الرميثي التي كانت هي الأصل الذي احتذاه أبو ماضي وأخذ منه معانيه ، وهو ينظم قصيدته ، وقصائده : (المساء) ، (وزهرة أقحوان) ، (والعميان) ، (واليتيم) ، (والمجنون) ، (والأشباح الثلاثة) من القصائد المشهورة ، ومن روائع الديوان قصيدته (الطلاسم) :

جئت ، لا أعلم من أين ، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أو أبيت
كيف جئت ، كيف أبصرت طريقي ، لست أدري

والقصيدة لها شهرة ضخمة لا تعادلها شهرة ، وفي قصيدته (اليتيم) يقول أبو ماضي :

خبروني ماذا رأيتم ؛ أأطفالا يتامى أم موكبا علويا
كزهور الربيع عرفا زكيا ونجوم الربيع نوراً سنيا
والفراشات وثبة وسكونا والعصافير بل ألذ نجيا
إنني كلما تأملت طفلا خلت أني أرى ملاكا سويا
قل لمن يبصر الضباب كثيفا إن تحت الضباب فجرا نقيا
اليتيم الذي يلوح زريا ليس شيئاً لو تعلمين زريا
ربما كان أودع الله فيه فيلسوفا أو شاعراً أو نبيا

٣ — أما ديوان الخمائل فمن أشهر قصائده : (الشاعر والملك الجائر) ، و (الفراشة المحتضرة) ، و (الأسطورة الأزلية) ، والديوان مملوءة بروائع الفن القصصي الشعري البديع ، مع الموسيقى العذبة ، والألحان الجميلة ، يقول أبو ماضي في الخمائل من قصيدته (أنت والكأس) :

أنت والكأس فى يدى　　فلمن أنت فى غدى ؟
فاستشاطت لقولتى　　غضبا فى تمرد
وأشاحت بوجهها　　وادعت أنى ردى
كاذب فى صبابتى　　ماذق فى توددى
قلت : عفوا فإنها　　سورة من معربد
وجرى الصلح والتقى　　ثغرها وثغرى الصدى
أذعن القلب طائعاً　　بعد ذاك التمرد
فنعمنا هنيهة　　بالولاء المجدد
بين ماء مصفق　　وهزار مغرد
ثم عادت وساوسى　　فأنا فى تردد

إلى آخر هـــذه القصة الحائرة ، وفى قصيدته « أنا وابنى » يقول أبو ماضى :

قال لى ابنى وهو حيـ　　ـران بما يحكى ويقرا
كيف كان الله　　إنى قد وجدت الله سراً
أسمع الناس يقو　　لون به خيراً وشراً
فأفدنى ، قلت : يا　　ابنى أنا مثل الناس طراً
لى فى الصحة آرا　　ء وفى العلة أخرى
كلما زحزحت سترا　　خلتنى أسدل ستراً
لست أدرى منك بالأ　　مر ولا غيرى أدرى

٤ - وإيليا(١) ابن « المحيدثة » تلك القرية الوادعة إحدى قرى لبنان الجبلية ، ولد فيها عام ١٨٨٩ م ، وفى عام ١٩٠٠ وفد على مصر مهاجراً ، وأقام

---

(١) راجع ص ٩٧ وما بعدها ، الشعر العربى فى المهجر ، للأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

فيها إحدى عشرة سنة بين الإسكندرية والقاهرة ، يعمل فى التجارة ،ويهوى الأدب ويحضر ندواته ومجالسه ، ويكتب فى صحفه ومجلاته ،وينظم الشعر، ويشارك الشعراء فى تذوقه وفهمه ، ومتأثرا فى موسيقاه الحلوة بمدرسة شعراء الإسكندرية ، وفى عام ١٩١١ نشر ديوانه « تذكار الماضى » وفى العام نفسه هاجر إلى العالم الجديد مقيما فى سنسناتى ، وفى صيف عام ١٩٢٦ انتقل إلى نيويورك يعمل فى الميدان الأدبى ، وأسهم فى الرابطة القلمية التى أنشئت فى نيويورك ، وتولى رياستها جبران خليل جبران ، وإن لم يكن من الذين حضروا أول اجتماعاتها فى أبريل ١٩٢٠ ، وفى عام ١٩٢٩ أنشأ جريدة « السمير » بنيويورك ،وكانت من أوسع المجلات العربية ذيوعاً فى العالم الجديد .

وفى المهجر الأمريكى أخرج ديوانه « ديوان إيليا أبى ماضى » عام ١٩١٦(١) ، وطبع فى نيويورك ويشمل شعره التأملى والوطنى والقصصى ، ثم نشر عام ١٩٢٧ ديوانه « الجداول » الذى طبع فى مطبعة مرآة الغرب فى نيويورك ، وقدم الديوان للقراء ميخائيل نعيمة ، وفى عام ١٩٤٦ أخرج ديوانه « الخمائل »(٢) . وبقى من شعره مجموعات كبيرة لم تجمع فى ديوان .

وخطرات أبى ماضى الفلسفية ، وقوة الفكر وتركيبه ، وعمق التجربة وحيويتها ، وحيرته بين التفاؤل والتشاؤم والانطوائية والانبساطية ،

---

(١) يذكر الناعورى أنه صدر عام ١٩١٩ ، ص ١١ إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث طبع عمان .

(٢) فى المرجع السابق ص ١١ أنه خرج عام ١٩٤٠ ، وأعيد طبعه عام ١٩٤٩

وموسيقاه العذبة الجميلة التي تجدها في كثير من قصائده ، ومن بينها قصيدته « تعالى » التي يقول فيها :

تعـالى لنتعــاطاها كلون التبر أو أسطع

وكذلك انطواء الرمزية في موضوعه الشعرى أو تجربته مع الإبقاء على الصياغة المألوفة . وصبغة الرمزية الفلسفية في بعض قصائده ، من مثل « الطين » التي تتضمن محاورة بين غنى متكبر وفقير وديع ، ومثل « التينة الحمقاء » التي تؤامر نفسها على ألا تثمر كي لا يطرقها طير ولا بشر ، واتجاهه إلى اتخاذ موضوع قصيدته من أتفه الموضوعات في مثل قصيدته « الحجر الصغير » . كل هذه من خصائص شاعرية أبي ماضي الذي يعد من فحول الشعراء الابتداعيين في الشعر العربي الحديث .

٥ — إن إيليا خالد في روائعه .. وموسيقى أبي ماضي وطيوف القصة وملامحها في شعره ، وشتى ألوان الجمال التي يصطبغ بها شعره ، وروح البساطة والوضوح والصدق التي ترفرف على قصائده ، كلها من عناصر الخلود في أدبه ، وقد لا يستطيع الشعر العربي أن يعوض الخسارة فيه بعد سنين طوال(١) .

وأخيرا وفي يوم الأحد ٢٤ من نوفمبر ١٩٥٧ ـ الثاني من جمادى الأولى عام ١٣٧٧ هـ نعى الشاعر إيليا أبو ماضي حيث توفى في نيويورك لحزن العالم كله لوفاته ، حزن لوفاة طفل قرية المحيدثة الغريب ، وصاحب دكان (السجاير) في مصر الذي عشق الأدب والشعر ، وشاعر الطلاسم والطين ووطن النجوم وسواها من روائع القصيد ، والذي أسهم في تطوير الشعر العربي : من

---

(١) راجع ما كتبته عن إيليا أبي ماضي في كتبي : الشعر والتجديد ودراسات في الأدب والنقد ورواد الشعر الحديث . ومن رواد الأدب المعاصر .

حيث الموضوع والشكل ، حتى عد أحد رواد الحركة الشعرية الجديدة ، والذى عرض الكثير من المشكلات الإنسانية وناقشها فى ملحمة الطلاسم الخالدة ، كمشكلة القضاء والقدر وموقف الإنسان منها ، والذى دعا إلى الطمأنينة والثقة والتفاؤل بالحياة ، والإيمان بجمالها الموهوب ، فى مثل قوله :

أيهذا الشاكى ومابك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلا
إن شر النفوس فى الأرض نفس تتوقى قبل الرحيل الرحيلا

هذا الشاعر الذى تألقت موهبته فى ديوانه «تذكار الماضى» الذى صدر فى مدينة الإسكندرية ، ثم فى «ديوان أبى ماضى» الذى ظهر فى نيويورك ، ثم فى الجداول والخمائل ، حتى صار أبرز شعراء المهجر الأمريكى ، وأسيرهم شعراً ، وأظهرهم فى بساطة الأسلوب ، وإنسانية الموضوع . . وجهود إيليا أبى ماضى مع رشيد أيوب وجبران خليل جبران وعبد المسيح حداد وسواهم فى إنشاء الرابطة القلمية سوف تبقى ذكرى لاتنسى على مرور الأيام .

وقد ظهر له بعد وفاته ديوان جديد بعنوان «تبر وتراب» .

القروى الشاعر

١ — شاعر فى رقة الهواء ، وصفاء الماء ، طارت شهرته فى كل مكان ، وهزت شاعريته العرب فى كل قطر ، وسارت أغانيه وأناشيده القومية والوطنية على كل لسان ورددت أهازيجها على كل فم .

شاعر عاش مؤمناً بعروبته ، مخلصاً لقوميته ، مضحياً فى سبيل إيمانه الوطنى بكل غال ونفيس .

عاش منذ عام ١٩١٢ فى المهجر الأمريكى الجنوبى فى البرازيل ، بعيداً عن الوطن العربى الأم .

ومع ذلك فقد ظل يعيش لينشر فكرة العروبة والقومية العربية ووحدة شعوب العرب بين إخوانه المهاجرين في أمريكا ، وبين أبناء عمومته العرب في شتى البلاد العربية .

لم يفته حدث وطني عربي إلا تحدث عنه ، ولم يترك محنة سياسية لشعب عربي إلا نظم فيها ، جاهد القوميين في المهجر وفي سوى المهجر بقصائده الرفيعة ، وناضلهم بلسانه العربي البليغ ، نضالا مرا جريئا قويا لاهوادة فيه .

كان القروى ينظر الى الأفق لعله يحمل إليه نسيما يهب من وطنه العربي أو يحمل إليه نبأ يبشره ببدء البعث في العالم العربي ، وكان يتنقل بين البرازيل والأرجنتين يخطب في وفود المهاجرين ، يبث فيهم روح الإيمان بالعروبة والقومية العربية ويذكرهم بذكريات المجد الخالد لآبائهم العرب الميامين ، ويشعل فيهم روح العروبة القوية المكينة لتظل شعلتها المقدسة خالدة في قلوبهم وفي عقولهم خلود أمجاد العرب وبطولاتهم .

هذا هو الشاعر القروى رشيد سليم الخورى ، الذى لم يتغير على مرور الزمان ، ولم يحد عن العهد ، ولم يترك قضايا أمة العرب لحظة من لحظات حياته المجيدة الكريمة .

٢ — وعاد الشاعر القروى من أرض الغربة إلى أرض الوطن عام ١٩٥٨ فاستقبلته دمشق الفيحاء واستقبلته بيروت وأرض العرب استقبال الأم الحنون لابنها البار الذى طالما كان يحن للقائها ، والذى طالما ردد فيها قوله :

أخت العروبة هيء كفنى أنا عائد لأموت في وطنى

وبين سورية العزيزة ولبنان الجبل العربي الأشم قضى القروى شهورا جميلة يفيء فيها إلى ذرى وطنه ، ويلثم ترابه ، ويشم عبق زهرة ورده ، وفي يناير عام ١٩٦٠ وصل القاهرة ضيفاً على مصر العربية ، ليشرف على طبع

ديوانه الذى قررت الدولة طبعه على نفقتها تقديراً منها لجهاد ابن من أبر أبنائها ، ولكفاحه فى سبيلها أكثر من ربع قرن قبل اغترابه ، ونحو نصف قرن وهو فى المغترب .

هذا الشاعر الذى بدت بواكير شاعريته فى مثل قصيدته الرائعة «لو ترين» التى يقول فيها :

أين ياهند أنت أين لترى آه لو ترين
شبحا باسط اليدين يسكب الدمع جدولين
أحمرين

شفه الحزن والجوى فهو أضنى من الهوى
كلما أن للنوى أرسل الآه مرتين
مرتين

إن شكا اغرورق النسيم وبدت فى السما غيوم
وتجلت على النجوم حيرة الدمع وهو بين
عاملين

لاصق الجسم بالتراب عالق الجفن بالسحاب
كل أيامه عذاب ليس يروى عن عاشقين
هائمين

تارة يركب القطار تارة يركب البحار
يشهد الليل والنهار إنه بين تارتين
مرتين

من وداع إلى وداع ليس فى ليله شعاع
ضربات بلا انقطاع أيها الدهر بين بين
بين بين

كل حظى من الوجود قلم ناحل وعود

وأنا والورى مجرد أنسلى ببلبلين
شاديين
إيه لبنان هل يراك هائم شفه هواك
حبذا العيش فى حماك حبذا العيش ليلتين
ثم حين

وفى هذه القصيدة الجميلة يبدو طابع شعر القروى فى عهد الشباب واضحا جليا ، هذا الطابع الرومانسى الحالم البعيد عن القيود والحدود .

ثم أخذت نفسه تفىء إلى حقيقة الواقع الأليم فى وطنه العربى الذى كبله الاستعمار بالسلاسل والأغلال ، فأخذ يشدو فى أعاصيره بوطنياته الرفيعة ، ويردد مثل قصيدته : « الاستقلال حق لا هبة » ، « ووعد بلفور » ، « ونكبة الشام » ، « وصيحة للجهاد » ، « وسقوط أورشليم » ويردد مثل قوله من قصيدته « عيد الفطر » :

صياما إلى أن يفطر السيف بالدم
وصمتا إلى أن يصدح الحق يافمى
أفطر وأحرار الحمى فى مجاعة
وعيد وأبطال الجهاد بمأتم ؟
أكرم هذا العيد تكريم شاعر
يتيه بآيات النبى المعظم
ولكننى أصبو إلى عيد أمة محررة الأعناق من رق أعجمى
إلى علم من نسج عيسى وأحمد
وآمنة فى ظله أخت مريم

وفى المهجر برز الشاعر القروى بوطنياته الرفيعة ، وبشعره فى القومية العربية ووحدة العرب ، ونظم فى شعر الطبيعة . ووصف بره بالأمومة ،

وتحدث عن أمانيه الإنسانية وعن مشاعره ووجدانه ، حديث الشاعر الحكيم .

ومن روائع قصائده فى المهجر قصيدته « أما الأولى » ، وقصيدته « حضن الأم » ، و « الأزهار الغريبة » ، و « زهرة ليونى » ، و « تسبيحة الحب » ، و « أين وجدت الله ؟ » ، و « الربيع الأخير » ، و « اليأس » التى يقول فى مطلعها :

هل بينكم من راحم قاتل يزحزح الأيام عن كاهلى
يقذف بى فى درك اللج لا يلفظنى موج إلى ساحل

٣ — ووفد الشاعر إلى مصر ، فكرمته هيئاتها الأدبية وأدباؤها وشعراؤها ، تقديرا لجهاده الطويل فى سبيل أمته .

هذا هو الشاعر القروى الذى يتسم بالغيرة على مستقبل أمته ، وبالحب العميق لعروبته ، والذى جمع إلى رقة الخلق وداعة النفس وصفاءها وعمق الروح وسموها ، ونبل الضمير والوجدان والمشاعر ، حيا العروبة بأدبه ، والعروبة اليوم تحييه وتهتف به وبأدبه ، ترد له بعض ماقدم ، وتوفى بعض ديونه التى طوق بها جيد العرب فى كل مكان .

إن ديوان الشاعر القروى ببواكيره التى تنتظم ديوانيه « الرشيديات » ، المطبوع فى سنة ١٩١٦ « والقرويات » المطبوع عام ١٩٢٢ فى صنبول وبأعاصيره وأزاهيره وبزمازمه ومحافله وبشتى أبوابه وفصوله دليل عبقرية فذة وشاعرية محلقة ، وموهبة جليلة .

٤ — وفى شعر القروى جوانب عدة من شعر الوطنية والقومية وشعر الوجدان وشعر الطبيعة وشعر التصوير والشعر الإنسانى ، وتعد قصيدته « حضن الأم » من أروع قصائده وأجملها ؛ ويشتمل ديوانه الضخم على المقدمة ، والبواكير والأعاصير وهى مختارات من شعره الوطنى ، والزمازم ، وشعر المحافل والمجالس ، وزوايا الشباب ، والموجات القصيرة ، والأزاهير ،

والقروى من زعماء المدرسة الكلاسيكية المجددة المعبرة عن الشاعر وانفعالاته وأحاسيسه وتجاربه ، ولا يكاد يجاريه أحد فى حسن الديباجة وجمال الأداء وروعة التصوير ورقة التناول .

إنه شاعر من أعماق نفسه ، شاعر رفاف الشاعرية حلو الموسيقى عذب الأداء جزل الأسلوب .

إنه شاعر فى شتى صوره ، وفى ارتعاشات فنه ، وفى كل مايتصل بشعره وشاعريته .

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

بحمد الله وعونه

فهرست الجزء الأول